عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثالث

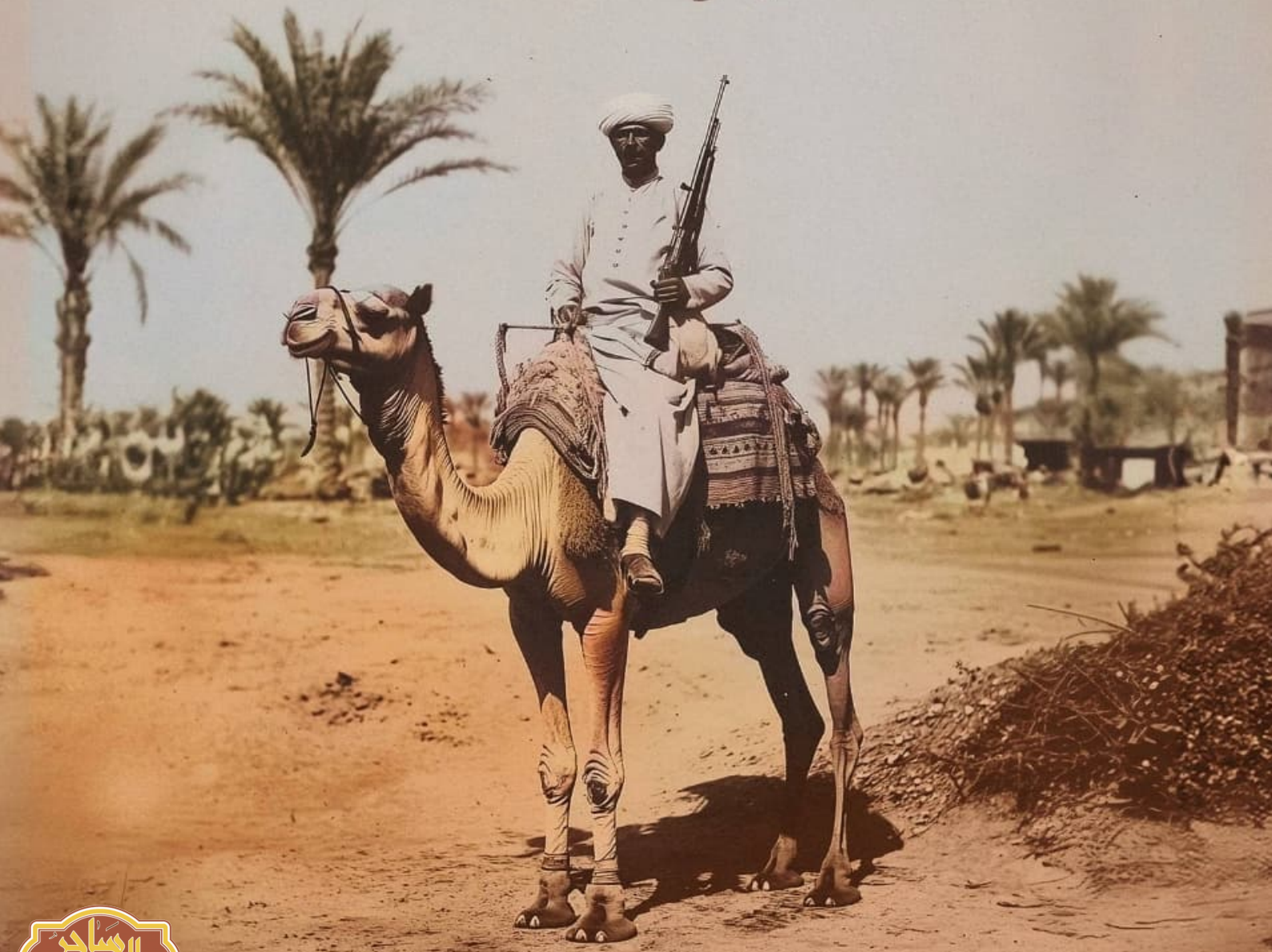

الدار المصرية اللبنانية

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن . – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
304 مج 3؛ 20 سم.
تدمك: 4 – 503 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
2– الملاحم العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 29087 / 2024

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

مَحَطَّةُ القِطَار

(1)

تنصب الأيام فخاخها أمام السائرين مهما كانوا في حذر. زاوية عمياء تهجم منها الشرور والأوجاع، ببنما يظن مَن أحكم التدبير أنه قد ظفر بالنجاة إلى الأبد. حتى الطرق المستوية مملوءة بالحفر، فما بالك بتلك التي اعوجت، تعلو وتنخفض، تضيق وتتسع، ولا تتهادى لأقدام المتعجلين.

أشد الفخاخ قدرة على الصيد هي التي تسكن الرؤوس. حكايات فاسدة ملتوية. روايات مفعمة بالحنين إلى الغابة. عناد يركب صاحبه. رغبة في الانتقام تتدفق في العروق بلا هوادة. النظر إلى الحياة من أسفل. بقاء الليل قائمًا في النفوس المهيضة حتى في وقدة الظهيرة.

لكن بين العميان على كثرتهم، توجد دومًا قلة مبصرة. بصيرة قبل البصر، قد يمنحها العلم أو الحكمة، ويا حبذا لو كانا معًا. هكذا كان «ناجي»، يبحث بين ظلام الحكايات عن خيط النور، فيقول للعمدة: بئس القرار الذي يتخذه الغاضبون. لكن العمدة يعانده قائلًا: حمية الرجال تدفع الأيام إلى الأمام.

(2)

رسا مركب عند «الجابرية» ذات صباح. نزل منه شاب متين الجسم، في يده عجوز كليلة البصر، تتوكأ على عصا ممشوقة من شجر الصفصاف. كانت العجوز تمشي على مهل، لا تكاد ساقاها

تحملانها. ما إن تقطع خطوات، حتى تتوقف لاهثة. نظر الشاب إلى بيوت القرية التي لاحت من بعيد، وقال لها: أرفعك على كتفي حتى لا يطول بنا الطريق.

هزت رأسها رافضة، وقالت: لا أريد أن تدخل بي القرية كسيحة.

وبينما هما يتجادلان ظهر خلفهما فلاح حافي القدمين على الجسر يمتطي حماره، فقال له الشاب: أريد مساعدتك. فأدرك الفلاح ما هو مطلوب منه، فترجل، وقال له: احملها برفق على ظهر الحمار.

مضى بها الحمار، وهي تقبض بيديها المعروقتين الواهنتين على مقدمة البردعة الممزقة. يسندها الشاب من اليمين والفلاح من اليسار. كانا غريبين على الفلاح، فسأل الشاب: مَن تقصد في قريتنا؟

نطقت العجوز بحروف مرتعشة: نريد بيت «عمر الصابر».

قال الفلاح: نعم، بيت العمدة.

قالت العجوز: هل صار عمدة القرية؟

أجابها الفلاح: منذ سنوات طويلة.

تهلل الشاب لما سمع، وأدرك أن رحلته المضنية قد تنتهي بما يسره، ويرفع عنه الشقاء الذي لازمه منذ ولادته، وحتى اللحظة التي يحياها الآن، ويسمع فيها أنه قد صار ابن عمدة.

لم يغلب الفلاح فضوله، فسأل الشاب: هل تقصدانه في مظلمة؟

نطقت العجوز: مظلمة طويلة يا بني، أطول مما تظن.

صمت الفلاح برهة، ثم قال: سأذهب بكما إلى السلاملك، هو مكان

نظر المظالم، أما السرايا فالعمدة لا يقابل فيها طالبي الحاجات.

رقص قلب الشاب في صدره حين سمع كلمة السرايا، ونظر إلى العجوز في امتنان، كما لم ينظر إليها من قبل، وقال لها: لم يذهب تعبك هدرًا يا أمي.

انبسطت تجاعيد وجهها، واستردت أنفاسها المبهورة، وقالت: لا تتعجل، فنحن لا ندري ماذا فعلت الأيام بمَن نقصده؟

حين وصل الحمار إلي السلاملك، أنزل الشاب العجوز، وأفسح له الخفر الطريق، فأجلسها على كنبة مفروش عليها كليم بني اللون. أسندت ظهرها إلى حاشية لينة من قطن، مكسوة بغطاء بني أيضًا، يكاد يمتزج بجسدها المصنوع من خشب الزان. أبلغ الشاب أحد الخفر، أنه جاء وأمه من بعيد للقاء العمدة في أمر مهم.

جاء «عمر» وخلفه اثنان من خفره. ما إن رآه الشاب حتى هب واقفًا، يتطلع إليه في رجاء. لم تقوَ المرأة على النهوض. حاولت لكن جسدها خانها، فأعادت ظهرها إلى المسند وهي تلهث، وقال لها «عمر» في إشفاق: ما عليك يا أمي.

انقبضت لما سمعته منه، لكن حالتها بالنسبة لرجل لا يزال قادرًا على النهوض والمشي والنطق بهذا الصوت الجهوري، لم تجعلها تتعجب. هي لم تعد لتكون له كما كانت في الماضي. فهذا مستحيل، لكنها جاءت إلى هنا لتنهي شقاء ولدها، ابن الخطيئة.

لم ينتبه «عمر» في البداية للشاب جيدًا، لكنه حين جلس أمامه وحملق فيه ارتج قلبه. ولأنه عاش منذ طفولته في بيت يعرف

المرايا، وكذلك في شبابه، رأى نفسه في الشاب. كأنه هو قبل سنوات بعيدة. نقل بصره إلى وجه العجوز، وتفرس فيه جيدًا، وتدفقت في رأسه الأسئلة كأشواك مسنونة، وغرق في حيرة، بينما تدفقت صور ظن أنها طُمست إلى الأبد. تحضر زاهية ثم تبهت وتغيم، مفسحة الطريق إلى صور أخرى.

ملأت الشكوك نفسه، وقبل أن يسأل العجوز عن شيء، نظر إلى الخفيرين اللذين كانا واقفين إلى جانبه، وقال لهما: اذهبا، وأرسلا خادمة لتحضر لنا ما نشربه.

ابتسمت العجوز عن أسنان مهرمة، وقالت: طول عمرك كريم يا سيدي.

رن صوتها في أذنه. كان الصوت القديم الذي أيقظ في نفسه الكثير من الأحاسيس، وكانت طلتها التي أطلقت في شراييه النار، وقت أن كانت مستعرة لا تهدأ، ولا تنطفئ. نظر إليها، وأعاد النظر إلى الشاب، وولد في نفسه السؤال الذي حبسه منذ أن رآهما: هل أنت..؟

وقاطعته بصوت غارق في الرجاء: خدامتك «تماضر».

ضرب «عمر» جبينه بيده، وقال: يااااااااه، ما أغرب الدنيا!

أرادت أن تقترب منه فسألته عن سيداتها، فانقبضت ملامحه، وقال: الباقية في حياتك.

تغضنت تجاعيد وجهها بالحزن، وقالت: يبدو أنني قد تأخرت طويلًا.

رفع وجهه إلى الشاب، وسألها: هل هذا ابنك؟

فأجابته دون تردد، وقطعت المسافات في كلمتين: وابنك أيضًا.

ارتعش من هول المفاجأة، وخانه لسانه، فسأل في تعجب: هل هذا معقول؟

ابتسمت المرأة، وقالت له: انظر إليه جيدًا، إنه أنت أيام شبابك. كنت كلما نظرت إليه تذكرت أيامي معكم. شقيت حتى أربيه، ولم أشأ أن أفارق الدنيا وأتركه وحيدًا، بينما أبوه رجل مقتدر.

لم يعرف ما يقول، ولا كيف يتصرف، فقبض على الحاشية القطنية الناعمة بيده، وأعاد النظر إلى الشاب، الذي كان يتطلع إليه صامتًا، وفي عينيه دموع حبيسة وخوف ورجاء. وقبل أن ينطق، واصلت العجوز: من حقك أن تعرف أن لك ابنًا صار شابًا يملأ العين.

يكذب هو إن قال إنه قد نسي «تماضر». الخادمة التي كانت عيونها مسكونة بالنداء، ثم انطفأ الآن، كما ذهبت جاذبيتها، لكنها لم تفقد بعد حضورها الآسر. عذبة نظرتها، وتنهيدتها، وإشارتها، وكان أعذب انكسارها، وهي تحاول أن تردم الهوة بين خادمة وسيدها، بمزيد من التفنن في إثارته، لتراه خاضعًا لها، قبل أن تعطيه نفسها عن طيب خاطر، حتى الشهقة الأخيرة.

إحساس عاشه معها، لا يزال يبحث عنه، رغم أنه تزوج من امرأتين جميلتين بعدها. كان انتقالًا من غابة متوحشة إلى حقل مهندسة زروعه، جميل المنظر، يريح العين، لكن كل الخُطى فيه مضمونة ومأمونة، تفتقد إلى المغامرة. لم ينسَ «تماضر» في كل مرة واقع فيها إحدى زوجتيه، وهو يضبط نفسه يبحث عن الريبة واللهفة

الحارقة.

نظر إليها في عطف، ورفعت هي إليه عينين عاد إليهما بعض البريق. همّ أن ينهض ويصافحها، ليرى ما إذا كان جسدها لا يزال، رغم تقدم السن، يحتفظ ببعض حرارته المتقدة، لكنه وجد نفسه يتراجع أمام هجوم الهواجس والأسئلة. تراءى له وجه «عبلة» وهي تتطلع إليه في اندهاش وعتب؛ لأنه أخفى عنها هذا السر، وكان يقول لها دومًا، من فرط ما أطلعها على مكنون نفسه، وما أهداه إليها ذكاؤها الحاد: صرت أمامك كتابًا مفتوحًا.

ها هي صفحات من كتابه خبأها كل هذه السنوات، لم يفتحها أمام «عبلة»، ولا «هنيّة» التي يخشى أيضًا من رد فعلها إن عرفت أنه كان يكذب، حين قال لها في ليلة العرس، وبعد أن فض بكارتها: ذقت أخيرًا طعم الأنثى. ولمّا أخبرته بأنه قد فتح عينيها على ما كانت تجهله، وسألته عن التجارب التي جعلته يفعل بها ما لم توصها به أمها، قبيل الزفاف بأسبوع كامل، قال لها: سمعت كثيرًا من الرجال أيام العمل بوكالة الجداوي، وهنا في الحقول. أما «عبلة» فقد قالت له بعد المضاجعة الأولى: تفعلها وكأنك راحل بعدها.

لم تكن تدري أن «تماضر» قد علّمته كيف يكتشف المخزون في جسده للنساء، ودربته على أن يعبث بلا خجل، بعد أن كانت هي تعبث به، لتوقظ اشتهائه العارم، فيستجيب لها دون تردد، ويتساءل عمن علّم الخادمة كل هذه الفنون.

لا يهم أن تكتشف «هنيّة» أنه قد كذب عليها، إنما لأنها وجدت بحضور هذه العجوز إلى «الجابرية» منفذًا آخر لتكيد له. واحدة

مثلها، تشمخ بأنفها في غرور لا يخمد، وتتحدث دومًا عن أنها عاشت في بيت أبيها عيشة الأميرات، ستعرف أن الرجل الذي رضيت بالاقتران به، وكانت ترى طوال الوقت أنها قد قدمت تنازلًا كبيرًا بالزواج منه، له ابن من خادمة.

شيء واحد كان يخفف من وطأة الموقف الذي وجد نفسه فيه بغتة، إنه هذا الشاب القوي، الذي سينضم إلى «الصوابر». متين البنيان بلا حد، لا أحد من جيله في القرية يماثله قوة. عشرة شباب في شاب واحد، جاءه في وقت كان محاصرًا هو بالكثرة المتحفزة، المفعمة بالرغبة في الانتقام، والتي تغلب الجاه والمال والشجاعة.

دار كل هذا في ذهنه بين غمضة عين وانتباهتها. تعجب كيف يمكن للمرء أن يختصر حياة طويلة في برهة واحدة. لم يكن قد عرف من قبل كيف يُكثّف الزمن، ويضغط الحكايات والهواجس، على هذا النحو الغريب. أسند رأسه على كفه، ففطنت «تماضر» إلى شروده، فقالت: لم تهرب منك الحيرة القديمة يا سيدي.

قفزت إلى ذهنه كلمة «سيدي» التي نطقت بها في المرة الأولى التي وقع في فخها بعد أن نصبته له بإحكام، وكيف أنه قال لها وهو يتودد إليها كي تساعده على إطفاء النار التي اشتعلت في جسده: أنت سيدتي، وأنا خادمك.

عرف وقتها كيف تتحكم الأنثى في الاشتهاء، أو تديره على مهل، متمنعة وهي راغبة. وكيف تنهار الحصون التي يبنيها الذكر من فرط جهله أو كبريائه المصطنع أو الخوف من الفضيحة.

جاءت الخادمة بأكواب القرفة والينسون، ومدتها إليهم، فأخذ

الشاب القرفة، وكذلك فعل العمدة، وأخذت هي الينسون. سحب رشفتين من كوبه الساخن، ثم ملأ عينيه من وجهها، وسألها: لماذا تأخرتِ كل هذا الوقت يا «تماضر»؟

واستعذبت اسمها حين نطق به، فقالت في تودد: كل شيء بميعاد يا عمدة.

انتبه إلى أنه لم يسأل الشاب عن اسمه، فسأله. ابتسم وقال له: اسمي «محبوب».

تدخلت «تماضر» قائلة: سميته هكذا؛ لأنه ابن محبة ضائعة. تطلع إليها متعجبًا، فواصلت: لم أكن امرأة ساقطة، أنا أعطيت مَن أحببته ما أراد، لست نادمة. وكانت قد صارحته في الزمن القديم بمحبتها له، رغم فارق السن بينهما، لكنه لم يحفل بما سمع منها، وعدّه جزءًا من الفخ الذي نصبته له، أو سبيلًا لتشجيعه على أن يتقرب منها أكثر.

ووجد نفسه يسألها: هل تزوجتِ يا «تماضر»؟

ـ اكتفيت من الحياة برجل واحد، هو أنت.

- لماذا لم تعودي للبيت قبل مغادرتنا «إسنا» لتخبريني بما جرى لك؟

- لم أقدر على رفع وجهي إلى وجه أمك. كنت جريحة ومكسورة، يكاد الخجل يقتلني، وطال الزمن بي حتى وجدت طبابتي.. في مرات كثيرة اقتربت من داركم، ثم عدت مسرعة، خائفة حزينة، وتابعت أخباركم من بعيد، حتى عرفت أنكم رحلتم، فانقطع الأمل.

- صرتِ الآن قادرة على أن ترفعي وجهك، وتتحدثي بما أخفيتيه

كل هذه السنين.

- يهرب الخجل مع تقدم العمر.

ولم يهرب من الابتسام، وهي تقول: أنا امرأة قعيدة كما ترى. والتفتت إلى «محبوب» وقالت: وضعت كل همومي في تربية ابني، وكان الله بي رحيمًا، فكلما كان يكبر، ويستدير وجهه، وضع فيه ملمحًا منك، وصار أنت، حتى إنني كنت أخطئ في بعض الأحيان وأناديه باسمك.

تنهد في ألم، وقال: يبدو أنكِ قد تعبتِ كثيرًا.

أطرقت صامتة، وكأنها تستجمع الحكاية الطويلة، لتطلقها في دفقة واحدة، ثم قالت: عملت خادمة في البيوت، وكنت أخبر أصحابها بأنني أرملة مات زوجها في حفر القناة، فكانوا يعطفون عليّ كثيرًا. ولمّا كبر «محبوب» رفض أن يتركني لخدمة الناس. منذ صباه وهو يكد لنرتزق. وجدت فيه شهامتك أنت و«جعفر» و«محمود»، حين لم تجعلكم نعومة أيديكم تتواكلون على ما تركه لكم الآباء، وارتضيتم بأشغال لم تُخلق لكم.

ثم توقفت فجأة، وسألت: أين سيدي «جعفر»؟

سكن الحزن ملامحه فجأة، وقال: البقية في حياتك.

ضربت صدرها بيد واهنة، وقالت: يا للخسارة! كم كنت أحترم هذا الشاب، الذي كبر قبل الأوان!

وواصل هو: أما «محمود» فهو معنا هنا، يشارك في عصارات قصب وزيوت وطاحونة.

تنهدت، وقالت: طيب، ويستحق كل خير.

شرد في خاطر داهمه فجأة، حين امتلأ رأسه بصورة هذه العجوز، التي تتعثر خطواتها على ثلاثة، ساقين متهالكتين وعكاز. أدرك كم كبر هو أيضًا، ووضع أصابعه على خده يتحسس موضع التجاعيد التي جاءت، ولمس فوديه، وكأنه يريد أن يهش الشيب الذي زحف إليهما بقوة. فطنت هي إلى ما انتابه، وهمت أن تسأله عن زوجته وأولاده، لكنه قال لها: لتبقي و«محبوب» معنا كضيفين عزيزين، ولتعذريني في إخفاء الخبر، إلى أن أمهد له.

انكمشت مكانها، ونظرت إلى ابنها، وقالت: معذور يا عمدة، فقد جئتك من غير ميعاد.

أبعد عينيه عن وجهها، متغلبًا على الضعف الذي سرى في شراييه، وقال: في البيت مَن تنتظرك، وستفرح لمجيئك.

أدركت مَن يقصد، فسألته في وجل: هل «خضرة» لا تزال هنا؟

أجابها، وهو يهب واقفًا: نعم.

نادى خادمة، وقال لها: جهزي غرفة للسيدة وولدها، ستبقى معنا ضيفة عزيزة.

راق لها أن يناديها بالسيدة، وإن كان وصفها بالضيفة أطلق في نفسها ريبة، واستدعت الماضي البعيد، حين تخلى عنها، وتركها تخرج من دارهم في «إسنا»، دون أن يسألها إلى أين هي ذاهبة، أو يفكر، ولو مرة واحدة، في البحث عنها، بعد أن ابتلعتها شوارع المدينة.

أما هو فتذكر فجأة وصية المجذوب الأخيرة، وقال لنفسه: هي التي وهبتني جسدها، ولم تكذب عليّ.

(3)

خصصت الخادمة الغرفة، وجاءت لتسند «تماضر» كي تستريح. تبعها «محبوب» صامتًا، فلمّا انغلق عليهما الباب، قال لأمه في أسى: ظننت أنه سيجري نحوي، ويأخذني في حضنه.

ابتسمت، وقالت: كان يحضنك بعينيه.

تحسست بكفيها السرير الصغير الذي أخبرتها الخادمة بأنه لها، ومدت بصرها إلى سرير مثله يقابله أُعدّ لابنها، وقالت له: لا تؤاخذه، فهو بارع في إخفاء مشاعره. احترت في السنين البعيدة أن أعرف إن كان قد أخلص لي أم لا، لكنه كان يروغ مني، وترك لي الحيرة، وذل السؤال.

كان «محبوب» يجلس عند قدميها، ليخلع حذاءها الأجرب، فقال، وهو يسند ظهرها إلى الوسادة: ما أراه أنه يحمل لكِ مودة.

ابتسمت، وقالت: ربما يحن لشبابه فقط، وهذا ليس قليلًا.

(4)

كان القلق قد سكن نفس «قطاوي» حين عرف ما جرى عند المسجد بين «عمر» و«رشدان». قال للأخير بعد أن سمع منه على مهل: ليس من المصلحة أن تقوم بيننا وبين «العمدة» عداوة.

ـ لا تخشَ شيئًا، فكفتنا هي الراجحة.

- لا تجعل الغرور يفتح أمامنا باب الخسارة.

- القرية لنا، وأهلي هم الأكثرية، ومعنا المال.

- معه السلطة، وهذه ليست بالقليل. هو عين الحكومة على كل شيء هنا، وكلمته مسموعة.

- الحكومة لا تشغلها سوى الضرائب، ونحن لا نتأخر في دفعها عن أرضنا، ولما تدور العصارات، سندفع عنها ما هو مطلوب.

- لا تنسَ أن الإنجليز يريدون استقرارًا، حتى يقبضوا على زمام الأمر.

وكان «رشدان» قد وصله ما فعله عساكر الإنجليز في البندر حين ثار شغب، فقال: سنكون حذرين في تدبيرنا.

- لنفكر فيمَن يصالحك على العمدة، ونغلق باب الشرور.

- لا يمكن أن أصالحه.

- يا رجل، إنه خالك، وأنتم تقولون الخال والد.

- خالي وأخذ مني ما ليس له، وينظر إلينا في استعلاء.

- إذن لا بد من أن نمضي في طريق آخر.

ثم جال ببصره في أرجاء السلاملك، وواصل: المكان جاهز، لا ينقصه إلا العمدية، ومعها السلاحليك والخفر.

- هل تعني..؟

- لا ينقصك شيء لتكون أنت عمدة القرية.. لا أعرف كيف أفلتت

منك الفرصة أن ترث العمدية عن أبيك؟

- كنت لا أزال صغيرًا، وإمام المسجد جمع الناس حول «عمر».

- ها أنت قد أجبت. الصغير قد كبر، والناس أغلبهم من أهلك.

- هناك فلاحون جاءوا إلينا من بعيد، والنصارى، وما تبقى من اليهود، ويوجد معلمو المدرسة، ولا تنسَ أن «عمر» متزوج من سيدة «الجوابر» أجمعين.

- هناك ما هو أهم، إنها الحكومة يا عزيزي.

- صلته بها أقوى.

- لا تشغل بالك بهذا، فلديّ ما أستطيع فعله.

طلب «قطاوي» ورقة وقلمًا، فجيء له بما أراد. جلس ليكتب شكوى إلى المديرية ضد «عمر»، وساعده «رشدان» في تذكر كل ما يمكن أن يكون نقيصة في أداء العمدة، وأولها أنه لا يعدل بين الناس، ويثير الفتنة، ثم زعم أنه يجبر الفلاحين على العمل في أرضه بلا أجر، مستغلًا سلطته في إعادة السخرة إلى القرية بعد زمن طويل من انقضائها.

ولمّا فرغ «قطاوي» من كتابة الشكوى، قرأها على «رشدان» وهو ينتظر منه استحسانًا، لكنه قال: يمكنه بسهولة أن يُكذِّب كل هذا، وسيجد مَن يشهد لصالحه.

ضحك «قطاوي»، وقال: لا تتعجل الأمور يا عزيزي، إنها البداية، وكما يقال: «العيار اللي ميصبش يدوش».

راح «قطاوي» يستعرض أمامه أسماء مَن يعرفهم من الكبار، الذين كانت الصناعة والتجارة طريقه إلى جيوبهم، وكان لسانه المعسول طريقه إلى قلوبهم. كان يتحدث في فخر، ضاربًا عصفورين بحجر واحد، فهو يستطيع أن ينفع بهؤلاء الكبار مَن يشاركه في المشروع الجديد، ولديه قدرة بهم أيضًا على ضرر مَن يفكر في الغدر به أو يسعى إلى سرقته. لم يغب على «رشدان» ما يقصده الرجل، إذ كانت عيناه تنطقان بهذا، متقلبة بين لين وشدة، ووعد ووعيد.

وسأله «رشدان» إن كان أحد من هؤلاء الكبار يشغل باله بالعمدية في قرية بعيدة، فقال: هم يدركون جيدًا أن مقاليد الحكم في بلادنا تبدأ من القرى، وبعضهم تعود أصولهم إلى الريف. وحين وجد السرور قد ملأ وجه «رشدان»، ابتسم، وقال له: لكن كل شيء له ثمنه.

وضع «رشدان» يده على جيبه، وقال: إن جئت لي بالعمدية فلك الحلوان.

قهقه «قطاوي» وقال: الحلوان لهم، أما أنا فيكفيني تثبيت ما بدأناه.

(5)

ترك «عمر» السلاملك، وتوجه على الفور إلى السرايا. قطع الطريق إليها سيرًا على قدميه. طلب من خفره أن يتبعوه من بعيد، وكانوا قد اعتادوا أن يكونوا خلفه مباشرة، لا سيما منذ أن ساءت علاقته بـ «الجوابر». كان يريد أن يفكر وحيدًا في كل ما سمعه من «تماضر». تنجاب في رأسه الحلول، فيرى الأمر سهلًا، لكن في كل يسير تولد عسرة. تَعقَّد كل شيء أمامه، ولأول مرة يجد نفسه أمام شيء آخر

من الماضي يطارده. قال لنفسه بصوت خفيض: ألم يكن كافيًا الوعد الذي حملناه على أكتافنا حتى كلّت؟

حين وصل وجد «ناجي» يجلس في البهو السفلي، يحتسي مشروب النعناع الساخن، محملقًا في الجدران. كان شاردًا كما لم يرَه «عمر» من قبل، حتى إنه لم يشعر بدخوله. ألقى عليه السلام، وجلس قبالته، ثم قال له: أراك مهمومًا.

ابتسم، وقال: يشغلني الآتي، وعليّ اتخاذ قرار مهم على مهل.

ظن «عمر» أنه مشغول بالتدابير السارية حيال «الجوابر»، لكنه فوجئ به يقول: جاء وقت الاختيار. ثم سحب رشفة من كوب النعناع، وقال: إما أن أبقى في «القاهرة»، ويكون لي عمود في الأزهر، أو أرضى بما عرضه عليّ شيخي.

- هل هناك عرض آخر؟

- يرى شيخي أن بلدي أولى بي. صارت هناك معاهد أزهرية في البنادر، وعلى أمثالنا ألا يتركوها للجاهلين.

فرح «عمر» لما سمعه، وقال له مشجعًا: لم يرَ شيخك سوى الصواب.

كان في حاجة إلى أن يبقيه إلى جانبه، فهو شاب على علم وحكمة، يُجلّه أهل القرية، ويلجؤون إليه في كثير من المسائل، بعد أن وثقوا فيه أكثر من إمام المسجد. وجوده في البندر سيفتح له بمرور الأيام مسارات مع كبار الموظفين، وضباط المديرية، وربما تكون له كلمة مسموعة عند الإنجليز، الذين يلتقطون أمثاله ليكونوا

جسورًا بينهم وبين عموم الناس.

رفع «ناجي» رأسه، وقال: وجودي في «القاهرة» يفتح لي طريقًا فسيحًا.

ابتسم «عمر» وقال: أنت هناك مجرد واحد من كثرة، أما هنا فستكون في الصدارة.

راق له هذا الرأي، وكانت زاوية لم ترد على خاطره، فقال للعمدة: ما خاب مَن استشار.

ابتسم «عمر»، وقال: كن قريبًا منا، أمك في حاجة إليك، ويكفيها أنها انتظرت طويلًا. أبوك كان طريد جريمة لم يرتكبها، يأتيها بين حين وآخر، وأنا مشغول بأمور العمدية والأرض، وأنت ما إن كبرت لتعوضها، حتى سافرت إلى الأزهر.

ثم نظر إليه في تودد، وقال: أنا أيضًا في حاجة إليك. كن بجواري في هذا الظرف العصيب.

صمت برهة، ثم قال: يقدم الله ما فيه الخير.

وغاص كل منهما في هواجسه. لم يحسم «عمر» في المسافة التي قطعها بين السلاملك والسرايا أي شيء، ووجد في الشاب الجالس أمامه خير مَن يُطلعه على سره، ويستشيره فيما يجب عليه أن يفعله. طالما استشاره في أمور معقدة، فكان عنده الرأي السديد.

تنحنح، فانتبه «ناجي» إليه. اكتسى وجهه بابتسامة عذبة، وقال: يبدو أن عمدتنا لديه اليوم ما يعكر صفوه.

انتابه تردد وحيرة، وقال: مشاغل العمدية والأرض، لا جديد.

- لا أعتقد، يبدو أن هناك أمرًا آخر.

صمت العمدة برهة، وقال: لا أجد خيرًا منك يعينني على هذا الهم، الذي لم يكن على البال ولا الخاطر.

وتطلع إليه مشجعًا إياه على أن يواصل كلامه، فقال: أنت تعرف أني أراك ابني، بل منزلتك في قلبي أعلى من منزلة ابن «هنيّة».

- لا تحتاج إلى قول هذا.

- سأخبرك بكل شيء تفصيلًا، وعليك أن تعذر وتقرر.

- لا يجب أن تكون حواجز بين أب وابنه.

تزحزح في جلسته حتى اقترب منه، وراح يحكي له كل شيء، من البداية وحتى النهاية. كانت الكلمات تتعثر على لسانه، ثم تنطلق، لتعود إلى عثرة جديدة. حكى دون أن يرفع عينيه إليه. بقي ناظراه مدفونين على سجادة ملونة مفروشة تحت قدميه، حتى بدا أنه مشغول بإحصاء الخطوط الملونة والصور. كان يغالب الخجل، وهو يختصر الزمان والحنين والوجل في عبارات مكسورة كخاطره.

وأنصت إليه «ناجي» بإمعان، فلمّا انتهى قال له: لا يهرب الكبار من مشكلاتهم.

- لم أخفِ عنك شيئًا.

- الابن سر أبيه.

- حين تغلبني الظنون، أبحث عندك عن اليقين.

- المصارحة تجلي الهموم، والبوح يذهب عن النفس كثيرًا مما يضنيها.

وسأله «ناجي» إن كان عليه أن يصارح «عبلة» الآن بهذا الأمر، فقال له: لنؤجل هذا حتى نستيقن من كل شيء.

طلب «ناجي» أن يرى «تماضر»، وقال له: قرأت في علم الفراسة، أوزن مَن أراه، وأعرف إن كان صادقًا أو كاذبًا.

ابتسم «عمر» وقال: نتعشم دائمًا أن نجد عند أهل العلم الرأي السليم.

(6)

حين وصل «ناجي» إلى الغرفة التي تسكنها «تماضر»، وجد خضرة عندها. وكان «محبوب» يجلس على كليم، ينصت إلى الحكايات القديمة التي تتبادلانها. طلب «ناجي» الانفراد بـ «تماضر» فذهبت «خضرة» إلى غرفتها، وخرج «محبوب» إلى السلاملك يغالب الخوف والحيرة.

جلس «ناجي» على مقعد قبالتها، وقال لها مشجعًا: مَن تقع عيناه عليكِ يا أماه يشعر بارتياح عجيب.

- يعطي الله القبول لمَن يشاء، هو أعلم بحالي.

نظرت إلى قفطانه الفخيم وعمامته ناصعة البياض، وظنت أنه ربما يكون إمام المسجد، أو مأذونًا أتى به «عمر» ليعقد قرانه عليها، ويرد إليها كرامتها أمام ابنها، وأهل القرية أجمعين. في نظرتها هذه

اندفعت صور الماضي قوية في رأسها، تحضر ثم تغيم، وهي تعصر ذهنها لعلها تنهي ظنونها حول هوية الجالس أمامها. وفطن هو لما يدور برأسها، فقال لها في تودد: أنا «ناجي بن جعفر».

سرت في ملامحها فرحة، حتى علا صوتها على وهنه، وقالت: الغالي ابن الغالي.

سرّه ما سمع، وشعر بأن شيئًا عزيزًا حميمًا يربطه بالعجوز الجالسة أمامه. شيئًا أمتن مما تصور وهو يقطع الطريق من السرايا إلى بيت العمدة. اقترب منها، وقال: ما أقسى ما يُفرق البشر!

- هكذا الدنيا يا ولدي، ما إن تعطي حتى تأخذ.

راقت له حكمتها، وتزحزح في جلسته، ثم مد بصره إليها، وقال: وقع عليك ظلم كبير.

- لست نادمة على شيء.

لاذ بالصمت، بينما سكنت رأسها هواجس، حاولت طردها بسؤال مباغت: هل أخبرك العمدة بما جرى بيننا؟

- جئت من أجل ذلك.

- هل وجدته مصدقًا ما قلته له؟

- لم يُكذِّبه أمامي على الأقل.

أصابها شيء من خيبة الأمل، وقالت: الظن يجرح الحقيقة.

- ليس ظنًا، إنما رغبة في الوصول إلى اليقين.

- له ما يريد، قلت ما عندي، والله يهديه إلى الصواب.

وبذهنية قاضي الشريعة، كما ارتضى أن يكون، سألها وهو ينظر في عينيها: في مثل هذا يحتاج الناس إلى أدلة قاطعة.

انكسف بالها، وقالت بصوت واهن: وهل هناك دليل أكبر من ابنه؟ يراه الناظر إليه، ومَن رأى «عمر» في شبابه، وكأنهما حبة فول انقسمت إلى نصفين.

- هذا معقول، لكن ألا يوجد دليل آخر؟

- توجد شاهدة على كل هذا، يعرفها العمدة جيدًا، كانت تعمل خادمة في بيتكم بـ «إسنا» مثلي تمامًا، اسمها «أم الخير»، أحمد الله على أنها لا تزال حية ترزق.

بدا «ناجي» وكأنه يعتبرها أول قضية يفصل فيها. تمرين جاء على غير موعد، بل هو أعمق من هذا، إنها مسألة تخص شخصًا يدين له بالكثير، والحكم فيها سيترتب عليه ما لا يمكن أن يستهين به أحد من الأسرة. استدعى كل ما يعرفه عن الفراسة، ونظر في عينيها مليًا، وسألها: متى قابلتِ «أم الخير» لآخر مرة؟

- لم أرها منذ ستة أشهر على الأقل.

- هل تعرف أنكِ جئتِ إلى هنا؟

- لم أخبرها هذه المرة، حتى لا تمنعني كما فعلت في مرات سابقة، كنت كلما هممت لأجيء وبختني، وأطلقت في نفسي الصدود، عن رجل تخلى عني، وربما يؤدي ظهوري في حياته فجأة إلى إرباكها.

- متى عرفت «أم الخير» خبر ما في بطنك؟

- هذا يوم لا يمكن أن أنساه. جريت إلى «أم الخير» فور معرفتي بخبر حملي. كنت حزينة وحيرانة وخائفة وفرحانة ومطمئنة. شعور غريب كان يملأني. دوامة كانت تسحبني حتى أحس أن روحي ستخرج من جسدي، ثم تعيدني إلى الحياة مرة أخرى. كنت خائفة من الآتي، وفرحة بأن في بطني ابن رجل غالٍ عليّ. لقيت نفسي في واحدة من اللحظات التي لا تغيب عن بالي أبدًا.

- هل تزوجتِ بعد خروجك من بيت العائلة؟

أجابت وفي صوتها صدق ظاهر، لم يخفَ عليه: لم يمسني رجل إلا عمر. وشعرت بأن هناك مَن كان يجب عليها أن تذكره، فتاهت برهة، ثم عادت: ولدت محبوب بعد خروجي من بيتكم بسبعة أشهر، على يد داية إن كانت لا تزال حية فهي عجوز عمرها فوق الثمانين. كان هذا في غرفة ضيقة استأجرتها فوق سطح بيت قديم، وحضرت الولادة أم الخير، وأمامها اخترت اسم ابني.

- وما عنوان الداية و«أم الخير»؟

- عنوان «أم الخير» في رأسي، وسأبلغك به، أما الداية فلا أعرف لها عنوانًا، لكن «أم الخير» التي ولدت ست مرات، ربما تعرف.

أخرج من جيبه ورقة وقلمًا، ودوّن العنوان التي أملته عليه، ثم طواها ودسها في جيبه، وقال: تأكدي من أنني لن أظلمك.

هزت رأسها، وقالت: رحم الله أبوك، كان شجاعًا وعادلًا.

(7)

ترك «محبوب» أمه مع «ناجي» وكان قد ضجر من جلسة البيت، وهو الذي اعتاد البراح، فخرج إلى الشارع ينظر إلى وجوه الناس والبيوت. كل مَن رآه من الرجال والنساء العجائز نظر إليه طويلًا، وراح يطابق وجهه بوجه العمدة حين جاء إلى القرية شابًا. قال بعضهم في سره: هل كان له ابن يخفيه عنا؟

أخذته قدماه إلى الزاوية. كان بابها مواربًا على فراغ وصمت. نظر فيها فوجد كُتيِّبًا ملقى على حصير يتوسطها. دخل على مهل، وأمسك الكتيب، ونظر فيه بحسرة، فهو لم يلتحق بالكتاب ولا المدرسة. حال فقر أمه بينه وبين أن يفك الخط، كما هو صديقه الصدوق «سيف الدرديري»، الذي هو وحده مَن يعرف حكايته.

نظر إلى الكُتيِّب طويلًا، وراح يقلب صفحاته على مهل، وهو يشعر بارتياح. كان يشبه الكُتيِّبات التي رآها في صحن جامع «عبد الرحيم القناوي»، أدرك بالطبع أنه ليس القرآن، فالأخير لا يخفى عليه شكل حروفه، وحجمه، إنما هو شيء يخص الدين على أي حال.

ترك الكُتيِّب مكانه، بعد أن قبّله، وخرج ينظر إلى القبور المتراصة، ثم إلى الزرع الممتد هناك، ليلوح له الجسر، وخلفه النهر، وسأل نفسه: هل يكون لي في هذا المكان عيش وصحبة؟

(8)

انتشر في القرية نبأ الغريب الذي هو صورة كاملة من العمدة، حتى وصل إلى «رشدان»، فأنصت إلى ما سمعه، وقال: أمر عجيب ومريب.

فلما أبلغ «هنيّة» بما سمع، فكرت قليلًا، ثم سألت: هل له أخ لم يخبرني عنه كل هذه السنوات؟

- لم تحدثني أمي يومًا عن شيء كهذا.

ثم قفز إلى ذهنه «محمود»، فقال: عندنا مَن يأتينا بالخبر اليقين.

لكن «محمود» قال متعجبًا: «يخلق من الشبه أربعين».

لم تشفِ إجابته غليل «هنيّة» التي سكنت نفسها شكوك، بأن وراء الغريب سرًا. وجدت نفسها تتقلب على حصير من جمر، فقالت: لا أستطيع الصبر. وتفتق ذهنها عمن سيأتيها بالخبر اليقين، فنادت ابنها «رافع»، وقالت له: وحدك الذي يستطيع دخول بيت أبيك الآن. وحدثته عما يتردد بين أهل القرية، فطوح ذراعه في الهواء مستهينًا بكل شيء، وقال: يحب أهل قريتنا النميمة أكثر من الأكل. لم يعجبها رده، فقالت له في حسم: لا تعصَ أمك إن طلبت منك شيئًا.

صمت قليلًا، ثم خرج على الفور إلى بيت العمدة. فلمّا وصل طرق الباب، ليجد خادمة في وجهه. اقترب منها، وسألها: هل في البيت ضيوف؟

- ضيفة وابنها.

- أريد أن أراهما.

وجمت ولم تعرف ما عليها أن تفعل، فتركها في ترددها وقطع الصالة الخارجية إلى ردهة تؤدي إلى الغرف، فلمّا وجدته عازمًا على ما يريد، أشارت إلى الغرفة المهجورة، وقالت: هنا.

فتح الباب، ووقعت عيناه على وجه «محبوب»، فاتسعت حدقتاه دهشة، وقال وهو ينقل بصره إلى أمه: مرحبًا بضيوفنا.

وسألته «تماضر» عمن يكون، فابتسم، وقال لها: أنا «رافع» ابن العمدة.

تطلعت إليه في فرح، وقالت، وهي تنظر إلى ابنها: أنا «تماضر»، وهذا ابني «محبوب».

صمت برهة، وسألها: من أي بلد أنت؟

أجابه «محبوب»: من «إسنا».

راح «رافع» ينقل بصره بين العجوز وابنها، وهو يحاول مغالبة الخواطر الغريبة التي اجتاحته. شعر بارتياح شديد لهما، وكأنه يعرفهما منذ زمن بعيد، ولولا أن أمه لن تكتفي بما انتهى إليه، وقد توبخه إن عاد ليخبرها بما سمعه فقط، لاكتفى بهذا الارتياح، ونهض خارجًا. تعثر السؤال على لسانه، كلما همّ أن يطرحه، غاب في حلقه، لكنه لم يلبث أن غلب تردده، وقال متوجهًا إلى «محبوب»: كأنك أبي كما وعيت على صورته وأنا طفل.

سألته «تماضر» على استحياء: ألم يخبرك أبوك عنا؟

هز رأسه، وقال: لم أقابله منذ شهور.

قهقه «محبوب»، وسأله: هل عدت من سفر؟

- لا، لكن أمي تركت البيت غاضبة، وذهبت معها.

ابتسمت «تماضر»، وقالت: من الطبيعي أن ينحاز الولد إلى أمه.

ولم تشأ «تماضر» أن تخبره بمن تكون، حتى يستيقن العمدة مما يسعى إليه، ثم يخبر هو أهل القرية جميعًا. تنحنحت، وقالت: أنا قريبتكم، فرقت بيننا الظروف والأيام.

لم تكن إجابتها كافية، فسألها: هل أنتِ عمتي؟

- نعم، أنا كذلك.

- حكى لي أبي عن تفرق أهله بين البلاد في الزمن البعيد، وجميل أن يجمع الله شملنا.

- قادر على كل شيء.

(9)

أصر العمدة على أن يصحب «ناجي» إلى «إسنا». حاول أن يثنيه عن هذا، وقال له: لا يصح أن نترك المرأة وابنها هنا بين مَن لا يعرفونها جيدًا. لم يكن يدري في هذه اللحظة أن أهل القرية يتهامسون عن الغريب الذي رأوه يشق الشوارع إلى الزاوية، فقال: سأوصيهما بألا يخرجا من البيت حتى نعود. وحين لم يجد «ناجي» مقتنعًا بما عزم عليه، قال: يأكلني الحنين إلى أيام شبابي هناك.

حين خرجا إلى المرسى ليركبا الماء إلى المدينة، قال «عمر» وهو ينظر إلى الشريط الذي شق الزرع انتظارًا للقطار: ستقصر المسافات قريبًا.

لم يجد «عمر» المدينة كما كانت يوم أن غادرها. مبانٍ جديدة امتدت على أطرافها. أخرى حلت مكان التي هُدمت. بدت الشوارع غريبة عنه، لا يُقربها من نفسه سوى البيوت التي بقيت على حالها

تغالب الزمن، ومعها وكالة الجداوي، والمعبد، ومآذن المساجد وقبابها.

كانت «أم الخير» تسكن شقة ضيقة في بيت قديم، بعد غرفة السطوح، اشتراها زوجها قبل سنوات، بعد أن أخذ نصيبه من سرقة الأموال التي كانت مدفونة تحت الزاوية، وقال لها إنه نصيبه من تجارة شارك فيها. لم تصدقه وقتها، لكنها لم ترفض الانتقال إلى سكن جديد، بعد أن ضاقت الغرفة بها وبأولادها. لم يصارحها وقتها خوفًا من أن تهرب إلى «الجابرية» من جديد، وتُبلغ سيداتها بما جرى، وهي التي كانت موالية لهن أكثر من زوجها اللص الغشوم. لكنه وهو على فراش الموت اعترف لها بكل شيء، ثم أغمض عينيه إلى الأبد.

عرفت «عمر» فور أن فتحت الباب، وقالت في فرح: خطوة عزيزة يا سيدي، مفاجأة جميلة!

وقدمت له القرفة التي كانت لا تزال تتذكر محبته لها، وسألته: كيف عرفت عنواني؟

- مَن يسأل لا يتوه.

نظر إلى صبي بجوارها، كان يجلس متطلعًا إلى «عمر» و«ناجي» في صمت، وسألها: هل هذا ابنك؟

- واحد من خمسة رجال.

- ما شاء الله، ربنا يخلي.

وسألته وهي تتطلع إلى «ناجي»، دون أن تقدر على إخفاء ارتباكها:

زيارة خاصة لي، أم كنت في «إسنا» ولم ترضَ العودة إلا بعد مودتي؟

ـ جئت أنا و«ناجي» لزيارتك في أمر مهم.

ملأت عينيها من «ناجي»، فأدرك ما يدور برأسها، فقال: أنا ابن المرحوم «جعفر».

وتدخل «عمر»: إنه قاضٍ شرعي.

وقبل أن تنطق قال «ناجي»: جئناك في أمر ضروري، ولا توجد غيرك مَن تجيبنا عن السؤال الذي يشغلنا، وأنا واثق أننا سنجد عندكِ الصدق.

ارتج صدرها، معتقدة أنهما قد تمكنا من فض سر السرقة القديمة، وجاءا للحساب. غلبت ارتباكها، وقالت: لم أتمنَّ لكم دومًا إلا كل خير. حين أخذ «عمر» في سرد ما سمعه من «تماضر»، راح الارتباك يزول من نفسها رويدًا رويدًا، حتى ارتفع صوتها هذه المرة، وقالت في ثقة: كل ما قالته صدق.

لكن «ناجي» أراد أن يسمع منها أيضًا، فدعاها إلى أن تُخبره بكل ما جرى في السنوات التي مضت. أعادت الحكاية، غارقة هذه المرة في تفاصيل صغيرة، لكن مسارها الأساسي لم ينحرف عما قالته «تماضر»، ولا ما أعاده «عمر». كان «ناجي» يدقق في كل ما تنطقه، يُقابل الكلمة بالكلمة، ويُضاهي العبارة بالعبارة، والأمارة بالأمارة، حتى استقر في يقينه أن «محبوب» من صلب العمدة، وأن التي تركوها في «الجابرية» تصارع القلق والحيرة، تستحق أن يرد إليها

اعتبارها.

كان «عمر» ينقل بصره بين فم المرأة وعيني «ناجي» فيزداد اقتناعًا بكل شيء، وهو غارق في شعور لم يجربه من قبل. كان فرحًا لأنه وجد الولد الذي يعوضه عن تخلي «رافع» عنه، وكان حزينًا على أنه ظلم امرأة لم تضن عليه بشيء، وابنًا قست عليه الحياة بعيدًا عن لين العيش في كنف أبيه. كان خائفًا من رد فعل أهل القرية إن عرفوا الحكاية القديمة، وكان مطمئنًا إلى قدرته على أن يُقنع الناس بما يريد، وليذهب مَن لا يصدقه إلى الجحيم. الشيء الوحيد الذي جعله يضطرب هو ما يتوقعه من «هنيّة»، أما «عبلة» فهي امرأة عاقلة، وحتى لو أصابها ضيق، فسيتمكن «ناجي» من تهدئتها، وهو القاضي الذي عاهد الله على ألا يظلم أحدًا.

حين انتهت «أم الخير» من نبش الماضي، سألها عن زوجها، فأجابته: مات منذ سنين.

نظر إلى ولدها، وعاد يسألها: أين بقية أولادك؟

ابتسمت، وأجابته: اثنان في داريهما، تزوجا وأنجبا، فصرت جدة، واثنان يسعيان على رزقنا.

برقت فكرة في رأس «عمر»، فهو في أشد الحاجة إلى الرجال في أيامه هذه. اقترب منها، وسألها: هل أنت راضية عن العيش هنا؟

- نحمد الله على نِعَمه.

- صارت لي هناك أرض واسعة، ومعلف بهائم، وأفكر في قادم الأيام أن تكون لي تجارة.

- ربنا يوسعها لك، ويزيدك من الخير والبركة.

- أتمنى لو جئتم معنا، هناك البراح، واللقمة الطيبة.

تدفق الفرح في وجهها، وقالت: لو عليّ لقمت معك من الآن، لكن لا بد أن يوافق أبنائي.

- هل يمكن أن أقابلهم؟

نظرت إلى شعاع الشمس المنكسر على كليم قديم تحط عليه أقدام الجالسين، وأجابته: لم تبقَ سوى ساعة واحدة على عودة اثنين، والثالث هنا. كلهم أجراء، يلتقطون أرزاقهم يومًا بيوم.

صمت «عمر»، وهو ينظر إلى «ناجي» الذي بدا مستريحًا لما يسمع. وضع إلى جانبه كوب القرفة بعد أن سحب آخر رشفة فيه. دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا، ومده إلى الصبي، لكنه هز رأسه رافضًا، وهو ينظر إلى أمه، فقالت له: لا ترد يد سيدك «عمر»، فخيرهم علينا.

قُضيت الساعة في حكايات الماضي البعيد. طُرق الباب ودخل شابان فارعا الطول، ينطق وجهاهما بعافية ورضاء. قدمت لهما الضيفين، وقالت لأحدهما: أبلغ أخويك بأني في انتظارهما لأمر لا ينتظر.

فلما جاءا، فاتحهما «عمر» بما يريد. وعدهما بحياة أكثر راحة، بعد أن عرف من أمهما أن كلًا منهما يسكن غرفة ضيقة مع أولاده، ويعيش على الكفاف. قال لهم وهو ينظر في وجوههم التي تراصت أمامه: ما أدرانا، لعلكم تكدون بإخلاص وتصبح لكم أرض وبيوت.

حين اطمأن إلى الراحة التي سرت في أوصالهم، نظر إلى «أم

الخير»، وقال لها مشجعًا: أنتِ زرت بيت «نبوية»، صار فارغًا ومغلقًا، وهو يتسع لكم جميعًا.

- لا أحد يكره جمع الشمل والبراح.

ابتسم، ونظر إلى ابنها الأكبر، وسأله: كم من الوقت تحتاجون لجمع أشيائكم؟

- ما لدينا لا يحتاج إلى أي وقت.

ربّت كتفه، وقال: يمكنني أن أبقى في «إسنا» يومًا آخر، سأبيت في الفندق القريب من الوكالة، وعند ظهر غد سآتي لنحمل عفشكم فوق المركب، ونذهب إلى «الصابرية».

هكذا نطق اسم القرية، باعتبار ما يؤمن بأنه سيكون.

(10)

حين امتلأ بيت «نبوية» بالقادمين شاع في القرية أن العمدة يلملم أهله الذين تفرقوا في البلاد، ويأتي بهم إلى «الجابرية» ليجد معهم عزوة تعينه على مقارعة «الجوابر». كان قد اتفق مع «أم الخير» و«تماضر» على أن تجيبا السائلين بأنهما قريبتين له، تزوج إحداهما، والثانية في مقام خالته. أما «محبوب» فقد أبلغ الخفر بمَن يكون، ولم يشأ أن يُعطي أيًا منهم تفاصيل، وقال لنفسه: وجهي شهادة لا تحتاج إلى سؤال.

وكان «محبوب» ساقط قيد، فساعده «ناجي» على استخراج شهادة ميلاد، ما إن أمسكت بها «تماضر»، وقرأ لها «ناجي» ما فيها، حتى أطلقت زغرودة واهنة، وأخذت «خضرة» في حضنها، وقالت

لها: لم يذهب تعبنا هدرًا.

بلغ الخبر «هنيّة» فاشتعلت النار في صدرها، وقالت لابنها «رافع» الذي بدا لا مباليًا بما حدث: جاء لك بمَن يشاركك الميراث.

- لا يضر واحد من ثلاثة أن يرث نصيبًا يكفيه.

- لا أجدك في أي يوم تغضب كالرجال.

- وهل يوجد غضب أكثر من أن أترك أبي وحيدًا، وأجيء معك؟

نهض، وقال لها: ربنا يرحمني من هذا الشقاء. ثم التفت إليها، وقال: حلمي أن تكون لي تجارة في المحروسة. سحرني خان الخليلي منذ أن زرته مع خالي السنة الماضية.

فقدت «هنيّة» الأمل في ابنها، وأطلعت أخاها «رشدان» على النار التي تأكلها، فقال لها في غضب أشد: أقتل «صابر» و«محبوب» فأذهب إلى السجن، كي يرث ابنك وحده، ويبدد الميراث في تجارة خاسرة.

حملت اللهيب في صدرها، وأغلقت على نفسها باب غرفتها، لا تريد أن تكلم أحدًا. طرقوا كثيرًا، لكنها لم تفتح. أيام وهي حبيسة. تضع لها الخادمة الطعام والشراب على عتبة الغرفة، وحين تأتي لأخذ ما وضعته، لا تجدها قد تناولت منه أي شيء يُذكر. في الليل وهم نيام تخرج إلى الكنيف لتقضي حاجتها، ثم تعود إلى محبسها الاختياري، سابحة في خواطر مضطربة.

لم تكن تدرك أن الوحش الساكن في نفوس الغابرين قد سكنها. كامن هو في الجينات المتسلسلة ينتظر لحظة الانهيار حتى يهجم

بلا هوادة، ليجعل من صاحبه مضحكة للجاهلين. ثلاث ضربات على رأسها، الأولى زواج «عمر» من «عبلة»، والثانية إنجابه منها، والثالثة ظهور ابن له سيرث مع ابنها، والأهم هي الكذبة الكبرى التي عاشتها. لم تقدر نفسها على حمل طاقة الغل المشتعلة داخلها، وما زاد على الحد انقلب إلى الضد.

كانت تمد المزلاج حتى آخره، ولا تستجيب لطرقات الباب بين حين وآخر. حاولوا جميعًا إخراجها إلى الهواء الطلق الذي يهب على نوافذ الصالة، والغرف الواسعة، والسلاملك، لكنها كانت قد اختارت الضيق والظلام. تغوص في نفسها بعيدًا، فترى الغيظ والقهر يقبض عليها. تستسلم له، تاركة إياه يعبث بها.

في الليل تتراءى أمامها صورة امرأة تركت شعرها لريح محملة بالغبار والعفن. كانت تمد إليها يدها وتقهقه عاليًا، فترتج الجدران لضحكاتها، ثم تتشقق، لتخرج منها رؤوس ثعابين تفح بلا انقطاع. تتجرد المرأة من ملابسها، وتقدم لحمها العاري للثعابين دون خوف.

تصرخ «هنيّة» فيها أن تبتعد، لكنها لا تُعيرها اهتمامًا، تتقدم وتعطي ثديها لأكبر ثعبان يتوسط الجدار، فيخرج لسانه ويلحس حلمتيها على مهل، ثم يغلق فمه ويغور في الفتحة التي يطل منها رأسه، ثم ينغلق الجدار خلفه، كأن شيئًا لم يكن.

تختفي المرأة العارية. تذهب إلى حيث لا تعرف «هنيّة»، كما جاءت من مكان لا تعرفه، ويحل السكون والسواد. تنهض من جلستها المفعمة بالدهشة والخوف. تمد يديها في حذر، وتتحسس الجدران التي تشققت، فتجدها قد عادت ملساء كما كانت.

أحيانًا تجد المرأة جالسة إلى جوارها على السرير، تنظر إليها بعينين ضاحكتين. تمد «هنيّة» يدها لتمسك شعرها المتهدل على كتفيها، لكنها تقبض على الفراغ. يغيظها ما جرى، فتكور قبضتيها، وتضرب الجسد الذي تراءى لها، لكن الهواء الراكد يبتلع الضربات الغاضبة، ولا تسمع صراخًا، ولا أنينًا، ولا حتى اعتراضًا. تعيد ذراعيها إلى جانبها، وتسأل المرأة: مَن أنتِ؟ لكنها لا تسمع سوى صوت ضحكات مجلجلة.

ذات ليلة شعرت بأن يدين تقبضان على عنقها، وتعصرانه بقسوة. انتفضت خائفة، ومدت كفيها لتزيح ما يخنقها، لكنها لم تجد شيئًا. انتفضت واقفة فوق سريرها، تتأرجح من الغضب والخوف، ثم قفزت إلى البلاط البارد، وأسرعت نحو الباب، سحبت المزلاج، وفتحته هاربة.

وجدتها الخادمة خارجة بوجه أصفر، يكسوه رهق، ويتصبب العرق فوقه غزيرًا، بينما شعرها مبعثر فوق عينين غائمتين، وعلى خيطي حمالتي الصدر، اللتين تنحرفان عن مسارهما تحت جلباب نوم خفيف، ينحسر عن ظهرها، ليفسح الطريق أمام الشعر الهائم، فينسدل عليها مخبئًا بعض لحمها.

جرت نحوها، وقالت: حمدًا لله على سلامتك يا ست.

لم تلتفت إليها، مضت في طريقها، وحين اعترضتها الخادمة، أزاحتها بقسوة، فارتمت جانبًا، تراقبها وهي تخرج على هذه الهيئة الغريبة، حتى بلغت الباب الخارجي للبيت. أزاحت المزلاج، فصارت في الردهة المؤدية إلى السلاملك. كان «رشدان» يجلس

مع «محمود» و«قطاوي» يراجعون حسابات المشروع الجديد. هبوا واقفين لمرآها. ألجمتهم الفجيعة، وتيبست فيهم السيقان. كسر «رشدان» وجومه، وقال لها، وهو يهم نحوها: تعالي يا أختي.

لكنها لم تتوقف، مضت في طريقها. صرخ مناديًا الخادمة: هاتي جلبابها. ثم أمسك بكتفيها في عنف، وسحبها إلى الخلف، وهي تقاومه مغمغمة، ثم قالت له: اتركني لحالي. فسألها بعينين مملوءتين شفقة وخوفًا: أين تذهبين؟ قهقهت، وقالت: لا أريد البقاء في هذا البيت الذي تسكنه العفاريت.

استمرت تقاومه، وهو يسحبها بقوة، حتى أعادها إلى البيت. أجلسها في الصالة الخارجية، وكانت الخادمة قد جاءت لها بجلباب. راحت تبكي بحرقة، وتطلب منه أن يتركها تمشي، وهو يُخبرها بأن الوقت ليل، وعليها أن تبقى حتى الصباح. كان يريد أن يُهدئها ليعرف منها ما أصابها، لكنها راحت تهذي بعبارات غير مفهومة.

ألبسها الجلباب، ثم خرج، وأغلق الباب بإحكام. كان «قطاوي» و«محمود» لا يزالان واقفين ينتظران ما يجري، فما إن صار معهما، حتى قال «محمود»: خنقتها الوحدة والسكون والغضب.

لكن ذهن «رشدان» ذهب في طريق آخر، شغل رأسه منذ أن رآها على هيئتها تلك. جاءه صوت أبيه، وهو يقول لأمه ذات ليلة بعيدة: انقلب حالها بين يوم وليلة.

كان يحكي عن جدتهم «لواحظ» التي أصابتها نوبة جنون عنيفة، وكانت تهيم على وجهها في الشوارع والغيطان، وأتعبت كل مَن حولها. كان «رشدان» وقتها ينصت عميقًا، وتتراءى أمام عينيه

صورها التي رسمها أبوه، كما نقلت إليه من السالفين، حتى إن أمه استبشعت الأمر، فطلبت منه أن يُغير دفة الحديث.

استعاد كل هذا، ونظر إلى «قطاوي»، وقال: يبدو أن أيامًا عصيبة تنتظرني.

وقال له «محمود» بصوت متعثر في الخجل والتردد: اعرضها على شيخ، فربما تجد عنده الشفاء. لكن «ناجي» عندما سمع عما جرى لها طلب ابنها «رافع»، وقال له: في القاهرة يوجد معالجون نفسيون وروحانيون، وعليك أن تأخذها إلى واحد منهم.

رفض «رشدان» هذا تمامًا، وأتى إليها بشيخ ذاع صيته في الزمام، فلم يتغير حالها. دله الناس على قس يعالج الأرواح المعذبة، فأرسل واحدًا من نصارى القرية لإحضاره، فلما جاء، نظر إليها طويلًا، وقرأ على رأسها آيات من الإنجيل، وأدعية، لانت لها. فرغ من قراءته، وقال: استجيبوا لما تريد، فكل لوم أو حصار لها، يزيد حالتها سوءًا.

جيء بشيخ آخر، فوضع يده على رأسها، وقرأ بعض آيات القرآن، وأدعية، فلما سمعته استكانت، وبدا أنها تستعذب هذا. ملأ عينيه منها، وقال: لا تحرموها مما تريد.

أرادت هي فعلًا، فذات صباح خرجت صامتة، وأخوها وابنها يتبعانها، حتى وصلت إلى بيت العمدة. كان الباب مواربًا فأزاحته. دخلت في ثقة كأنها لم تغادره يومًا. كان «عمر» في السلاملك، فلما لمحهم قام إليهم، وكان ما جرى لها قد وصله خبره. صار ثلاثتهم خلفها، وهي تفتح أبواب الغرف، حتى وصلت إلى الغرفة التي تجلس فيها «تماضر» وابنها. توقفت أمامهما، ونظرت إليهما طويلًا، بعينين

اتسعتا بلا حد، حتى خافت منها العجوز، وتململت في جلستها، فقال لها «عمر»: أم ابني. تقدمت نحو المرأة، حتى صارت بينهما ثلاثة أشبار فقط، أعادت النظر إليها، ثم مدت أصابعها تتحسس التجاعيد المتلاحقة في وجهها، ورفعت كفها حتى حطته على شعر العجوز الأبيض، وأطلقت ضحكة طويلة، ارتجفت لها «تماضر» وابنها وكل الواقفين حولها.

استدارت «هنيّة» وأزاحت أجسادهم من طريقها، ومضت حتى بلغت الشارع، فقال لها «رشدان» وهو يراها لا تتوجه إلى بيته: إلى أين تذهبين؟

التفتت إليه، ورمت كفها في الهواء تطرده، ومضت دون أن تكلم أحدًا، حتى بلغت الزاوية. فلمّا دخلتها تذكر «عمر» ما حكاه له المجذوب، وقال: بلغت مكانها.

نظر إليه «رشدان» في غيظ، وسأله: أي مكان؟

نظر إليه في إشفاق، وكأن الخصومة قد رحلت وسكنت إلى جوار النائمين في القبور، وقال: سأحكي لك، ولا تقاطعني.

سرد على سمعه ما رواه له المجذوب في لحظاته الأخيرة، وقال: قدرها، ولا مفر منه.

التفت «رشدان» إلى الزاوية، ورآها جالسة مكانها تمسك الوِرد بيمناها، وتنظر فيه بإمعان. قلّبت صفحاته سريعًا، ثم عادت إلى الصفحة الأولى، وأخذت تقرأ بصوت ندي، فقال «عمر»: قلت لك إن هذا مكانها.

رفع «رشدان» بصره إلى قبور الراحلين، وقال: لم نعرف من قبل أن امرأة انجذبت.

لم تغادر نظرة الإشفاق عيني «عمر»، وقال له: اعتبرها الأولى، لكنها لن تكون الأخيرة.

نظر «رشدان» إلى ابنه ليرى شيئًا من الإحساس بالخجل، وربما العار، يحط في ملامحه، لكنه وجده مستسلمًا، فسأله: ألا يغضبك أن تبقى أمك هنا؟

قال، وهو يغالب البكاء: هي اختارت، وليس علينا إلا التسليم بقضاء الله.

وقال «عمر»: سآتي إليها بمَن تعتني بها.

سرى غضب في وجه «رشدان»، وقال: لم أمت بعد.

صمت «عمر»، ولم يجد الوقت مناسبًا ليجادله، فقال: البركة فيك.

ثم وجد سبيلًا لإرضائه، فقال: عليك الخادمة، وعليّ الخفير، فلا يجب أن نترك امرأتين بلا حماية في الليل، حتى لو ضمتهما الزاوية.

(11)

استأذن «محبوب» أباه في أن يرسل إلى صديقه «سيف الدرديري» ليأتي إلى القرية. قال له إنه شاب طيب، وهو مستودع أسراره، ومُعينه على قسوة الحياة. كان وحيدًا مثله، تيتم في صغره، إذ مات أبوه في حفر القناة، ولم تطق أمه صبرًا على فراقه، فلحقت به. تركاه صبيًا، فكافح من أجل أن يدبر قوته، ولم يمد يده يتكفف الناس. راق

الطلب للعمدة، وقال في نفسه: رجل جديد يزيد عزوتي.

ولمّا جاء «سيف»، ووجده «عمر» شابًا قويًا مستقيمًا، أسند إليه حراسة «هنيّة» وخادمتها، لقاء أجر يتقاضاه كل أسبوع. بنى له غرفة على مقربة من الزاوية، فأخلص في مهمته، حتى رضي «رشدان» نفسه عنه.

كان صوت «هنيّة» يأتيه لينًا، فيرتعش قلبه، وتقف عيناه عند حافة البكاء. يرمي أذنيه إلى الصوت الطلي الذي يتدفق من الزاوية إليه. يمد بصره إلى القبور الساكنة، ويقول: مهمة مباركة.

حين يسمع الصوت قد صار في الهزيع الأخير من الليل أشبه بحداء عجيب، يقول لنفسه: هي التي تحرسني. وحين يسمعها تكلم امرأة تناديها بـ «لواحظ»، يقول لنفسه: تخاطب شيختها البعيدة.

(12)

تلقى «عمر» ضربتين في أيام معدودات. كان يظن أن ما جرى لأم ولده قد قرّب بينه وبين أخيها، بعدما كسرا الخصومة بحديث ودي عند الزاوية. خدعه الانكسار الذي كان عليه «رشدان»، كان يعتقد أنه اتعظ، وصار يدرك أن الآخرة أقرب إلى المرء العاقل من الدنيا. لم يكن يدري أن الضعف الذي بدا على «رشدان» ليس اعترافًا بذنب، ولا تعبيرًا عن رغبة في الاعتذار، ولا إبداء نية في طي صفحة الماضي، إنما كان استجابة لنداء داخلي يطلب منه أن يمرر لحظة انكساره بأي طريقة، وأي ثمن، ولا يُعطي عدوه فرصة التشفي فيه.

كانت الضربة الأولى هي قرار بإعفائه من العمدية، وإسنادها إلى

«رشدان». حين رأته «عبلة» حزينًا، قالت له ضاحكة: لولا العيب لأطلقت الزغاريد فرحًا بنجاتك من هذا الهم الثقيل.

كانت تحمل «صابر» بين ذراعيها، فمدته إليه، وقالت: شغلتك العمدية عن أن تضم ابنك في أي يوم، غارت وغارت أيامها.

أخذه منها وهو يداري تأففه، وكان يريد أن يقول لها إن الرجال لم يُخلقوا للرضاعة. كتم الكلام، تاركًا إياه يسري في شراييه، ويجثم على صدره، دون أن يموت، إنما يحيا في نفسه كالبركان الذي ينتظر لحظة الانفجار.

وجاءت هذه اللحظة أسرع مما يتوقع. طعنة نجلاء ضربته من نافذة لم يظن أن أحدًا قادرًا على أن يرفع عنقه ليرى منها شيئًا. ثغرة كانت مغطاة بخيوط العنكبوت، بينما الواقف أمامها يتصور أنه قد سدها بالصخر الصوان. زاوية عمياء لم يرَ السهم الذي يمكن أن يمرق منها إلى عنقه أو سويداء قلبه.

حين كان «قطاوي» يعس عن أقرب وسيلة تمكنه من إطاحة العمدة عرف أن أغلب الأرض التي يزرعها هي انتفاع وليست ملكًا لزوجته «عبلة»، فكاد يصرخ من فرط الفرحة، وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، ويقول لـ «رشدان»: صار لمشروعنا مدد في يدنا.

رفع إليه عينيه متسائلًا، فواصل: كنت أخشى من الاضطرار إلى شراء القصب والقطن من أرض «عبلة»، وحتمًا كان «عمر» سيبالغ في السعر، وحين نلجأ إلى غيره في البلاد القريبة، قد يتدخل لديهم ليعرضوا علينا السعر نفسه، ووقتها سنكون مضطرين إلى تخفيض الأرباح.

ابتسم «رشدان»، وقال له: يا لك من داهية! أنا أعرف أن بعض الأرض انتفاع، لكن لم أكن أحسب أن ذلك سيفيدنا؛ لذا لم أبلغك بهذا من قبل. فقهقه «قطاوي» وقال: في الصناعة لا بد من أن تقدر حساباتك بدقة.

صار الحلوان اثنين لكبار الموظفين، ففتشوا في الدفاتر، وادّعوا أن ما يُدفع عن أرض الانتفاع لا يكافئ أبدًا ما هو مستحق عليها، بل اتهموا مَن يقوم على زراعتها بسرقة الأموال الأميرية، وطالبوا بسحبها منه، وإسنادها إلى مَن لا يأكل مال الحكومة.

تم هذا في الخفاء، وحين نضجت الأوراق بحصولها على مختلف الموافقات، جاء إلى «الجابرية» ذات ضحى ثلاثة من الموظفين في نظارة الزراعة يحرسهم خمسون جنديًا. توجهوا إلى السرايا على الفور. طلب كبيرهم مقابلة السيدة «عبلة»، وقدم إليها أوراق تنازل عن الأرض.

كان «عمر» في السلاملك، بعد أن طُلب منه أن يزاول دور العمدة إلى أن يتم تعيين مَن يخلفه، فجاء إليه خفير السرايا مسرعًا يُبلغه. هرع وخلفه خفره، وحين دخل من باب الحديقة وجد كل هؤلاء الجُند. شعر بالإهانة للوهلة الأولى؛ لأنهم اقتحموا القرية، بل جاءوا إلى مكان يسكنه، وفيه زوجته وابنه، دون استئذان.

لكنه سرعان ما نحّى الإهانة جانبًا، فهذه ستتبدد آثارها مع الزمن، ولديه ما يستطيع أن يقوله للناس من الأكاذيب مُبررًا ما جرى، أما سحب كل هذه الأرض من تحت يده، فهذا ما لا يمكن أن يزول أثره. سيجد نفسه بين عشية وضحاها قد فقد كل هذه الأرض الشاسعة،

ومعها الكثير من المال والهيبة.

كان الموظفون يجلسون في بهو الطابق السفلي ينظرون إلى «عبلة» وهي منكسة الرأس، وإلى جانبها «ناجي» يحاول تهدئة روعها. بدت كما لم يرها «عمر» من قبل، تائهة في أوراق التنازل وأخرى عن ضرائب قديمة لا بد من سدادها، كانت بحوزة صراف يرافقهم.

استشاط العمدة، الذي صار مؤقتًا، غضبًا، وقال للموظفين: لن نُسلّم الأرض حتى نراجع الدوائر المختصة.

لكن كبير الموظفين قال له: يجب أن تكون أول رجل في هذه القرية ينفذ أوامر الحكومة.

ـ هذا أمر ظالم، لا بد أن هناك خطأ ما.

- لا مجال لخطأ هنا يا عمدة، أمامك الأوراق مستوفاة، ونحن ليس بيدنا شيء.

تدخل «ناجي» في هدوء، تكسوه رزانة قاض، وسأل: هل آلت الأرض إلى أحد؟

أجابه كبير الموظفين: تستردها الحكومة، ثم تسند زراعتها إلى مَن تشاء.

لاحت أمامه فرصة، فقال: نسدد الضرائب المتأخرة، ونسعى في استرداد الأرض.

فتح الطريق أمام حل يُسهل مهمة الموظفين، فقال كبيرهم: عين

العقل، وقعوا على ورقة التنازل، ثم راجعوا نظارة الزراعة.

قال «ناجي» بصوت هادئ: الأمر لا يقتصر على الزراعة، إنما نظارة الأوقاف أيضًا. ثم التفت إلى والدته، وقال لها: وقعي، وليقدر الله خيرًا.

أخذ الموظفون أوراقهم، وحصّل الصراف ما تأخر من ضرائب، وانصرفوا جميعًا.

كان كثير من أهل القرية قد تجمعوا أمام السرايا، ورأوا الموظفين والجُند خارجين على مهل. سألهم واحد من الفلاحين: خير يا بيه؟

نظر إليه في استهانة، وقال: سَلِ العمدة فعنده كل شيء.

لكن العمدة لم يقل لهم سوى إنهم رجال الحكومة قد جاءوا لتحصيل أموال أميرية متأخرة. لم يشأ أن يحدثهم عن ضياع ما يزرعه، حتى لا يصل الخبر إلى «رشدان» فيشمت فيه، أو يسعى من خلفه لركوب الأرض. نظر إليهم، وقال لهم في غضب: ليعد كل منكم إلى داره، ومَن جاء من الغيطان يذهب ليكمل شغله.

دارت بينهم همهمات، وقد فطِنوا إلى أن ما يكسو وجه العمدة من جزع وخوف وحيرة، لا يمكن أن يكون سببه تحصيل مال متأخر. أي مال هذا الذي يُجرّد له كل هؤلاء الجند؟

تأكدوا من كل شيء، حين جاء المسّاح، بعد أيام، ومعه بعض الجند. لم يأتِ القادمون إلى السرايا، إنما نزلوا الأرض مباشرة، ونادى المسّاح الخولي، وسأله: أين أرض الانتفاع؟

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الكلمة، وهو الذي ظلّ

طوال السنوات الفائتة، لا يعرف صاحبًا للأرض كلها إلا «عبلة»، ولا يرعاها سوى العمدة. قال للمسّاح: لا أعرف ما تقصده.

طلب منه أن يستدعي السيدة «عبلة»، فذهب وعاد يمشي خلف العمدة، الذي كان يرمي خطواته فوق قلب يرتجف، وبصر زائغ، ونفس مكسورة كزجاج مهشم. قضى ليلته ساهرًا، يتقلب على جمر، ورأسه تائه في ظنون لا حد لها. نظر إلى «ناجي»، وقال: مَن قلعني من العمدية، هو مَن فتش وراء الأرض.

قال «ناجي»، الذي كان أيضًا يتخبط في أسئلة عديدة: ربما يكون جردًا قام به الإنجليز للأرض والمناصب.

سأله في لهفة: كيف نبدد كل هذه الهواجس؟

أجابه وهو غارق في التفكير: سأسأل في المديرية.

تدخلت «عبلة»: أظن أنه أبعد من المديرية كثيرًا.

وقال «عمر» في غيظ: ليت الصباح يأتي الآن، لنمضي إلى حيث جاءت الطعنة.

وبينما كان يستعد للذهاب إلى المديرية أولًا، ليستطلع الأمر، جاء المسّاح. رمى بصره فوق الزروع النابتة، وأخرج من حقيبته خريطة مرسومة فوقها أحواض الزرع، وقال وهو يشير إلى البعيد: هناك أرض الانتفاع.

هز «عمر» رأسه، وقال: هي كذلك، فاذهب لقياسها.

ابتسم الرجل، وقال: أقيس أولًا أرض الأملاك، فهي الأقل، وما

تبقى يكون هو انتفاعنا.

لكن «عمر» كان قد أضاف إلى الأملاك أرضًا أخرى طرحها النهر، فقال: بها زيادة أهداها لنا النيل.

عاد المسّاح إلى ابتسامته التي لا تخلو من سماجة، وقال: ما أُضيف إلى الأملاك لكم، وما أُضيف إلى الانتفاع يكون له. ثم مدّ القصبة ورماها على الأرض، وانخرط في الإحصاء على مهل. سأله «عمر» وهو يداري غيظه: متى تنتهي؟

رفع المسّاح رأسه، ورمى بصره فوق الأرض المزروعة، وقال: قد أقضي النهار كله هنا.

صمت «عمر» برهة، ثم نظر إلى الخولي وقال له: اذهب إلى السرايا وأبلغ «ناجي» أننا سنضطر إلى تأجيل مشوارنا إلى الغد.

جاء الغد بعد أيام عصيبة، قضاها الاثنان في السعي وراء ما جرى، فلم يخرجا بشيء سوى حديث عام عن حق الحكومة في استرداد أرض الانتفاع، وتحصيل الضرائب المنسية والمتأخرة. وسأل «عمر» في تودد: ألا يمكن أن يعاد تخصيص أرض الانتفاع لنا من جديد؟

أجابه موظف الأوقاف: قدم طلبًا بهذا، وأشفعه بمخالصات الضرائب، ويكون التقدير لصاحب القرار.

دارى «عمر» انكساره، وقال للموظف: البركة فيك، ولك الحلوان.

تجهم الرجل، ثم قال: الأمر أكبر مني كثيرًا.

نظر «عمر» إلى «ناجي» يستنجد به، فقال: سأطلب مقابلة ناظر

الأوقاف.

لكن المقابلة انتهت دون وعد بشيء، فالرجل، الذي وافق على مقابلة «ناجي» حين أبلغوه أنه قاضٍ شرعي أزهري، قال له: الأمر أتاني من جهة عُليا.

سأله عن هذه الجهة، فابتسم وقال له: لا يخفى عليك أن البلاد تحت الاحتلال، وله الأمر والنهي.

سأله في رجاء: ألا توجد وسيلة لمقابلة أحد من هذه الجهة؟

هز الناظر رأسه نافيًا، وقال: قدم طلبًا، لكن سلطة التقدير ليست في يدي، إنما بوسعي التوصية.

تنهد «ناجي» في حرقة، وقال: نتعشم خيرًا في معاليك.

لم ينطق الناظر، بل مد يده إلى درج مكتبه، وأخرج حزمة من الأوراق، وضعها أمامه، وراح ينظر في أولها، فنهض «ناجي» وتبعه «عمر»، وقال الأخير: ليكن الخير على يد الطيبين.

(13)

في أيام غياب «عمر» عن القرية جاءت الأوامر بتعيين «رشدان» عمدة للقرية. في طريق العودة ركبا القطار إلى أسيوط، ثم هبطا ليستقلا مركبًا إلى «الجابرية». ما إن بلغا القرية حتى رشق شيخ الخفر السهم في صدر «عمر»، حين قال له: راحت العمدية إلى «رشدان»، واستغنى عني؛ لأنه يعرف إخلاصي لك.

ما إن سمع الخبر حتى أمسك صدره، لينزع عنه السكين الحادة

التي غُرست فيه بقسوة. صرخ «ناجي» في الرجل: امضِ الآن بعيدًا. فهرع يتخبط في خطواته، لكن «ناجي» ناداه بصوت تمزعه اللهفة والخوف: تعالَ. استدار ليجد العمدة يتساقط على الأرض كنخلة ضربتها العاصفة. جرى نحوه، وهو ينوح: سلامتك يا عمدة. وأمسكا به، ليتمدد على الأرض، ويده على صدره، يعض على ضروسه، ويهز رأسه في عنف. صرخ «ناجي» في شيخ الخفر من جديد: هات الدوكار. ورفعاه حتى جلس يقاوم طعنات نفسه. أسنداه حتى تمدد في سريره، وهرعت الخادمة إليه بدورق الماء فشرب. أخذ «ناجي» بعض المياه في يده، ورشها على وجهه، وصدره، وراح يدلكه على مهل، وهو يقول: يغور كل شيء، فالمهم صحتك.

لكن جسده خانه أكثر، حين عرف بإسناد أرض الانتفاع إلى «رشدان»، وقال بصوت واهن: هزم «الصوابر» على يدي. وجاء طبيب من البندر، فأوصى له بالدواء، وطلب منه أن يستريح، ثم أوصى «ناجي» بأن يخفي عنه أي خبر سيئ. لكن السوء كله كان قد سكن جسده. لم يمضِ سوى أسبوع واحد حتى خانته الحياة كلها. دفنوه في قبر يطل من الزاوية اليمنى على قبر جده «رضوان».

سكن الأسى النفوس شهورًا. كان بحرًا من الأحزان، لم يزده موت الخادمات القديمات الثلاث «خضرة» و«تماضر» و«أم الخير» تباعًا ولو قطرة واحدة، وقال «ناجي» وهو يستعيذ بالله من الهم والحزن: كأن المرحوم أراد أن يطوي زمنه معه، ليُدفن إلى جانبه.

لم يبقَ إلا «محمود»، الذي قال لزوجته بعد موت «عمر»: ابتعدت عنه، لكني كنت أشعر بأن ظهري مستور طالما كان حيًا. وذات ليلة

اكتشف أن هذا الإحساس لم يكن كاذبًا، فقد صار عاريًا تمامًا. عاد من سلاملك العمدة الجديد، لا تكاد ساقاه تحملانه، فوجد «رضيّة» في انتظاره ليتناول معها الغداء. رمى جسده على أول مقعد صادفه في البيت، وقال لها: ضعنا يا «رضيّة»، سرقني أخوك.

جرت نحوه ملهوفة، وهي تقول: خير.. خير، ما لك؟

كان حلقه قد جف من الأسى، فطلب منها أن تأتيه بدورق مياه. صب منه في فمه، ثم فوق رأسه، وقال:

- في رأسي نار.

- ماذا جرى؟

كان صدره يعلو ويهبط في سرعة، فأجابها: دقيقة، وأخبرك.

كانت قد تعودت الصبر عليه، فرغم أنها أخت «هنيّة» لكنهما كانتا مختلفتين في كثير من الطباع، وكأنهما لم يُحملا في رحم واحد، من صلب رجل واحد. وقفت إلى جانبه، تجفف بكفها قطرات الماء المستقرة في تجاعيده الخفيفة. بدا لها كأنه قد كبر سنين في يوم واحد. أعادت عليه السؤال ملهوفة، فزم وجهه يحاول البكاء، وقال: غافلني ودس لي عقدًا بين الأوراق لبيع نصيبي له.

اندلع في أوصالها غضب عارم، وتمنت لو كان «رشدان» أمامها فبصقت على وجهه، ثم خلعت نعلها وانهالت على رأسه ضربًا. تماسكت حتى لا تزيد من وجعه، وقالت له في محاولة لتهدئته: لا تقلق، أنا قادرة على إصلاح ما انكسر.

طلبت منه أن ينهض معها على مهل، وأسندته حتى غرفة النوم،

وقالت له: تمدد، واطرد من رأسك ما جرى. ثم أسرعت وأحضرت له مشروب الليمون، ومدته إليه، فأخذه منها بيد ترتعش، وسحب رشفتين ورده إليها. قالت له: لا بد أن تتماسك، وتواجه المصيبة لا أن تستسلم لها.

سألها بصوت غارق في الأسى والانكسار: هل تقدرين عليه؟

طردت الشكوك من رأسها، وقالت له محاولة أن يسمع منها ما يطمئنه: إن رضي بظلمك، فلن يظلم أخته.

أشار بيده نحو باب الغرفة، وقال: اذهبي إليه، فقد يجعل الله بيدك تخفيف بلوتنا.

لكن «رشدان» قابلها بعينين يملأهما التبجح والتجبر. تركها واقفة أمامه، وقال: هو باع وأنا اشتريت.

صرخت فيه: أنت كاذب.

- الأوراق لا تكذب.

- تكذب إن كانت مزورة.

- التوقيع لزوجك، وعلى الأوراق ختمه أيضًا، فمن أين يأتي التزوير؟

تقدمت إليه، وأمسكت بكتفه، وهزته بعنف، وقالت: لولا أنني متأكدة من شرف أمي، لقلت إنك ابن حرام.

هب واقفًا في غضب، وقال لها: إن زدتِ طردتك. ما ورثتيه أخذتيه، ولا مكان لك في بيتي.

سألته بصوت غارق في الانكسار: أتطردني من بيت أبي؟

- إن استمرت إساءتك فلا أريدك هنا.

ألجمها السكوت، ولم تعرف ما تقول، فواصل هو ساخرًا: اذهبي، واجلسي إلى جوار أختك المجنونة في الزاوية التعيسة.

تخلت عن التحدي، وأوغلت في الانكسار كثيرا، وقالت له: إن لم تتراجع عما فعلت، فليس مستبعدًا أن يصيبني الجنون.

عاد يقهقه، وقال: ليته يحدث، سأستريح منك أيضًا.

غلبت دموعها، وقالت له بصوت مشروخ: ربيتك مع أمك، وكنت ثُبلل حجري.

ـ لا تنسي أنكِ تكلمين عمدة البلد.

- عمدة على نفسك يا ولد.

حاول أن يكظم غيظه، فداس على أسنانه، وهو يغمغم، لكنه لم يقدر. انفلتت أعصابه، فصفعها على وجهها، ثم ثبت مكانه، كأنه شُد إلى موضع قدميه بأوتاد غليظة عميقة. لم يصدق ما فعله، وكانت المرة الأولى التي يؤذي أيًا من أختيه بيده. كان يكتفي بإيذائهما بلسانه، ولم يرَ أباه يضربهما، إنما يوبخهما حين تخطئان. نعم كثير من أهل القرية يضربون زوجاتهم وعيالهم، من البنين والبنات، لكنه لم يرَ هذا في بيتهم، بل وجد أباه، وقت أن كان مهابًا في عمديته وأملاكه، يقرع أجيرًا ضرب ابنته، ويقول له: البنت لا تؤدب بالضرب يا بغل.

أصابها انهيار عصبي، فخرت مكانها ساقطة. وجد نفسه يقرفص إلى جوارها، يحرك خديها، وينظر مرتعبًا في عينيها الغائمتين. صرخ فهرع إليه الخفر والخدم، فطلب ماء، وملأ منه شدقيه، ثم دفعه على وجهها رذاذًا كثيفًا، فأطلقت شهقات متواصلة، ثم فتحت عينيها فوجدته جالسًا عند صدرها. أزاحته بيدها، وهي تحاول الجلوس بمساعدة واحدة من الخادمات. جلست وأغمضت عينيها قليلًا، وكأنها لا تريد أن تراه، أو تحاول أن تطرد ما حدث من ذاكرتها تمامًا.

نهضت، وهمّت بالخروج من البيت. حاول أن يستبقيها، لكنها رفضت. تصرف في هذا الموقف كأخيها الصغير، المستعد أن يجود عليها بقدر من اللهفة والحنان. لكنه لم يكن لديه استعداد لتقديم أي تنازل كسارق مال زوجها. أدركت هذا حين وضعت عينيها في عينيه، فقرأت كل ما فيهما. كان لديها استعداد لابتلاع إهانة الصفعة مقابل أن تعود لزوجها، الواقف على حافة هاوية قد يسقط في موت أو عجز أو جنون، بشيء يعيده مرة أخرى إلى الأمان، حتى لو انفضت الشراكة في المصنع والورش، وعاد مجرد صاحب معلف لتسمين العجول، أو حتى أجيرًا فيما تبقى من أرض «عبلة» أو حتى عند أخيها نفسه، أو حتى خادمًا في سرايا «ناجي» كما كان أجداده، أو تهيم معه وابنها على رؤوسهم في البلاد.

رجعت مترنحة، كأن أحدًا قد ضربها بعصا غليظة على رأسها، أو سكرت دون خمر. لم تتوجه إلى بيتها. شيء من أمل تدفق في نفسها، فمشت نحو الزاوية. أليست هناك «هنيّة» التي أنقذها هذا المكان الذي حلّ فيه الطيبون من أن يرميها الناس بالجنون، فقالوا: صارت ولية طاهرة.

ربما يكون لهذه الوليّة رأي. لن يدفعها الوِرد الذي تقرأه بصوت طلي إلا إلى الخير. وصلت فوجدتها جالسة تحملق في بقعة السماء التي أطلت من الباب المفتوح. تقدمت نحوها ورمت جسدها عند ساقيها الممدودتين، وقالت لها: وقعت من السماء في حجرك.

رفعت بصرها إليها دون اعتناء، ولاذت بالصمت. تزحزحت «رضيّة» حتى التصقت بأختها، وقالت لها: لا يذهب شر إلا حين يتصدى له أهل الخير.

هزت رأسها، وكأنها تنفض ما علق به من حكايات أخذتها زمنًا طويلًا في شرود، وسألتها: لا أريد منك سوى السكينة.

طفرت عيناها بدموع ساخنة، وقالت: فارقتني السكينة من ظلم أخيك.

لم ترد عليها، وبدا أنها غير راغبة في سماع شيء. لكن «رضيّة» راحت تحكي لها ما جرى، وكأنها تبوح للجدران والحصير والوِرد والفراغ والخادمة التي تركتهما وجلست عند الباب، والحارس الذي ابتعد عند المقابر فور أن رأى «رضيّة» قادمة.

لم تجد منها سوى ابتسامة طويلة، ثم نطقت أخيرًا: لن يتمتع بالحرام.

عبثًا حاولت «رضيّة» أن تحثها على مساعدتها، فقامت من عندها كاسفة البال، وعادت إلى بيتها، لتجد «محمود» غارقًا في القلق. ما إن رأى وجهها حتى فطن إلى الخذلان الذي يسكنه، ومع هذا تمسك بالأمل الكاذب، وسألها: ماذا فعلت؟

لم تشأ أن تصارحه، وهو على حاله هذه من الضعف، فقالت: لان بعض الشيء، لكنني بحاجة إلى معاودة الحديث معه.

تنهد، وقال: لا أظن أن مثله يلين.

اقتربت منه، ووضعت رأسه على صدرها، وقالت: ربك قادر على تليين الصخر.

ندت عنه صرخة عالية، ونادى: يا مُعين. فوضعت يدها على رأسه تدلكه، وقالت: امسك في حبال الله، واطلب منه المدد.

(14)

وجد «ناجي» نفسه في قلب العاصفة، يصارعها وهو يمضي بحمل ثقيل على كتفيه. أولاد «أم الخير» وأحفادها، وأخوه «صابر» الذي أتى إلى دنيا غير التي كانت، والأخ الثاني «محبوب» الذي انتابه شعور بأنه كان شؤمًا على أبيه، وصديقه «سيف» الذي طرده العمدة من عند الزاوية، وقال له: لا يحرس أختي غريب لا أصل له.

رأته «عبلة» مهمومًا، فقالت له: راح الرخاء، لكن لم تزح السترة. وكانت تعرف أن «ناجي» لا خبرة له في زراعة الأرض، ولا يمكن أن تطلب منه ترك وظيفته المرموقة ليسعى بين الفلاحين. استعادت خبرتها القديمة، حين كانت تذهب إلى التعريشة، تراجع دفاتر الحساب، وتعرف كل شاردة وواردة عن زراعتها المديدة. وكانت قد استملحت «محبوب» حين رأته، وقالت لزوجها قبل رحيله: أرسل الله لك رجلًا آخر ليكون في كتفك.

حين عاد «ناجي» من البندر يوم الخميس ليقضي الراحة

الأسبوعية معها كما اعتاد، قالت له: استوحشت الأرض والفلاحين.

نظر إليها متعجبًا، وقال: نركب الدوكار وآخذك في نزهة إلى الزرع والجسر والنيل. هزت رأسها، وقالت: ليست نزهة، إنما هي المهمة القديمة.

صمت برهة، وقال: لا أستسيغ هذا، وحولك كل هؤلاء الرجال.

ابتسمت، وسألته: أتراني قد صرت عجوزًا؟

بادلها الابتسام، وقال: ابنة الوجيه لا تشيخ أبدًا، لكن إن كان هناك مَن يساعدنا، فلِمَ تتعبين أنت؟

سألته على الفور: هل فكرت في أحد يقوم بالمهمة؟

- لا بد أنك أنت قد فكرت ودبرت.

- ما رأيك في «محبوب»؟

- اخترتِ القوي الأمين.

وأرسلت الخفير في طلب «محبوب» فجاء مطأطئ الرأس، لا يقدر على أن يرفع عينيه في عين «عبلة». أجلسته في بهو الطابق السفلي. في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه «جعفر» قبل سنين. تنهدت وقالت:

- لا يغلق بيت به رجال.

- عامر بحسّك يا ست.

ـ أنا خالتك.

- شرف كبير لي.

وسألته إن كان يعرف شيئًا عن الزراعة، فقال: عملت فلاحًا أجيرًا، أفعل ما يُطلب مني، ولا أزيد.

- المهم أنك كنت تتقن عملك.

- يعلم الله أنني اجتهدت كما أقدر.

- مَن يجتهد يرتقِ، ومَن يواصل بإخلاص يتعلم الكثير.

وبدأت معه من الصفر. كأنه لا يعلم شيئًا عن الزراعة. حدثته عن مواسم الزراعة، وأنواع المحاصيل، ومقدار ما يغله الفدان الواحد إن وجد عناية، أو لم يجد. وتحدثت عن الري والسبخ، وأجور الفلاحين، وأنواع الحشائش الضارة.

أنصت إليها بإمعان، وقال: ما شاء الله يا.. يا.. يا خالتي، علمك في هذا غزير.

ابتسمت، وقالت له: لا تتردد في سؤالي، ولتعد إليّ في كل شيء، وستجد ما يعينك.

وكان «ناجي» يسمعهما، فقال: وأنا سأتولى تعليم «محبوب» القراءة والكتابة والحساب.

لم يكن أولاد «أم الخير» يعرفون شيئًا عن الزراعة. ولدوا وكدحوا في المدينة، ومنها جاءوا ليُرزقوا في أعمال كان يسندها إليهم «عمر»، فلما مات، جلسوا في البيت لا يعرفون ما عساهم أن يفعلوا. أسفوا لبقائهم عاطلين، وفكروا في العودة إلى «إسنا»، لكن «ناجي»

طرق باب بيت «نبوية» ذات صباح، وقال لهم: أنتظركم في السرايا على الغداء.

أكلوا ما لم يأكلوه من قبل، وهامت نفوسهم برجاء أن يخرجوا من المكان وقد عرف كل أحد سبيل رزقه. كان لهم ما أرادوا. سألهم «ناجي» إن كانوا يعرفون شيئًا عن التجارة، فقالوا جميعًا: استرزقنا من جيوب تجار كبار.

ابتسم، وقال: آن الأوان أن ترزقوا من تجارتكم.

رفع أكبرهم رأسه، وسأل: أي تجارة؟

- في الريف تجارة لا تبور. سأمد كلًا منكم بعربة كارو يجرها بغل، وستدورون على القرى، تشترون القمح والذرة والشعير والفول والقطن، ولدينا شونة غلال، نجمع فيها ما اشتريتم ويأتي تجار من بعيد لشرائه. المال لنا، والجهد لكم، والربح نوزعه حسب الشرع.

هزوا رؤوسهم موافقين، فقال لهم: أسبوع واحد ونبدأ. ومد يده في جيبه وأعطى كلًا منهم جنيهًا، وقال: اشتروا لأولادكم ما يريدون. ثم أشار إلى أخيهم الأصغر، وقال له: أنت سيكون عملك في شونة الغلال.

كان خفير السرايا قد تقدمت به السن، وضعف بصره، ووهن جسده، فأشفق عليه «ناجي». طلب منه أن يستريح في بيته على أن يظل أجره جاريًا. غضب الرجل، وقال: ما زلت قادرًا، ولا أقبل الصدقة.

ابتسم «ناجي» وقال له: أنت تحرس السرايا من أيام جدي، وما

هذه بصدقة، إنما معاش تقاعد، مثلما يحدث مع خفر الحكومة.

عرض الحراسة على «سيف» فقبلها، لكن ظل طوال الليالي يمد أذنه نحو الزاوية البعيدة، لعلها تلتقط شيئًا من حداء «هنية»، فلمّا عجز كان يستعيده صامتًا. طالما وجد نفسه تحدثه بأن يتسلل إلى هناك، ويمكث عند القبور ولو دقائق، لكنه كان يخشى أن يراه أحد من خفر العمدة، فيقع ما لا تُحمد عقباه.

(15)

تضيق الأرض على الخاملين. تسقط السماء على رؤوسهم البليدة، وتضربهم فيخرون على الأرض، يستفون ترابها. لا يقدرون على رفع وجوههم ولو قدر قبضة يد إلا إن زال عنهم الكسل والتواكل. أما مَن سعوا متوكلين على مُقدر الآجال، ومُقسم الأرزاق، فلهم وحدهم أن يمدوا أنوفهم لتسحب من النسيم ما شاءت.

بهذا أوصى «ناجي» رجاله، وقال لهم: مَن طلعت عليه الشمس في بيته فلا يسأل عن رزقه.

تطلعوا إليه صامتين، فابتسم، وقال: لم أقرأ هذا في كتاب، لكن علمتني إياه الحياة، ورأيته في عيون المجتهدين من الرجال.

والتفت إلى أمه، التي كانت تتابعه في إعجاب، وقال: كتب على «الصوابر» أن يؤجروا من المحاولات التي لا تنتهي.

ابتسمت، وقالت: لا يضام ناس فيهم رجل مثلك.

(16)

لم يجد «محمود» أمامه بعد أن استعاد بعض قوته سوى «عبلة». إنها لا تزال مسموعة الكلمة بين «الجوابر»، ووجودها يصد عن أسرتها تَجبُّر العمدة وطمعه، فذهب إليها ذات ليلة، واستقبلته مرحبة، وقالت: وقعت في يد مَن لا يرحم.

نظر إليها مستعطفًا، وقال: أنا أخطأت حين تركت «عمر»، وأتمنى لو أعطتني الحياة فرصة لتصحيح هذا الخطأ.

وكانت قد تحدثت مع «ناجي» قبل أيام عما جرى له، فقال لـ«محمود» حين رآه: يمكنك رفع دعوى أمام القضاء، تتهم فيها العمدة بالتزوير.

- أي تزوير؟ رأت زوجتي توقيعي على الورق، وختمي مطبوع إلى جانبه.

ـ حاول، ولن تخسر شيئًا.

- لكن مثل هذه القضايا يطول نظرها، وقد أموت وأنا أنتظر حكمًا، سيكون غالبًا ليس لصالحي.

وأتاهما نباح الطاحونة، وزمجرة العصارة، وغناء العمال الذين يحملون أعود القصب لتهرسه، فقال: كلما سمعت هذا الصوت شبت النار في نفسي.

سألته إن كان «قطاوي» يعرف ما جرى، فقال: أظن أن الأمر كله من تدبيره.

- هل كان هناك أحد معكما وقت توقيعك الأوراق؟

- لا، وحتى لو كان هناك أحد، فلا أعتقد أنه سيجرؤ على الشهادة ضد العمدة.

- ارفع الدعوى، واصبر، فلعل الأمور تسير أسرع مما تتصور.

وعرضت عليه أن يساعد «محبوب» في الإشراف على الزراعة، فصمت برهة، ثم قال: لا أريد أن أكون حملًا ثقيلًا عليكم. فنظرت إليه في امتنان، وقالت: شقيت حين ابتعدت عما تعودت عليه، وعودتك إليه تعينك على المحنة.

رفع عينيه إليها، مغالبًا البكاء، وقال: كنت أطمع في وساطتك، لعل العمدة يسمع لك.

رفت على شفتيها ابتسامة خجلى، وقالت: كان أبي يستدعي أباه فيأتي مسرعًا، لكن الزمن قد تغير.

اقترب منها، وقال يستعطفها: هذا جميل لن أنساه لك.

وتلكأ العمدة في القدوم إلى السرايا. أرسلت إليه مَن يطلبه مرتين، وفي الثالثة جاء متثاقلًا، وما إن رأى «عبلة» حتى قال: لولا أنكِ من «الجوابر» ما جئت، فالناس يأتون إلى السلاملك لطلب حاجاتهم، والعمدة لا يذهب إلى أحد.

تجاوزت ما سمعته، وهي تدرك أنه قد فطِن إلى سبب المقابلة، ولم يكن أمامها من سبيل سوى أن تفي بوعدها «محمود» أن تتوسط له. نظرت إليه في اشمئزاز، وقالت: الكبار يحرصون على إقامة العدل.

تصنع الغباء، وسألها: هل شكا مني أحد؟

- لا أصدق أن «محمود» قد باع لك شيئًا.

- الأوراق لا تكذب.

- يكذب البشر، ويسجلون كذبهم على الورق.

هب واقفًا، وقال لها محاولًا أن ينهي الحديث: لم أنتظر منك اتهام كبير الجوابر بالكذب.

أشارت إليه أن يجلس، وهي تقول: الكبير بفعله وليس بمنصبه، وإن كان الأمر بالسنين، فلست الكبير.

جلس متضجرًا، يسحب عباءته لتداري صدره، وقال: هاتي ما عندك، فليس لدي وقت أضيعه في حديث فارغ.

صرخت فيه حتى ارتعدت ملامحه فجأة، وهي تقول: حقوق الناس ليست حديثًا فارغًا.

استكانت ملامحه، مستعيدة هيأتها الأولى، وقال بصوت تكسوه السماجة: ليس لمَن تدافعين عنه حق عندي.

اختارت زاوية أخرى، وقالت بصوت لا يخلو من تودد: أعرف أنك تؤدي الصلوات في موعدها، ومَن هو مثلك يفهم أن الحرام لا ينفع.

هب واقفًا، وخطا نحو الباب، ثم التفت إليها، وقال: أنا أسترد ما كان لأجدادك في هذا البلد، وكان عليك أن تعينيني لا أن تقفي في وجهي.

نهضت، وهي تشير إلى الباب كي يخرج، وقالت له: أفسدك الحقد والحكايات القديمة.

ثم واصلت وهو يفتح الباب: إن كان في هذا البلد أحد عليه أن يسترد ما له فهم «الصوابر».

استدار وقال لها ساخرًا: يبدو أنكِ قد نسيتِ أن «محمود» من «آل بخيت»، وهم كانوا خدمًا في بيوتنا.

خانتها أعصابها، فبصقت، وصرخت، وهي تسأله: أي شيطان أنت؟

لكنه لم يجب. أعطاها ظهره، ومد ذراعه، وأغلق الباب، ومضى غاضبًا.

(17)

عند باب الحديقة ظهر أمامه «سيف»، وكان لم يرَه وقت مجيئه. وقف «رشدان» ونظر إليه في استهانة، وسأله من طرف فمه: ألا تزال موجودًا في البلد؟

لم يرد، ونظر إليه في تحد، فرماه بنظرة مسكونة بالوعيد، وقال: لن يحميك مَن تقعد عند بابهم ككلب جائع.

غلى الدم في عروقه، لكنه تماسك، وقال: شكرًا يا عمدة، اعتدنا منك الأدب. ثم استدار، ومضى بعيدًا عنه.

وكعادة رجل مسكون بالشر، انشغل «رشدان» وهو يركب دوكارًا قد اشتراه يوم أن آلت إليه العمدية، بتدبير ما يؤدب حارس السرايا، الذي كان يعتقد أنه قد غادر القرية إلى غير رجعة. أرسل خلفه مَن يراقبه، فعرف أنه قد تسلل ذات ليلة إلى الزاوية، بعد أن أغلق الباب الخارجي للحديقة. لم يمكث هناك سوى دقائق. لم يقترب من بابها، الذي آلت حراسته إلى رجل جديد من رجال «رشدان»، إنما جلس

فوق قبر «رضوان»، الذي صار في استواء بعد أن رممه «عمر» قبيل رحيله. كان يُحدِّق في النجوم البعيدة، ويمد أذنه ليسمع حداء «هنيّة»، ويهز رأسه في تأثر، ثم نهض سريعًا، ونفض جلبابه من الغبار الذي علق به، وعاد من حيث أتى.

قال «رشدان» لخفيره: حين تراه يمضي نحو الزاوية تعالَ وأبلغني على الفور.

واستدعى خادمة «هنيّة»، وكانت أرملة وحيدة تقترب من الخمسين، واتفق معها على أن تمسك بتلابيب «سيف» حين يقترب من الزاوية، وتصرخ ليجري الناس إليها، وقبلهم سيكون الخفر عندها. وقفت المرأة حائرة، ثم قالت: لم أرَ منه شرًّا أبدًا.

صرخ فيها حتى كادت تسقط من الفزع: عليكِ تنفيذ أمري دون جدال.

تماسكت قليلًا، وسألته: ماذا أقول للناس إن جاءوا مسرعين لصرخاتي؟ ابتسم في هدوء، وقال: أبلغيهم أنه أراد جذبك بالقوة إلى الزراعات.

ملأها فزع، وقالت: أنا امرأة مسكينة، ولا أملك سوى شرفي.

صرخ فيها من جديد: ما سيحدث سيؤكد شرفك هذا، إن كان لكِ شرف.

بلعت ريقها، وقالت في استعطاف: اعفني من هذه المهمة، ويكفيني خدمتي لأختك بإخلاص.

هشها من أمامه كذبابة، وقال متوعدًا: إن لم تفعلي ما أُمرتِ به،

سيضيع شرفك بالفعل، وتمضغه ألسنة الناس على المصاطب وفي الغيطان.

مر أسبوع كامل، و«سيف» لا يقترب من الزاوية. كان يتسلق جذع شجرة كافور عالية، ويتخيّر مكانًا منبسطًا تتوزع منها أفرعها في كل اتجاه، ويرمي أذنه نحو حداء خافت، تحمله نسائم الليل الطرية إليه. يتهادى فيكاد يتبين حروفه، ثم يروغ بعيدًا، تاركًا للصمت مكانه في الفراغ، أو لنباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وصرير الجنادب، ومواء قطط شاردة تتشاكس حول سور الحديقة.

لم يطق «سيف» صبرًا على ضياع الموسيقى التي تسكن روحه، فخرج ذات ليلة قاصدًا الجبّانة. هرع الخفير إلى «رشدان» وكان جالسًا في السلاملك يدخن الجوزة بعد أن دس الحشيش في المعسل، وأبلغه بما رآه. سحب نفسين طويلين، ونظر إلى خادم كان يجلس عند قدميه ينفخ الجمر، وقال للخفير: هناك مَن يراقبه بالقرب من الزاوية، فلمّا يراه، سيفعل ما هو مطلوب.

رآه الرجل فجرى نحو الزاوية. كانت «هنيّة» ممددة على الحصير، تضع رأسها فوق وسادة طرية، وتغيب في نوم عميق. وكانت الخادمة جالسة عند الباب، تمد أنفها إلى النسيم العليل، مستعذبة رائحة الزرع والطين. غمزها الرجل في كتفها، وقال لها: اقترب «سيف» من المقبرة.

هبّت واقفة ترتجف، وقالت له: اختبئ جانبًا، حتى تسمع صراخي فتسرع إليّ.

أعطاها ظهره، فبصقت، وقالت: عليّ تحمل وزر الظلم، وعليك

تحمل وزر شهادة الزور.

قبضت الخادمة على جلبابها من عند صدرها، وشدته في عنف فمزعته. ألقت طرحتها على الأرض فانكشف شعرها الطويل، فعبثت فيه بأصابعها، وخمشت رقبتها بأظافرها، وعضت شفتيها بأسنانها، وخلعت نعليها الممزقين، ومشت على أطراف أصابعها في هدوء.

كان «سيف» قد اقترب من الجبّانة. مد أذنيه فلم يسمع الحداء. وقف مكانه يتطلع إلى الزاوية في عجب. فقد كان هذا هو وقت انطلاق الصوت الطلي. رمى بصره نحو الظلام المنسدل فوق القبور، ومصمص شفتيه في أسى. همّ أن ينصرف، لكنه شعر بدبيب قدمين تقتربان منه. التفت فوجد الخادمة. قبل أن ينطق، أمسكت بجلبابه من عند رقبته، وصرخت: عيب عليك يا خسيس.

سرى الرعب في أوصاله، ولم يدرِ ما يفعل، فقال لها: ماذا جرى لك؟

لكنها لم تتوقف عن الصراخ، فبرز الرجل المختبئ، وأمسكه معها، وهو يقول: يا عديم الشرف والمروءة.

حرص الرجل على أن يكون صوته عاليًا، ليسمعه الساهرون فسمعوا. هرعوا على قدر ما أسعفتهم سيقانهم، حتى وصلوا إلى المكان. وخلُصت لهم من بين طيات الظلام أجساد امرأة ورجلين. وقفوا وقد انعقدت ألسنتهم من الدهشة، لكن الرجل قال لهم: أراد هذا النذل تلويث شرفكم.

لم تمضِ سوى دقائق، أنصت فيها الرجال إلى ما قالته الخادمة، وهم يتطلعون إلى «سيف» في غيظ. كان يصرخ فيهم، ويُقسم إنه

لم يمسها. لكن الناس اعتادوا أن يصدقوا امرأة تتقول على رجل. كان الخفير قد وصل إليهم، فأمسك «سيف» من يده، وقال للرجال: لنأخذه إلى العمدة، وهو يفصل في أمره. راح يتململ من بين أيديهم محاولًا الإفلات، لكنهم تكاثروا عليه، وسحبوه في عنف، حتى بلغوا السلاملك.

كان كثير من الناس قد هبوا فزعين من نومهم، وخرجوا إلى الشوارع، ليروا «سيف» مسحوبًا، يتلقى الصفعات المتوالية، وصوته مشروخ، يحلف بأغلظ الأيمان ويبرئ نفسه، بينما الخادمة تسير خلفهم بجلباب مشقوق عند صدرها، تداريه بكفيها.

ما إن رآهم العمدة حتى نحى الجوزة جانبًا، وسأل: ماذا جرى؟

همّ «سيف» أن ينطق، لكن الخفير لكزه في عنف، فلاذ بالصمت، وقالت الخادمة: هذا النذل أراد الاعتداء عليّ. وحرصت على أن تمد يدها نحو صدرها، وعنقها، ليرى الناس ما حلّ بها.

أعاد العمدة قصبة الجوزة إلى فمه، وسحب نفسًا طويلًا، وقال: احبسوه في بيت العدة والكرباج حتى الصباح. شدوه حتى كاد يسقط على الأرض، فأمرهم العمدة: اتركوه. وناداه: تعالَ يا بهيم.

قطع «سيف» خطوات متثاقلة نحو العمدة، الذي نهض وراح يشمر عن ساعده الأيمن، وينظر إلى كفه، فأدرك الواقفون أنه سيصفعه، فتراجعوا قليلًا. وبينما يتقدم العمدة إليه، وهو ينظر إليه باستهانة، صرخ «سيف» حتى جفل منه «رشدان» فوقف مكانه، والخفر والرجال والخادمة يتطلعون إليه واجمين. وقبل أن يسترد «رشدان» جأشه، كان «سيف» قد هجم على خفير، وخطف البندقية من كتفه،

وصوبها نحو «العمدة» ثم استدار إلى الكل، وصرخ فيهم: ابعدوا عن طريقي.

وقبل أن يتنبه إليه بقية الخفر، ضغط على الزناد، فخرجت رصاصة مزعت الهواء، وارتطمت بالجدار. عندها تراجع خطوات إلى الوراء، ثم أطلق ساقيه للريح. صرخ العمدة: هاتوه.

جرى خلفه الخفر، لكنه كان قد لاذ بشارع جانبي، ومنه إلى خرابة، أسلمته إلى انحناء شارع آخر، ينتهي عند الزراعات. أطلق الخفر الرصاص خلفه، لكن أيًا منها لم تصبه، إنما ضربت الجدران وأسطح البيوت، وأبواب أغلقها أصحابها في سرعة خاطفة.

صرخ الخفير الذي خُطفت بندقيته: ضعت، وضاع أولادي. وراح يجري وراء «سيف» في الحقول ملهوفًا. جرى بلا سلاح، موقنًا أنه إن لم يلحق به سيكون مصيره السجن بلا عذر ولا جدال. لكن خطواته، وهو في نهاية العقد السادس من عمره، لم تكن باتساع خطوات شاب قوي، يهرب من عار مصطنع وسجن، بل قتل، وإلا ما كان كل هذا الرصاص الذي مرق فوق رأسه، ولم يصبه.

ظل يجري والليل يبلعه، حتى بلغ النهر. كانت قوارب الصيد راسية مربوطة إلى أوتاد مدقوقة على الشاطئ، فك أحدها بسرعة، ودفعه نحو الماء، ورمى جسده في داخله، وجدف في قوة. حين انتبه إليه الصيادون، رفع بندقيته في اتجاههم، لتلمع في ضوء القمر، فانكمشوا في أماكنهم، تاركين إياه يبتعد حتى بلغ الشاطئ الشرقي.

(18)

تحفظ العمدة على خفيره في السلاحليك، بعد أن وبخه قائلًا: ألم يعلموك أن سلاحك هو شرفك، بل حياتك؟

وكان مطأطئ الرأس يبكي بحرقة، حتى إن الخادمة أجهشت بالبكاء أيضًا، وهي تدرك جيدًا أنه كان عبدًا مأمورًا مثلها. انتبه العمدة إلى بكائها فنهرها، فبلعت دموعها، ووقفت صامتة لا تعرف ما عليها أن تفعله. نظر إليها في تقزز، وقال: ابقي هنا، ولا تُبدلي ملابسك.

عاد إلى الجوزة يسحب منها، ويحكم التدبير لما سيكون في الغد الذي بات على الأبواب. فلمّا جاء الصبح، كان قد كتب إلى قسم الشرطة يخبره بما جرى. حرص على أن يكتب اسمي «عبلة» و«ناجي» في بلاغه، باعتبار «سيف» يعمل حارسًا لسرايا الأولى، وأتى إلى القرية بمعرفة الثاني. وقال لنفسه، وهو يعيد ما كتبه: لا تنتقم من العبد إنما من سيده.

وأرسل خفيرًا إلى «عبلة» يبلغها بما فعله حارسها، ففتحت عينيها دهشة، وسألته: متى حدث هذا؟

أجابها، وهو يزاور عينيه بعيدًا: الليلة الفائتة عند الزاوية.

أرسل شيخ خفره بالبلاغ إلى المديرية، وجلس ينتظر قيام الدنيا. بعد العصر جاءت تجريدة من ضابط يقود خمسة من العساكر، وبدأ التحقيق في الواقعة. بدأ بالخفير، الذي وقف منهارًا، تتعثر الكلمات على لسانه، لكنها لم تخرج في النهاية عما رسمه العمدة.

أرسل الضابط يستدعي «ناجي» و«عبلة» إلى السلاملك، لكن

مرساله عاد يقول: القاضي في البندر، والسيدة لا تريد أن تترك السرايا.

ووجدها «رشدان» فرصة ليوغر صدر الضابط على السيدة، فقال: لا أحد يعصي أوامر الحكومة.

نظر الضابط في غضب إلى عساكره، وأمرهم: عودوا إليها وأبلغوها أنها إن لم تأتِ، سنقبض عليها، ونأخذها مقيدة اليدين إلى القسم.

أدركت أن العناد قد ينتهي بضياع هيبتها، وتذكرت ما كان يقوله أبوها دومًا من أن عصيان أوامر الحكومة ليس شجاعة، والأفضل أن يتظاهر الإنسان بالطاعة، ويلتف على الأمر، إن رآه في غير صالحه. اعتصمت بالحيلة والتذاكي، وقالت لنفسها: مواجهة العمدة أمام رؤسائه أفضل من الهروب.

ركبت الدوكار، ومعها الحوذي وخادمة. فلما وصلت عند السلاملك، لم تترجل، وطلبت من الحوذي أن ينادي أحد الخفراء. حين جاء طالبته بأن يُخبر العمدة بقدومها. قال له طلبها بصوت جهوري أمام الضابط، فأشار إليه أن ينهض ليأتي بها، فتوجه على الفور إليها، وقال في تصنع مفضوح: يعز عليّ أن تضامي بسبب خسيس لم يحسن القاضي اختياره.

لم ترد، ونزلت ومشت إلى جواره، تكظم غيظها، حتى وصلت إلى السلاملك. جلست أمام الضابط رابطة الجأش، وسألته في اعتداد: ماذا تريد؟

ملأ عينيه من هيبتها، وحسنها الذي لم يكن كله قد غادرها بعد،

وقال: أبلغني العمدة بأنكِ تعرفين ما جرى.

هزت رأسها، وقالت: عرفت، ولا أصدق.

ارتفع صوت «رشدان»: أتكذبينني، وكثيرون شهود على سوء أدب حارسك؟

أشار إليه الضابط أن يصمت، وقال لها: لا نريد منكِ سوى معرفة الأماكن التي يمكن أن يكون قد هرب إليها الخاطئ السارق.

هزت رأسها، وقالت: لا أعرف.

صمت الضابط برهة، وسألها من جديد: مَن يعرف؟

أجابته دون أن يزول عنها تماسكها: جاء به ابن زوجي من «إسنا»، لكن لا أعرف عنوانه هناك.

استدعى الضابط «محبوب» ولم يكن الخبر قد وصله، فقال في ثقة: لا أصدق أن «سيف» قد فعل هذا.

نظر إليه الضابط في استهانة، وقال: لا يهمني شعورك، إنما أريد أن أعرف عنوان الهارب.

سأل «محبوب»: أتسمح لي بأن أذهب وأحضره؟

هز الضابط رأسه في غضب، وقال: هذه مسؤوليتنا، وليس عليك إلا أن تبلغنا بعنوانه.

أملاه العنوان، فدوّنه في ورقة، والتفت إلى العمدة، وقال: أريد الخادمة لتدلي بأقوالها.

بعد أن انتهى من التحقيق مع الخادمة، قال للعمدة: سأرسل إلى شرطة «إسنا» لتتابع «سيف»، أما أنت فافتح عينيك لعله يعود إلى القرية سرًا، واجعل أحد رجالك يراقب «محبوب» من بعيد، فربما يذهب إليه ليحذره.

هز العمدة رأسه، وقال: حاضر.. حاضر، تحت أمرك.

فجاء أمر الضابط: هات خفيرك مقيدًا، سيُلقى في الحبس إلى أن نسترد السلاح.

(19)

لم تنسَ «عبلة» ما حدث. أضمرت في نفسها إجبارها على الذهاب إلى بيت «رشدان»، بينما أبوه، وهو الذي كان أكبر سنًا ومهابة من ابنه الغرير، طالما جاء هو إلى السرايا ليطلب من الوجيه ما يريد، أو يرجع إليه في إشارة جاءته من الثمن. لم ترَ أباها ولا أمها ذات يوم يُستدعيان إلى استجواب أو مساءلة. وسألت نفسها في أسى: هل يرجع كل شيء بي إلى الخلف؟

لم تكن مسكونة بالحكايات التي أفسدت جيلًا تلو أجيال، لكنها كانت تؤمن بأن الابن، أو حتى الابنة، عليها أن تضيف مدماكًا جديدًا إلى بناء العائلة. سألت نفسها: ماذا أضفت أنا؟ وبدت الإجابة محبطة لها. أرض الانتفاع ضاعت، وسرايا الوجيه التي كانت قبلة للثراء والأبهة والمهابة، لم تعد على حالها، حتى جدرانها كلحت، وأشجار حديقتها توحشت، وسكنتها الغربان والبوم.

لم يكن لها ما تفتخر به سوى «ناجي»، أول موظف حكومي في

العائلة، التي لم تخرج عن الزراعة طوال القرون التي رمحت في لمح البصر. ليس أي موظف، إنما هو قاضي شريعة، تملأ علوم الدين وغيرها رأسه، ويأتي إليه شيوخ المساجد ليستشيروه في أمور شرعية استعصت عليهم.

كان يرضيها أيضًا أنها لم تكن مجرد حلقة بلا معنى في سلسلة طويلة، بل كانت واسطة عقد، وجسرًا ربط «الجوابر» و«الصوابر» معًا في حبل متين. نعم لم تكن المرأة الأولى التي تزوجت من خصوم الزمن وحاملي أختامه الثقيلة، لكن لم تكن هناك مَن ارتقت مكانة تطاولها، وهي التي لم تنسَ تحصيل نصيب من المعرفة، ونام في فراشها رجلان من خيرة «الصوابر»، وكانا ينظران إليها دومًا بإكبار، ويحرصان على فعل ما يرضيها.

انتظرت، تعد الدقائق، حتى عاد «ناجي» في إجازته الأسبوعية، فأطلعته على ما جرى، وقالت: لا يجب أن نترك الأمر كله في هذه القرية بيد «رشدان».

وسألها عما تفكر فيه، فقالت: كان «عمر» يعتزم جمع «الصوابر» المتفرقين في البلاد، فتواصل أنت ما بدأه، ولتكن لك العزوة التي تسد العيون المملوءة بالطمع.

وكان «صابر» يجلس إلى جوارهما يأكل قطعة من الحلوى، فنظرت إليه، وقالت: إن استسلمنا لهذا التراجع، فقد يكبر هذا الولد ليجد نفسه بلا شأن.

ابتسم، وقال لها: كيف هذا، وأنا أتطلع إلى إرساله إلى الأزهر، ليكون مثلي وأفضل.

بادلته الابتسام، وقالت: مهما طالت رحلة الطيور لا تنسى موطنها. نظر إليها في إعجاب، وقال: كلامك مسكون بالحكمة دومًا.

ربتت كتفه، وقالت: عين الحكمة ألا نترك الظلم يكبر في هذه البلدة.

فطِن إلى أنها لا تزال متأثرة بما جرى لها في غيابه، فقال: من الحكمة ألا نقرر شيئًا في ساعة غضب.

مدت يدها إلى دورق المياه، وشربت حتى ارتوت، ثم قالت: ألم تفكر يومًا في العمدية؟

ضحك حتى بانت أسنانه البيضاء، وقال: أي عمدية تلك التي تطاول منصب القضاء؟

اقتربت منه، وقالت: لكن الناس هنا لا يهابون سوى العمدة.

نظر إليها، وقال: لم أغب كل هذه السنين في الأزهر، وأملأ رأسي بكل هذا العلم، ثم يحدد لي الناس هنا موضع قدميّ. ثم تنهد، وقال: لم يأتِ على ذهني أبدًا أنكِ مشغولة بهذا الأمر في أي يوم من الأيام.

تراءت أمامها صور الماضي البعيد، وقالت: كان هناك ما يغنيني عن مثل هذا التفكير، ثروة جدك ومهابته، وعمك الذي تزوجته وهو عمدة القرية.

قال لها: الزمن تغير، وكبار الملاك في القرى يرسلون أولادهم إلى المدارس، وينتظرون اليوم الذي يصبحون فيه موظفي حكومة.

لكنها لم تتخلّ عما شغلها، فسألته بغتة: ما رأيك في «محبوب»؟

صمت برهة، وقال: قوي، وراجح العقل، يتقدم في التعليم بخطى مذهلة، لكنه لا يزال يشكو من أن أهل القرية ينظرون إليه على أنه غريب أتاهم فجأة.

ابتسمت، وقالت: منذ دقيقة كنت ترى أن الناس ليسوا هم مَن يرسمون لنا الخطى.

تناول دورق المياه، ورشف قليلًا، وقال: العمدية لها شأن آخر.

واستعادت ما فعله «رشدان»، وقالت: يخضع الناس هنا لأوامر الحكومة حتى لو لم تعجبهم.

سألها عما تفكر فيه، فردت عليه بسؤال: ألا يستطيع القاضي أن يساعد قريبه في أن يصبح عمدة قرية؟

لم يشأ أن يغضبها، فقال: دعيني أدبر الأمر على مهل.

(20)

كان «رشدان» مبتهجًا لشعوره بالانتصار على «عبلة». اعتبر أنه قد نال منها، مرة حين عرف أهل القرية أن الرجل الذي كان حارسها، وهي الأرملة التي لم يخاصمها الجمال بعد، رجل لا شرف له، حاول اغتصاب خادمة. ومرة لأنه أجبرها على القدوم إلى السلاملك.

دار دخان الحشيش برأسه، فانجلى صوت الشيطان الذي يسكنه، فقال للخفير: أريد خادمة الزاوية الآن.

جاءت المرأة تتعثر في خطواتها. وقفت أمامه، وتطلعت إليه صامتة. سحب أنفاسًا متلاحقة، ودفع الدخان حتى غطى وجهها،

وقال: لم تنتهِ حكايتك.

نظرت إليه، خائفة، وسألته: هل من جديد يا حضرة العمدة؟

ابتسم، وقال: سيستدعونك مرة أخرى أمام المحكمة حين يقبضون على الولد الهارب.

استردت أنفاسها المبهورة، وقالت: اطمئن، فلن أزيد على ما قلته للضابط.

قهقه، وقال: واعية، لكن هناك أمرًا آخر.

مدت عنقها إليه، وقالت: تحت أمرك يا عمدة.

ابتسم، وقال: لا تخافي، فهذه المرة لن تجلسي مرتجفة أمام ضابط أو قاض، إنما عليكِ فقط أن تقولي لامرأة غيرك أو اثنتين أن «سيف» حين تمنعتِ عليه، صرخ فيك، قائلًا: مَن أنتِ حتى تتمنعين عليّ، سيدة القرية كلها نامت في حضني عارية مرات ومرات.

ارتجفت، واهتز لسانها كثيرًا، وهي تقول: إلا العِرض يا عمدة.

دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا ذهبًا، وقال لها: هذا سيجعل الكلام يجري على لسانك.

لم تمد يدها إليه، فصرخ فيها: أتردين أعطيتي؟

مدت يدًا ترتجف، وأخذت الجنيه، ثم وقفت مكانها تغالب القهر والأسى. نظر إليها، وقال: هذا سر بيننا، فإن وصلني أنكِ أخبرتِ أحدًا بأني صاحب هذه الفكرة، قطعت لسانك.

استدارت، وقبل أن تخرج من باب السلاملك، قال: سيسألك النسوة

اللاتي يأتين إلى المقبرة والزاوية عما جرى، وليس عليكِ إلا أن تدسي بين الكلام ما طلبته منك.

ثم سحب نفسًا طويلًا ونفخ، فانطلقت من فمه ومنخريه سحابة دخان أزرق، وهو يقول: سأمرغ أنفكِ في التراب يا متكبرة.

(21)

يستعذب الناس النميمة. تكبر في رؤوسهم أسرع من الزرع والعيال. تلتقطها الآذان، فتسكن الرؤوس المشدودة إلى الأوهام والخيالات المريضة. تدور كدوامات الريح التي تتسع دوائرها فتثير الغبار بلا هوادة. كل منهم يصنع لها دائرة، فرحًا بها، ويرصعها بحروف الكلام المنمق، الذي يضيفه إليها من عنده، دون أن يرف له جفن، ومن الكلام صنف لا يُنسي بعضه بعضًا، ولا ينسخه.

تناقلت النسوة الكلام. همسن به على مهل، وفي نعومة. جرى سريعًا كما يجري الماء العذب في حلوق الظامئين. وصل إلى الرجال في البيوت، ورددته الألسنة على المصاطب، وفي الحقول. وحدها التي تخصها المكيدة كانت آخر مَن يعلم. فالكلام يدور ولا يصل صاحبه، إلا بعد زمن، وقد لا يصل أبدًا.

عاد «صابر» ذات يوم من المدرسة يبكي. استقبلته خادمة في بهو الطابق السفلي، وسألته في جزع: ماذا جرى؟

لكنه لم يرد. صعد السلالم إلى غرفته، وأغلق عليه الباب، وانخرط في بكاء حار. جاءته أمه ملهوفة، أخذت رأسه على صدرها، فرفعه في غضب، وزحزح جسده بعيدًا عنها. نظرت إليه متعجبة أمره،

وسألته: ما لك؟

نظر إليها في عتاب، وقال: لا شيء. أنا تعبان، وأريد أن أستريح.

كانت قد اعتادت على ألا تجبره على قول شيء، حتى يفصح عنه حين يهدأ، فتركته، وأغلقت الباب. لكنها فوجئت به في اليوم التالي يرفض الذهاب إلى المدرسة. عاتبته لأنه لم يفعلها من قبل، فقال لها: أنا متعب جدًا.

استمر تعبه في اليوم التالي، وهي تحسب أن جسده يعاني من وعكة، فهو يجتهد في استذكار دروسه ليل نهار. لكن ما كانت متعبة هي نفسه. شيء يحقل صدره كصخرة مسنونة. كلمات تطارده، كلما حاول طردها حضرت لتشرخ روحه.

كان يوم الخميس فجاء في آخره «ناجي» وحين سمع بما يعاني منه أخوه، انفرد به في حجرته. وضع كفه على جبينه فلم يجده ساخنًا. وضع أصابعه تحت ذقنه، ورفع رأسه ليرى عينيه، لكن «صابر» لم يقدر على النظر في عيني أخيه. أمسك كتفه، وهزه خفيفًا، وسأله: ما بك؟

لاذ بالصمت، وانخرط في البكاء. وضع راحة يمناه على رأسه، وتلا آيات من سورة «يس»، وقال له مبتسمًا: مَن حسدك؟ زملاء الفصل أم المدرسون؟

عاد إلى الصمت، فقال له: حتى الأطفال لا تخلو نفوسهم من الهموم.

فطِن الصغير إلى أن القاضي قد مسه ما يشعر به، فسأله: هل عيّرك

أحد بشيء من قبل؟

وخزه السؤال، واستعاد بعض صور الماضي وكلامه، ففي الريف لا يكف الصغار عن اختراع ما يضايقون به بعضهم بعضًا، خصوصًا النجباء في الدراسة، يسوق الحسد مَن هم دونهم لاختلاق ما يضايقونهم به. حركة جاءت في غفلة، أو شيء لا إرادي يصنعه الجسد، ضراط أو فساء أو مخاط يندفع على حين غرة، أو عبارة قيلت دون تفكير، أو شيء اشتهر به الآباء والأمهات. طالما رأى «ناجي» هذا أمامه صغيرًا، وكان فرصة لصناعة النميمة والغيظ. وكيف لا ينفع في هذا أن يكون مَن يُعيِّره الأطفال ابنًا لقري أو كبير في القرية، فالصغار لا يضعون المال والهيبة في اعتبارهم حتى يطالهم وعي، يقود إلى لجمهم أو قمعهم، حتى عن الأمور الطيبة، وقول الحق في شجاعة.

اعتقد «ناجي» أنه شيء من هذا، فقد كان «صابر» يزم أنفه أحيانًا ثم يحركه سريعًا بشكل لافت، حتى يظن مَن يراه أنه يسعى إلى خلعه من وجهه. ربت كتفه، وقال له: لا يخلو أحد مما يلفت انتباه المتربصين به.

غلبه البكاء، وقال: ليته كان شيئًا يُطاق.

ابتسم «ناجي»، وقال: لا يخلو العباقرة من غرائب، وأنت تسبق سنك في الفهم والفصاحة، وأتوقع لك أن تكون عالمًا كبيرًا.

وحكى له كيف كان هو يهز رأسه، ويحركه إلى الأمام والخلف سريعًا، وكيف كان الصغار يُعيِّرونه بهذا، ويقولون عنه إنه لن يكون سوى مجذوب يلازم الزاوية، وها هو قد تخلص من هذا السلوك

المتكرر، وصار رأسه ثابتًا فوق عنقه، بعد أن امتلأ علقًا.

ووجده ينصت إليه، دون أن يبدو عليه أي تأثر، فقال: نرث أحيانًا أشياء ممن جئنا من صلبهم، ولا ذنب لنا فيها.

اهتز جسد الصغير، وقال بصوت خفيض: وما ذنبنا أن نرث العار؟

امتقع لون «ناجي»، وقال: أنت ابن كبار، لا يقدر أحد على أن يعثر في حياتهم على ما يشين.

عاد إلى البكاء، ودفن وجهه بين راحتيه، وقال: هناك مَن يقول إنه وجد.

سأله بصوت حاد: مَن هذا؟ وماذا وجد؟

صمت الصغير برهة، ثم سأله: هل أنت واثق في أمك؟

لسعه السؤال كلدغة عقرب أعمى، فأجابه وهو يحاول أن يرفع وجهه الصغير ليرى ما في عينيه: لم أتوقع منك هذا السؤال.

أزاح الصغير وجهه بعيدًا، وقال: للأسف، هناك ما جعله يجري على لساني.

فقد «ناجي» صبره، وقال له: تحدث في صراحة، فقد شغلتني.

حرّك أنفه سريعًا، وقال دون أن يتوقف الرفيف: عيّرني العيال بأمي، بأمك.

هز رأسه، حتى كادت العمامة تسقط من فوقه، وقال: قطع الله لسان مَن يخوض فيها بسوء.

واعتقد أن الأمر يتعلق بالحارس الهارب، الذي اضطرتها ما اتُّهم به أن تذهب إلى بيت العمدة، فقال: وما ذنبها أن يُتهم حارس السرايا بشيء لم يفعله؟

احتد صوت الصغير، وقال: ذنبها أنه حارسها.

ابتسم «ناجي» وقال: أنا قاضٍ، والمتهم عندنا بريء حتى تثبت إدانته، وحتى لو ثبتت إدانة «سيف»، فهذا لا يسيء لأمنا، وفي الشرع «لا تزر وازرة وزر أخرى».

لم يفهم ما سمعه، وزاد صوته احتدادًا، وقال: لا أريد أن أسمع اسمه.

ربت كتفه، وقال: إذا كان هذا يضايقك فانسَ الأمر كله.

خرجت حروفه مبتلة بالدموع، وقال، وهو ينظر هذه المرة في عيني «ناجي»: ما سمعته لا يمكن نسيانه.

عاد يسأله: ما هو؟

صمت برهة، وقال: عاهدني على أن يكون سرًّا بيننا.

سرى غضب في أوصاله، فكظمه، وقال له: لن أتركك حتى تخبرني بما سمعته، ولا تنكر منه شيئًا.

حكى له كل شيء، و«ناجي» يهتز مكانه غير مصدق ما يسمع، فلما انتهى، قال له: قطع الله ألسنتهم، إنها مخبصة جديدة، معروف مَن أطلقها.

رفع وجهه إليه في رجاء، وسأله: هل أنت لا تصدق هذا الكلام؟

قال، وهو يدوس على الحروف، ليؤكدها: هذا من سابع المستحيلات، إنما هو رمي محصنة، يرفضه الله والقانون وعقلاء الناس.

نظر إليه دون أن يدرك كل مرامي كلامه، وسأله: هو كذب؟

أخذ رأسه بين ذراعيه، وجذبه برفق إلى صدره، وراح يمسد ظهره، ويقول: كذب، ولن أترك مَن صنعه دون عقاب.

ثم خلع رأس الصغير من صدره، ونظر في عينيه، وقال له: لا تخبر أمنا بشيء، فهذا كلام لا يصح أن يُقال أصلًا، وأمهلني حتى أثبت لك أنه كذب وافتراء.

وسأله «صابر» في لهفة: هل أنتظر في البيت حتى تبرئ أمي، وأعود إلى المدرسة؟

أجابه على الفور: لا أعرف أن أحدًا من أجدادك قد هرب من مواجهة ما يعترض طريقه. اذهب إلى مدرستك، فإن قال لك أحد هذا الكلام الفارغ، قل له على الفور: هذه كذبة اخترعها العمدة ليسيء إلى أمي الشريفة.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: لكن العمدة قريب أمي، فهل يفعل ما يسيء إليه؟

تنهد في حرقة، وأجابه: يقرصك الثعبان من أقرب جحر.

ونهض وهو يضرب كفًّا بكف، ويقول: يأتي الغدر من أقرب الأقربين.

(22)

لم ينم «ناجي» ليلته. هجمت عليه الظنون والمخاوف، وشعر لأول مرة بأن رأسه مسكون بما لا يطيقه. توسوس له كل شياطين الأرض بالانتقام ممن كذب على أمه، لكنه سرعان ما يتذكر أن محله لا يجب أن يتصرف بما يُغضب الله، أو يخرج على القانون.

هو يعرف عقوبة رمي المحصنات، استعادها صامتًا كما قرأها في كُتب الشريعة، لكن عبء إثبات أن العمدة هو مَن فعلها كان يزلزل كيانه، لا سيما حين داهمه خاطر بأن هذه الكذبة ستدور على ألسنة الصغار ونساء البيوت، إلى أن تكبر الظنون، وتمتد من القرية إلى خارجها، لتصبح واحدة من حكايات المحاكم المشهودة، وقد يمسه منها الكثير.

لم يكن أمامه سوى «محبوب». خرج إليه في الهزيع الأخير من الليل، وطرق باب بيت «نبوية»، فخرج إليه متثاقلًا يتثاءب. لم يقدر على إبلاغه بالأمر في البيت، حتى لا يصل حديثهما إلى أحد. طلب منه أن يخرجا إلى الجسر، أو المقبرة، وقال له: عذرًا، لم يأتِ بي إليك في هذه الساعة سوى ما لم أصبر عليه حتى الصباح.

طوق كتفه بذراعه، وقال له: ليس بيننا ما يتطلب الاعتذار.

وجدا نفسيهما يسيران نحو الجسر، تراهما النجوم الزاهرة في هذه الليلة المظلمة، ويملأ أذنيهما نقيق الضفادع، ونباح الكلاب، وهسهسات الزرع حين تداعب شواشيه النسائم الطرية. لم يتحدث «ناجي» في البداية فيما قض مضجعه، إنما ساق حديثًا عن الزرع والبيوت. فلما ابتعدا، سأله بغتة: هل تعرف طريق «سيف»؟

- أعرف عنوانه في «إسنا» لكنني أعتقد أنه لم يرجع إليه.

- وربما رجع.

- هذا ممكن.

- لنذهب إليه، الآن قبل الصباح.

تقدم عنه خطوتين واستدار إليه، فخلص له وجهه من طيّات الظلام، وسأله: هل جدّ ما يضيركم مما اتهموه به؟

- جدّ ما لم يكن في الحسبان.

- ما هو؟

- أعفني من الإجابة، فهي آتية، والكل في هذه القرية يجب أن يعرفها.

- ليكن ما تريد.

(23)

لم يكن «سيف» يعرف مأوى له سوى مسقط رأسه. المدينة التي تحن خطواته إلى شوارعها، والنوافذ التي تطل على رأسه وهو يعود آخر المساء مجهدًا. فك البندقية، ولف أجزاءها في شاله الأبيض، ووضعها تحت إبطه. راح يجري بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنهر، حتى وصل إلى مرسى يبعد ثلاثة أميال عن «الجابرية» يقف عنده مركب عائد إلى الجنوب. تحسس ما في جيبه من نقود، فلم تكن سوى ثلاث ريالات من الفضة، أبرزها للمراكبي، وقال له: خذني معك إلى «إسنا».

فلمّا بلغ المدينة، لم يذهب إلى الحجرة التي كان يسكنها، فهي لا تنتظره. لم يكن يثق في أهل المدينة سوى باثنين: «محبوب» و«عبد الصمد»، والأخير شاطره أيام الشقاء والعوز، وساعات الفرح القليلة التي كانا يخطفانها من قلب الأحزان المقيمة.

كان «عبد الصمد» في مثل سنه، يسكن مع أبيه وأمه الطاعنين في السن غرفتين فوق سطح بيت عتيق، ويكدح ليوفر لهما ثمن اللقمة والدواء وإيجار السكن. ما إن رأى «سيف» حتى تلقفه بين ذراعيه يبكي، وقال له: لم يهنأ لي عيش منذ رحيلك.

ابتسم، وقال له في مرارة: عدت بحمل ثقيل.

وحكى له ما جرى، وقلبه يرتجف، فلما انتهى قال له: بيتي مفتوح لك، ولا تخف. ثم قال له، وكأنه يطمئن نفسه: في زحام المدينة لن يعثر عليك أحد.

صمت برهة، وقال: فترة مؤقتة إلى أن أدبر أمري.

نظر إليه في شفقة، وسأله: أتريد أن تتركني مرة أخرى؟

أجابه وهو يغالب دموعه: هذه المرة ليس باختياري. ثم واصل: يجب أن أرحل بعيدًا، فيكفي مَن عرفت أنني جلبت لهم المتاعب.

لم يكن بيت «عبد الصمد» بعيدًا عن ذهن «محبوب»، فهو وحده الذي بقي من الثلاثة في «إسنا»، فلما نزلها برفقة «ناجي» توجه أولًا إلى الغرفة التي كان يستأجرها «سيف» فوجد عجوزًا قد سكنتها. توجه إلى المكان الثاني على الفور.

كان «سيف» مستلقيًا على ظهره شاردًا في همومه، حين سمع صوت «محبوب» يسأل أبا «عبد الصمد» عنه. هبّ واقفًا، وهرع نحو الباب، فلمّا رأى «ناجي» قبّل رأسه، وقال له: يحزنني أني تركت لكم ما كنتم في غنى عنه.

نزع ابتسامة فاترة من جوف أحزانه، وقال له: أنا واثق من براءتك، لكن الشر طال مَن لا ذنب لها.

تطلع إليه حائرًا، فاقترب منه، وحكى له ما جرى. ضرب «سيف» الكنبة التي كانوا يجلسون عليها في مدخل الغرفة، وصرخ: الوغد، والله سأشرب من دمه.

ربت «ناجي» كتفه، وقال له: لا تجعل الغضب يسبقك إلى ما علينا أن نفعله، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى التفكير بحكمة، والتصرف بوعي.

دفن وجهه بين راحتيه، وقال بصوت كسير: هذا أمر لا يجب السكوت عليه.

قال «ناجي»: لو كنت سأسكت ما سعيت وراءك، لكن علينا أن نُحكم التدبير، حتى لا نعالج الخطأ بخطأ أكبر.

وعرض عليه أن يترك «إسنا»، ويذهب إلى مدينة «سوهاج» ليختبئ في شقة «ناجي» التي كان قد اشتراها في المدينة، لتكون مقر راحته بين ساعات العمل، وقال له: يجب أن يكون مكانك معروفًا لي، حتى إذا جاء وقت احتياجي لك وجدتك.

وكان قد فكّر في أن يستدعي خادمة الزاوية، فهي بداية خيط

هذه القضية برمتها، ويجعل زميلًا له يحقق معها، وهو قادر ببراعته أن يستنطقها، فيحصل من أقوالها على ما يُبرئ «عبلة» و«سيف» معًا، ويزيح العمدة من منصبه، بعد أن يثبت اتهامه، فيضرب عصفورين بحجر واحد.

كتب العنوان في ورقة، وأخرج نسخة من مفتاح الشقة، وبعض ريالات من الفضة، ومدهما إلى «سيف»، وقال له: لتذهب وحيدًا متخفيًا، فربما يكون هناك مَن يتبعنا. أنا سأسبقك إلى «سوهاج»، وأنتظرك.

ونظر إليه «محبوب»، وهو يمد يده ليصافحه، وقال: عاهدني على أن تأتي.

- منذ متى كنت أخون عهدًا؟

- أنت أخي الذي لم تلده أمي.

وتنهد «سيف»، ونظر إلى «ناجي»، ووضع يده على عنقه، وقال: رقبتي فداء الست «عبلة».

وانتظر «سيف» ساعات ليستيقن أنهما قد غادرا «إسنا»، ثم قال لصديقه «عبد الصمد»: آن الأوان أن تستريح من أعبائي.

نظر إليه مندهشًا، وقال: لا يتعب أخ من أن يحمل بعض هموم أخيه.

احتضنه كأنه يودعه إلى الأبد، وقال له: لا تقلق، فهو مشوار قصير، لا بد منه.

- إلى أين العزم؟

- طريق إلى براءتي، وإزاحة الهم عمن أتعبتهم.

خرج «سيف» من « إسنا» عند الظهر، حاملًا بندقيته بعد أن لفها في كيس من القماش السميك. كان قد فكّر فيما سيفعله، أحكمه في رأسه خلال هذه الساعات الفاصلة بين ذهاب «ناجي» و«محبوب» وقدوم «عبد الصمد». لم يكن هو ذلك الذي أوصاه به «ناجي» لكنه ما اعتقد أنه وحده ما يشفي غليله، وينهي الشرور من قرية طالما داعبه أمل عريض في أن يجد بين أهلها ضحبة ولُقمة. وقال لنفسه، وهو يهم ليقفز إلى مركب ذاهب إلى الشمال: طالما السجن آت، فليكن في أمر يستحق.

كان يقصد «الجابرية». هي وحدها التي يجب أن يذهب إليها أولًا، وقد يكون أولًا وأخيرًا، لا يدري. غلبه النوم في المركب، فرأى «ناجي» في منامه، ينظر إليه بعينين مملوءتين بالعتاب، دون أن ينبس ببنت شفة، وكأنه يسأله: لماذا فعلت هذا؟ فأجابه دون تردد: أمك في مقام أمي، ولو افترى أحد على أمي بمثل هذه الكذبة المشينة، ما ترددت في قتله.

عند منتصف الليل، رسا المركب عند «الجابرية»، في المرسى الذي كان قد جهز لمركب «عبلة» قبل سنين. هبط «سيف» وقطع مدقًا ضيقًا بين الزروع كان يعرفه جيدًا. بين أعواد القصب جلس يلتقط أنفاسه، وفتح كيس القماش، وأخرج البندقية، وركب أجزاءها. تأكد من أن خزانتها لا تزال عامرة برصاصتين، من تلك التي اشتراها من «إسنا»، ويحتاج إلى واحدة فقط، وعليه أن يُحسن استخدامها.

كان عليه أن يُحاذر، ليتمكن من غريمه، بعيدًا عن عيون الخفر وبنادقهم. هو يعرف جيدًا بيته، فقد أرسلته إليه خادمة «هنيّة» مرات ليأتي إليها ببعض حاجاتها، ورآه يوم سحبوه إليه يوسعونه ضربًا. للبيت باب خلفي، يطل على الزروع، فإن كان موصدًا، فنافذة الغرفة التي ينام فيها العمدة، تبقى أحيانًا مواربة، تستقبل النسيم في ليالي الصيف.

تسلل على مهل. لم يكن خائفًا سوى من أن يفشل في بلوغ هدفه. كان الصمت يفرض هيبته على القرية، فحتى الكلاب كفت في هذه الساعة عن النباح، وتوقفت الضفادع عن النقيق. الليل يطرح ستائر عريضة لا يخلُص منها شيء. لا يراه إلا هو، وقبله ربه الذي يعلم ما في نفسه. توقف فجأة، ورفع كفيه إلى السماء، وقال قلبه: اللهم مكني من عدوي.

خرج من حقل القصب، ثم عاد خطوتين وجلس مكانه، ومد بصره لعله لا يرى أحدًا. لم يكن هناك أحد في طريقه، فمشى على مهل، حتى بانت له الجدران الخلفية لبيت العمدة. سمع سعال امرأة، فجفل قليلًا، وتحسس بندقيته. انتظر حتى خمد السعال، وعلا شخير يلوث السكون، فقال لنفسه: الآن وإلا أفلت من يدي.

واستغل العتمة الجاثمة خلف الجدار، ووقف فيها يتطلع يمنة ويسرة، حتى يستيقن من مكان العمدة في هذه الساعة. مد أذنه تحت نافذة غرفة نومه، لعل شيئًا يصدر منها يدل على وجوده فيها. لكن الإجابة جاءت من السلاملك. كان شعالًا وشهقات طويلة، فعرف أن «رشدان» يجلس كعادته مغمورًا بالدخان الأزرق، يسحب حتى

يدور رأسه في خيالات عجيبة.

كان يعرف أنه في أغلب هذه الجلسات يكون وحيدًا، ليس معه إلا الرجل الذي يدس له الحشيش في المعسل، ويرفع الجمرات فوقه. لكن كان عليه أن يستيقن من هذا. التصق بالجدار، وقطع الخطوات نحو المكان المقصود، واسترق السمع، فأتاه صوت العمدة وهو يحكي ويضحك عاليًا، بينما الرجل لا يرد إلا قليلًا، شاهدًا على هذيان مصطنع، يتدفق من نافذة مواربة.

كان يعرف أن بعض الخفر يمسون في أغلب الأحيان قريبين من السلاملك، منشغلين بالثرثرة أو تناول مشروبات ساخنة، أو شاردين في عذاب نفوسهم وهم يسترجعون الإهانات التي تلقوها من فم العمدة في النهار.

رفع «سيف» هامته، وأغلق عينه اليسرى، فرأى قفا العمدة ماثلًا أمامه. رفع بندقيته، ومد ماسورتها على مهل، لتصبح الفوهة مصوبة إلى رأس «رشدان». سحب الترباس إلى الخلف والأمام، فاندفعت طلقة في مكان الانفجار. غرس عينه فوق جسد البندقية، وصار الهدف واضحًا أمامه في نور الكلوب. في اللحظة التي كان يضغط فيها على الزناد، انتبه الرجل الجالس أمام جمرات النار الصافية، فصرخ، وعندها انطلق الرصاص.

رأى «رشدان» يسقط على وجهه، قبل أن يتراجع نحو الزراعات، وملأت أذنيه فرقعات بنادق الخفر وصياحهم. توزعوا في سرعة خاطفة وراء البيت، وسمع مَن يقول لهم: الرصاص جاء من النافذة.

مدوا أبصارهم فرأوا شبحًا يجري، نحو زارعات القصب، فأطلقوا

الرصاص غزيرًا، فاستقرت إحداها في فخذ «سيف»، فابنجس الدم، واندلع الألم، وهو يحاول جاهدًا أن يرفع قدميه، حتى تمكن من دخول الزراعات، يقفز على ساق واحدة.

كانوا قد اقتربوا منه، فاستدار قليلًا، وجلس القرفصاء، يغالب الوجع. مد بندقيته ليطلق الرصاص عليهم فيتراجعون، لكن لم تكن في الخزنة سوى رصاصة واحدة. سحب الترباس ليطلقها، لكن خانته يداه، اللتان كانتا ترتخيان في وهن، بينما الرؤية تغيم أمام ناظريه.

لاذ بالصمت، كاتمًا تأوهات جارحة كانت تريد أن تخرج. كان الدم ينزف غزيرًا، والظلام يتكاثف أمام عينيه الغائمتين. رفع جلبابه، وتحسس موضع الجرح. نزع شاله الأبيض، وربط فخذه بشدة، ليتوقف الدم. حاول الوقوف ليكمل الهرب، لكنه شعر بهبوط حاد يكتسح جسده، فلم يقوَ على السير. صدته أعواد القصب المتكاثفة، فسقط مكانه، دون أن يقدر هذه المرة على كتم آهة خرجت منه فجأة، فاستدل الخفر على مكانه، وأمسكوا به.

رفعوه في عنف، فصرخ فيهم: اتركوني يا أولاد الكلب. ضربه أحدهم بدبشك البندقية في ظهره، وسحب الآخر كوفيته، وربط يديه، وشدوه يعرج حتى بلغ السلاملك.

كان أهل القرية قد تجمعوا عند بيت العمدة، يتبادلون الحديث عما جرى. فرأوا الخفر وهم يسحبون «سيف» نحوهم. حين وصل إلى الحشد، صرخ قائلًا: أريد أن أقول شيئًا للناس. لم يمهلوه، ودفعوه بقوة حتى كاد يسقط على وجهه. لكن أحد الواقفين، وكان من

عجائز «الجوابر»، قال: اتركوه، فربما يبلغنا عمن حرضه على قتل العمدة.

رموه على الأرض، والتف الناس حوله مادين آذانهم ليسمعوه، فقال: سأقول كل شيء، حين تحضر خادمة الزاوية. فأرسلوا أحدهم مسرعًا ليحضرها. لم يخبرها بشيء، فجاءت تلهث خائفة، وهي تظن أن العمدة هو مَن طلبها. أوسعوا لها بين أجسادهم، فرأت «سيف» ممددًا أمامهم يتوجع. ضربت يدها بصدرها، وسألت في لهفة: ماذا جرى؟

أجابها أحد الخفراء وهو ينظر إلى «سيف» في اشمئزاز: هذا الخسيس قتل العمدة.

سألت من جديد: قتله أم أصابه؟

رد أحدهم: الرجل مات، وشبع موتًا.

نظر إليها «سيف» في تودد، وقال: أريد أن أقابل ربي، بعد أن ترفعي عني ظلمي.

تطلع إليها الناس متعجبين، فسألته: أي ظلم؟

- ادعاؤك أنني اعتديت عليك عند الزاوية.

تلفتت حولها، وقالت: لم أرَ منك شيئًا يسوء، لكنني أُجبرت على اتهامك.

وسألها شيخ الخفر: مَن أجبركِ يا مخبولة؟

صمتت برهة، وقالت: العمدة.

مد عجوز «الجوابر» رأسه، وسألها في غيظ: وما الذي يفيد العمدة مما جرى؟

تنهدت، وقالت: كان يريد أن يطرد «سيف» من القرية، ويسيء إلى الست «عبلة».

رفع «سيف» يده طالبًا الحديث، فصمت المتحلقون حوله، وقال للخادمة: أنتِ تعرفين مَن زعم أنني قد مسست ثوب السيدة «عبلة».

رفعت وجهها، وقالت: حاشا لله، إنها أشرف من الشرف، وما قيل عنها أجبرني العمدة عليه.

نظر إليها الناس في اشمئزاز، وبصق أحدهم على وجهها، فقالت: أنا مغلوبة على أمري، وأنتم مثلي، ولو كان قد أمر أحدكم بإطلاق هذه الكذبة ما استطاع أن يخالفه.

جذبها أحدهم بقوة إلى الخلف، وقال لها: ارجعي مكانك.

وقال آخر: هل تتركون الشاب ينزف حتى يموت؟

فصرخ «رافع» في غضب: ثأرنا عنده، ولا بد من قتله الآن.

لكن شيخ الخفر، تدخل في حسم: من مصلحتنا ألا يجده البوليس جثة هامدة.

عاد «رافع» يصرخ: القاتل يُقتل، هذا أمر لا جدال فيه.

أمسك شيخ الخفر كتف «رافع»: اهدأ يا سيدنا، الثأر لا يُؤخذ من عاجز.

ووصل الخبر إلى السرايا، بينما كانت «عبلة» تصارع الأرق،

مهمومة بما آلت إليه حال «صابر» الذي لم يكف العيال عن مضايقته. أبلغتها الخادمة، وهي تعتذر، فقالت لها: خبر مثل هذا لا يجب أن ينتظر حتى الصباح. وطلبت منها أن تبلغ الحارس الجديد بتجهيز الدوكار، فلما وصل إلى الحشد، قال أحد الواقفين: جاءتنا العفيفة الشريفة. وكانت أول مرة تسمع أحدًا يناديها بما هو مُسلّم به. أفسحوا لها الطريق، فألقت نظرة على «سيف» وقالت: لا بد من نقله إلى المستشفى.

قال عجوز «الجوابر» غاضبًا: إنه مجرم، قتل العمدة، ونخاف أن يهرب.

طمأنه شيخ الخفر: يجب أن يبقى حيًا، على الأقل حتى يأتي الضابط، ويعترف أمامه.

وقال أحد الواقفين: يمكننا أن نخرج الرصاصة من فخذه هنا.

كانوا معتادين مثل هذه الحوادث، فهزوا رؤوسهم موافقين. دفنوا سكينًا في المجمرة التي كانت لا تزال ترسل لهبها الأزرق في قلب السلاملك. حملوه، ووضعوه على كنبة جانبية في صالة البيت. تقدم أحدهم، وكان بارعًا في هذا، ونظر إلى «سيف» قائلًا: لولا ما قاله شيخ الخفر، لتركنا الرصاصة تأكل حياتك. وغرس السكين، فصرخ «سيف» عاليًا، ودار فزعه وألمه في الشوارع كلها، حتى تململت قلة كانت لا تزال غاطسة في نومها، فهب بعضهم مذعورين. أمسك شيخ الخفر بالمقذوف الغارق في الدم، قلّبه في يده، ثم لفه في منديل من قماش، ووضعه في جيبه.

وكانت خادمة الزاوية لا تزال واقفة على طرف الحشد، فدخلت

إلى السلاملك حيث تجلس «عبلة»، وقبلت رأسها وهي تبكي: سامحيني يا ست.

نظرت إليها متعجبة، وسألتها: على أي شيء؟

طأطأت رأسها، وقالت: على ما قلته في حقك.

رفعت وجهها إليها، وقالت: لا أعرف عن ماذا تتحدثين.

أدركت الخادمة أن السيدة لم يبلغها ما خاض فيه الناس. صمتت، ونظرت في وجوه الحاضرين، وقالت: لا شيء.. لا شيء.

ثم انسحبت إلى الخلف، تاركة إياها تنظر إلى «سيف» في شفقة، وهو يتصبب عرقًا، رغم برودة الهواء، الذي يتدفق من النافذة. اقتربت منه، وسألته: لم يكن العقاب على قدر الجرم، فالكلام يواجه بالكلام، وليس بالرصاص.

رمى بصره إلى الحاضرين، وقال بصوت واهن: أريد سيدتنا على انفراد.

أشارت إلى الواقفين أن ينصرفوا، فلمّا اطمأن إلى خروجهم، قال لها: يدافع الابن عن عِرض أمه.

لم تفهم قصده، فتنهد في حرقة، وبلع ريقه، وكان قاسيًا كعصا قدحتها الشمس سنينًا. حكى لها ما جرى، وهو يلهث من فرط التعب. كان يُبعد ناظريه عن عينيها، وهي متسعة الحدقتين اندهاشًا وغضبًا؛ لأن العمدة جرؤ على هذه الفِرية، ولأن هذا كان يدور على الألسنة دون أن يبلغها.

قالت له: لا تشغل بالك، المهم أن تتعافى.

رفت على شفتيه المقددتين ابتسامة، وقال: لو لم أفعل هذا، ما أخرست الألسنة. عرف الناس كل شيء، وهذا ثمن بسيط، يدفعه ابن لأمه.

نهضت، وطلبت شيخ الخفر، فجاء مسرعًا. قالت له: نأخذه في الدوكار إلى المستشفى.

وهمّ أن ينطق، فقال «سيف»: لا داعي لهذا، أنا بخير.

وقال شيخ الخفر: ليست المرة الأولى التي نخرج الرصاص من أجساد الرجال، وينهضوا سالمين.

نظرت إليه، وسألته، وهي تشير إلى «سيف»: أخشى أن يؤذيه أحد من أهلي.

حرك شيخ الخفر رأسه يمنة ويسرة، وقال: سأتحفظ عليه إلى أن يأتي ضابط القسم في الصباح، وسأجعل الخفر يحرسونه، ولن يدخل عليه أحد.

صمتت برهة، وقالت: أنا سأبقى هنا حتى الصباح.

بلع ريقه، وقال: لا داعي لتعبك يا ست، الأمر لا يستحق.

ألقت نظرة على «سيف» وقالت: هذا أقل ما أقدمه له.

كان شيخ الخفر، قد أمر بأن تترك جثة العمدة مكانها، ليعاين البوليس الجريمة كما وقعت. أغلق باب السلاملك حتى لا يراها الناس على حالها هذه، وألقى فوقه ملاءة بيضاء، وهو ينظر إلى

بقعة الدم المنداحة حوله، ورأسه الخامد الملقى فيها، وقال في سره: تُخرب البيوت في ثانية.

(24)

لم يحزن على موت العمدة أحد أكثر من «قطاوي». عاد بصحبة ابنه «ليشع» إلى «الجابرية» بعد خمسة أيام من الحادثة، فلمّا عرف، جلس في السلاملك يجهش ببكاء حار، تائهًا في أسئلة يعجز ذهنه عن إجابتها من هول الصدمة. كان قد عوّل على طمع الراحل وجبروته في اتساع مشروعهما، ليصبح الأكبر في الصعيد كله.

اقترب منه «ليشع»، وهمس في أذنه: مصيبة وحلت على رؤوسنا.

كفكف دموعه، وقال: لم تكن على البال ولا الخاطر.

وسأله وهو يتلفت حوله: البكاء للنساء، أما أصحاب المال فعليهم التفكير فيما هو آت.

هز رأسه، وقال: هذا ما يبكيني.

وكان هناك خفير واقفًا بالباب، فقال له: أريد أن أرى «بهاء».

كان «قطاوي» يعرف أن «رافع» لم يهتم سوى بالهروب من قرية يحمل فيها عار أمه المجذوبة، فلم ينشغل بالمصانع ولا الأرض. والعمدة لم يشرك ابنه «بهاء» في شيء، تركه للفراغ يأكله، لا يعرف من الدنيا سوى اللهو، ولا يعرف كيف يكسب المال، إنما كيف ينفق على الملذات، وكان بعض الناس يتحدثون عن ميله إلى مواقعة الأطفال، لا سيما من أبناء الخادمات. رغم هذا فإن أمه تدلله، حتى إنها دافعت عنه حين ترك المدرسة، وقالت: المدارس لطالبي

الوظائف.

كان «رشدان» لا يقدر على مواجهتها، فترك لها الأمر، واستسلم لقولها: سيكون العمدة بعد عينك، أطال الله عمرك. لكنه لم يُعده لهذه المهمة. انشغل عنه بالمكائد والأرض، ثم بالمشروع الجديد. لم يقدم له في يوم نصيحة، ولم يعاقبه على شكوى جاءته من آباء أقرانه وأمهاتهم، وتغاضى عما سمعه عن انحراف ميوله. لم يرَ فيه سوى جسد ينمو، وعقل واقف مكانه، ووجدان عامر بالخراب. كان يعتقد أن الوقت ملكه، وستأتي الفرصة التي يجذبه فيها إلى معترك الحياة. وحين كان الطاعنون في السن يحكون له عن «زاهر»، محذرين إياه من أن يترك ابنه يسير على درب اللهو، كان يقول لهم: لست مشلولًا كما كان الوجيه.

كان «ليشع» يعرف الكثير عن «بهاء» فهو في مثل سنه، وطالما صاحبه إلى البندر، يتنعم من إغداقه عليه بلا حساب، وكان «رافع» يصاحبهما أحيانًا.

اقترب «ليشع» من أبيه، وقال له: أرى موت العمدة فرصة لا يجب تضييعها.

نظر إليه في جزع، وسأله: أي فرصة يا مجنون؟

ابتسم، ثم تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعه، وقال: الوارث لا يعرف شيئًا عن المشروع، ولن يحاسبك بالمليم كما كان يفعل أبوه.

نظر «قطاوي» إلى ابنه في غيظ، وقال: أنت تحسبها من طرف واحد. ثم تنهد في توجع، وقال: سنفقد جبروت العمدة الذي كان

يخيف الناس فيشتري منهم المحاصيل التي تحتاجها عصارة القصب والطاحونة ومصنع الجبن والقشدة، بأثمان قليلة.

لاذ «ليشع» بالصمت يفكر فيما سمعه من أبيه، فواصل الأخير: كان أيضًا يصد عنا الطامعين.

سأله «ليشع» إن كان يقدر على التدخل لتذهب العمدية إلى «بهاء»، ويقفان هما خلفه، يحركانه كما شاءوا، فابتسم وأجابه: ولد مستهتر لا يملأ عين أحد.

ضحك «ليشع» وقال: ضعفه سيكون لصالحنا. أنا أعرف عنه الكثير. ثم تزحزح، حتى التصق به، وقال: علينا استغلال تعاطف الناس مع «بهاء» لما جرى لأبيه، ونطلب له ما نريد. فغمس «قطاوي» إصبعه في فخذ ابنه، وقال: يبدو أنك لا تعرف كل ما يدور في هذه القرية الملعونة من حكايات مسكونة بالأحقاد والتربص.

(25)

يأتي القدر بما لم يكن في الحسبان، ويطيح أحيانًا بقلاع الشر. يرفع الطيبون أكف الضراعة إلى السماء طالبين منها التدخل، لكن أين من بينهم هؤلاء الذين يخلصون في الطلب فتستجاب دعوتهم. في أغلب الأوقات يُرَد الناس خائبين، بعضهم يدرك أن إخلاصه ليس كافيًا، وبعضهم يظن أن السماء قد ابتعدت رغم أنه يراها كلما رفع رأسه عاليًا.

يدب اليأس في نفوس المتواكلين، أما المتوكلون فيدركون أن الله قد منحهم القدرة على أن يبددوا القبيح بالجميل، والرديء بالحسن،

والشر بالخير، وعليهم أن يغوصوا عميقًا في أنفسهم، ليفجروا الطاقة الكامنة المهملة، يسحبونها على مهل، لتطفو على السطوح الباردة المتبلدة، وتطمر تحتها الانسحاب والاستسلام، وكلما أراد أن يطل برأسه البليد، دفعته الهمم المتوثبة إلى أسفل.

كان «ناجي» من بين الذين يرجون من السماء، ويدبون بأقدامهم على الأرض، ليشقوا مسارب لهم يمضون فيها هادئين، دون أن تفارقهم اليقظة من رؤوس الأفاعي، وأنياب الضواري، التي تندفع من الجانبين باحثة عن فريسة.

آمن بضرورة أن يعمل دومًا على ما يحرم النفوس الشريرة من القدرة على الفعل، وتنخلع أوتادها من الأرض، وتضربها العواصف بعيدًا، لتدق مكانها أوتاد جديدة، تمكن الساعين وراء العدل والحرية من الثبات في وجه الذين يمشون على الأرض متثاقلين بالغرور والبطش والاستباحة.

كان له زميل ثالث، غير هذا الذي برع في التحقيق بعد أن تعلم من الفقه فنون المحاورة والمداورة وانتزاع الحقيقة من أفواه المراوغين، ومَن يجيدون فن الكتمان. زميله هذا كان ابن حاكم المديرية، ليس في رأسه علم راسخ، لكن في لسانه قدرة عجيبة على كسب القلوب.

فاتحه في شأن العمدية، بعد أن أوصته «عبلة» بأن يسعى على دربها لأحد غير «رشدان»، لكنه عاد إليه بعد يومين، ليقول: له سند كبير في «القاهرة»، لا قبل لأبي به.

فلما مات «رشدان» عاد إليه، وفاتحه من جديد، فابتسم، وقال:

الآن يمكن لأبي أن ينفعك.

سأله عن «محبوب»، فوصف له حاله جيدًا. صمت، وقال: نسبه وصفاته ترجح كفته، لكن عليه أن يستوفي الشروط.

وكان من الشروط أن يكون صاحب أملاك، وله دار تصلح مقرًا للعمدية. فعاد «ناجي» إلى «عبلة» بما عليهما تدبيره. أنصتت إليه جيدًا، وقالت: له ورث مما تركه أبوه، ويمكننا إصلاح بيت «نبوية»، الذي عاد متهالكًا، تكاد جدرانه تنقض، لكنه متسع الأرجاء. فكر قليلًا، وقال: نهدمه ونُعيد بناءه.

أصر «محبوب» على التنازل عن جزء من حقه لأخيه «صابر» لقاء ثمن بناء البيت. وفي اليوم التالي ضُربت الفؤوس والأزاميل في الجدران القديمة، فتهاوت صريعة، ورُفعت الأنقاض على ظهور الحمير. جيء بالأحجار والبلاط وألواح الخشب، وانهمك أربعة بناءين في إقامة جدران جديدة. لم تمر سوى أربعين يومًا، حتى تهيأ المكان للعمدة الجديد.

وبينما كان البيت يُبنى، اختار «ناجي» لابن عمه أحد معلمي المدرسة، ليواصل محو أميته، بعد أن كان قد أهملها في غمرة الأحداث المتلاحقة. ضحك «محبوب» وقتها، وقال: التعليم في الكبر كالنقش في الحجر.

لكنه شجعه، وقال: لا يليق بالعمدة أن يجهل القراءة والكتابة.

وخصص «ناجي» أيام إجازته الأسبوعية لإعطاء دروس لـ «محبوب». كان يُجلسه أمامه، ويشرح له مسائل في الفقه، ويقص

على سمعه طرفًا من تاريخ مصر، وما تعلمه منفردًا من شؤون السياسة وطبائع البشر. وأظهر «محبوب» قدرة عجيبة على الاستيعاب والفهم، وشرح الله صدره للعلم، حتى قال لأخيه: أتعلم العوم، وأنتظر يوم أن أسبح في النهر وحدي. فطن إلى ما يريد، فقال له: حين تتمكن من تعلم القراءة، سأختار لك مجموعة من الكتب.

كتمت السرايا خبر السعي وراء العمدية عن أهل القرية، حتى يكتمل بناء البيت، ويأتي الأمر من أعلى بتعيين «محبوب» عمدة «الجابرية». وبينما كان «محبوب» يَجد في البحث عن عروس تناسب مقامه الجديد، كان «قطاوي» يحاول إقناع «بهاء» بقبول مكان أبيه، لكنه كان يرفض ويقول: لا أريد هذا الهم الثقيل. أنا خُلقت للبهجة، وليس للفصل في سرقة دجاجة أو عنزة أو زحزحة فلاح حد أرضه إلى أرض جاره.

وحين ضيّق الخناق عليه اشتكى لأمه، فقالت بلهجة صارمة: العمدية لم تجعل جده كبير القرية في وجود الوجيه.

وقهقه «بهاء»، ونظر طويلًا في عيني «قطاوي»، وقال: اسعَ لي في الحصول على البهوية، هذه أرفع وأجدى.

- لا بأس، طالما أنت تريد هذا، لكنها قد تكلفك الكثير.

- ما خُلق المال إلا للأبّهة والمتعة.

- نحسب أرباحك في نهاية العام، وندفع لمَن في القصر في سبيل ما تريد.

وكان «محمود» قد ذهب إلى «بهاء» بعد مرور أربعين يومًا على

وفاة «رشدان»، لعله يجد عند الابن إنصافًا، فصرخ في وجهه، وقال: ما أعرفه أنك بعت نصيبك، وانتهى الأمر.

قال له في تودد: لم أبع، وأمك و«قطاوي» يعرفان الحقيقة.

نظر إليه ساخرًا وقال: لا يريان إلا ما أرى.

ارتفع صوته، وقال له في حدة: إن لم تعطني حقي باختيارك، سآخذه رغمًا عنك.

هب «بهاء» واقفًا، وهو يشير نحو الباب ليطرده، وقال: القانون لا يحمي المغفلين.

فانصرف، وهو يقول بصوت خفيض: جار الزمان عليّ حتى سبني «بتاع العيال».

(26)

عرضت «عبلة» الزواج على ابنها «ناجي» غير مرة، فكان يتذرع بأسباب واهية. كانت تعرف أنه لا توجد في القرية مَن تناسبه، فسألته ذات ليلة: ألم تقع عينك على أي بنت في البندر؟

- شغلني النظر في الكتب.

- ألا توجد أخت زميل لك تناسبك؟

- هناك واحدة، لكنها لا تريد العيش في الريف.

دق قلبها سريعًا، فهي تخشى أن يفارقها إن صارت له في البندر زوجة وأولاد، وهي التي تعبت من الوحدة أيام هروب «جعفر»، وانشغال «عمر» بشؤون العمدية. قالت له في ثقة: لن أعدم حيلة في

إيجاد مَن تليق بك.

- أعتقد أن هذا من مسؤوليتي أنا.

- القرار النهائي سيكون لك، فاتركني ألعب دور الخاطبة مرة أخرى في حياتي.

وكانت قد وجدت لـ «محبوب» فتاة جميلة طيبة اسمها «عطيات»، هي ابنة أحد عُمد القرى المجاورة. كلّفت أولاد «أم الخير» بتقصي أخبارها، فجمعوا لها كل واردة وشاردة عنها، فذهبت ذات ليلة مع «محبوب» و«ناجي» لخطبتها، وعادت بموافقة مبدئية من أبيها.

نظر إليها «ناجي» في امتنان، وقال: تنتظرك مرة ثالثة حين يكبر «صابر».

تاهت قليلًا، وعادت تقول: هذا إن كنت لا أزال في هذه الدنيا.. كما أن «صابر» يصر على الذهاب إلى الأزهر.

وكان «ناجي» لا يتصور الحياة من دونها، فنهض وقبّل رأسها، وقال: أطال الله في عمرك.

ولم يمر على زواج «محبوب» من «عطيات» سوى شهر واحد، حتى جاء القرار بتعيينه عمدة «الجابرية»، فانتقل إلى بيته السلاحليك والخفر وبيت العدة والكرباج، واصطف الفلاحون مهنئين، راجين من الله أن يروا على يده العدل والسكينة.

(27)

لم يطق «قطاوي» لهو «بهاء» ونزقه. نصحه مرات بأن يلتفت إلى

ما يفيده، حين رآه وهو يعرض عليه سير مشروعهم غير مهتم إلا بما يجنيه من أرباح، ليخطف نصيبه منها، وينفقه بلا حساب. اختلى به ذات يوم، وقال له: مَن لم يراعِ أكل عيشه ضيعه من يده.

نظر إليه في استهانة، وقال: هل حدث مكروه؟

نظر إليه في غيظ، وقال: يبدو أنك لا تدري بما يجري.

وشرح له كيف كان أبوه يدبر احتياجات المصانع من القصب وبذور القطن والقمح والألبان بأسعار زهيدة، وكيف كان هذا يُضاعف الربح. ثم قال له: ترك أبوك فراغًا وعليك ملئه.

صرخ في وجهه سائلًا إياه: هل تريدني أن أدور على بيوت الفلاحين لأجمع لك ما تريد؟

ابتسم، كاتمًا غيظه، وقال: كان الناس هم مَن يأتون إلى أبيك.

في اليوم التالي ركب الدوكار، وجاب بنفسه على بيوت القرية والغيطان، مطالبًا الفلاحين بأن يجتمعوا في السلاملك بعد العشاء. لم تستجب إلا قلة منهم. جلسوا إليه متطلعين إلى ما يطلبه. عرض عليهم الأسعار التي حددها «قطاوي» فقال أحدهم: هذه أسعار لا تناسبنا.

وقال آخر: كفانا البيع بالخسارة سنوات طويلة.

وقال ثالث: نحرث ونزرع ونسقي ونعزق ونحصد شهورًا، وما تعرضه لا يساوي كل هذا.

صرخ فيهم: ما أمرت به سينفذ، ولن أسمح لكم ببيع عود قصب

واحد، ولا حبة قمح لغريب.

تبادلوا النظرات، ولاذوا بالصمت. تركوه يرغي ويزبد وآذانهم صماء عما يسمعون، وخرج غير «الجوابر» منهم قاصدين بيت «محبوب»، أبلغوه بما جرى، وقال أحدهم: جئنا إليك طالبين الإنصاف.

هز رأسه، وقال في ثقة: لن يضام أحد منكم، طالما أنا على قيد الحياة.

ووصل ما جرى لسمع «قطاوي»، فغافل «بهاء» وذهب قبيل المغرب إلى السلاملك الجديد. تطلع إلى العمدة صامتًا، فتركه يتعثر دقائق في الكلام المحبوس في رأسه، ثم باغته: وراء زيارتك هذه أمر، أنا أعرفه.

تزحزج في مكانه، ثم قال للعمدة في تودد: أنت لا ترضيك الخسارة.

ابتسم ساخرًا، وسأله: خسارة أم ربح أقل؟

انغرس السؤال في رأسه كشوكة حادة، وأجاب: لم يكن الربح كثيرًا أيام «رشدان»، ولولا خراب بيوت عمال المصانع لصفيتها ورحلت.

- أقرب طريق لحل المشكلات هو الصدق.

- أنا لا أكذب عليك يا عمدة.

- لا أطالبك بأن تطلعني على دفتر الحسابات، لكن أطلب منك ألا تظلم الغلابة.

وكان «قطاوي» قد دبر أمرًا في رأسه، فقال: سيكون الدفتر بين يديك إن قبلت ما سأعرضه عليك.

نظر إليه صامتًا، ثم هز يده ليشجعه على التصريح بما يريد، فتنحنح، وقال: سيكون أمرًا طيبًا أن تشارك في المشروع.

- ليس لي مال لأشاركك.

- تدخل معنا بالعُشر، وتسدد أصل رأس المال تباعًا من أرباحك.

وفطن «محبوب» إلى ما يفكر فيه «قطاوي» فقال له: ليس لدي وقت لهذا.

- أنا أملك واحدًا وخمسين في المائة، تعطيني حق الإدارة، ولن أشغلك في شيء.

جرى في رأس «محبوب» كل ما شرحه له «ناجي» عن أكل السحت، وبيع الغرر، فقال له: الحرام لا ينفع.

كان «قطاوي» قد زحزح عجيزته إلى حافة الكنبة، فتراجع في مكانه، وقال بصوت خفيض: لم نسرق أحدًا يا عمدة.

رد عليه بصوت حاد: الأثمان الزهيدة التي كان يدفعها «رشدان»، لعنة الله عليه، هي عين السرقة.

امتقع وجه «قطاوي» وقال: طالما نصحته بألا يبخس السعر، لكنه كان يؤكد لي أنهم راضون.

- رضا المقهور ليس برضا.

ووقف «محبوب» فأدرك «قطاوي» أن عليه الانصراف. لكنه لم

يقطع الأمل في أن يفكر العمدة فيما عرضه عليه، فقال: وجودك معنا، سيضبط كل شيء، ولنفتح صفحة جديدة.

ودعه «محبوب» قائلًا: يفعل الله ما يشاء.

فاتح «عبلة» فيما عرضه عليه «قطاوي»، فتهلل وجهها، وقالت: لا تضيع الفرصة. اتسعت عيناه اندهاشًا، وقال لها: حسبتك سترفضين دون نقاش يا هانم. ابتسمت، وقالت: طالما فكرت في أن ينتهي هذا المشروع في يدنا، ولم أكن أعرف كيف أنفذ إليه. وتطلع إليها ليعرف ما في رأسها، فقالت: يذكرني بهاء بأخي زاهر ومثله سيبيع نصيبه تباعًا لينفق على ملذاته، وبدلًا من أن يأخذه الغريب، فنحن أولى.

(28)

استيقظت القرية ذات صباح على جلبة عارمة. خرج الفلاحون من بيوتهم مسرعين. تزاحموا على الجسر، ومدوا أعناقهم إلى عربات تتراص فوقها عوارض خشبية متينة، وأخرى تحمل قضبانًا حديدية. أخرى محملة بالزلط والبازلت والرمل. توزع عمال بلباس أزرق، وفي أيديهم مفكات سميكة، ينصتون جيدًا إلى ثلاثة من المهندسين، أحدهم يرطن بالإنجليزية، ويتولى الاثنان ترجمة ما يقول إلى آذان السامعين.

فتحت «عبلة» النافذة، فرأت أمامها مشهدًا لم تقع عليه عيناها من قبل. سألت الخادمة، فقالت لها: وصلت السكة الحديد إلى «الجابرية».

سرت في وجهها بهجة غامرة، وقالت: ضاقت المسافة بيني وبين

«ناجي».

لم تكن تدري وقتها أن المسافة ستكون صفرًا، بفعل الأشرار الموجودين في كل مكان وزمان ومهنة، لا يشغلهم أولئك الذين يدوسون عليهم في سعيهم إلى ما يحقق منافعهم.

(29)

كان «ناجي» يسير على الدرب الذي قطعه قبله جداه «محفوظ» و«محمد». أزهري مختلف، تآلف في نفسه الطموح والرغبة في التميز مع ميل إلى المشاكسة ورثه عن السابقين. طالما شكا إلى أمه مما يواجهه في عمله، فكانت توصيه دومًا بأن يفعل ما يقتنع به، دون تردد ولا خوف، وتقول: أبوك ترك كل شيء، وسار خلف نداء بعيد.

كان فخورًا بأبيه، حكى عنه كثيرًا لزملائه في الأزهر، وواصل الحكايات خلال عمله بالقضاء الشرعي، واختمرت الحكاية في رأسه إلى درجة أنه فكر في أن يكتبها، ويخلط فيها تصوره عن الجهاد في سبيل الوطن والحرية، ومقاومة الظلم الذي يُثقل كاهل الناس. وجعله تأثره بما حاق بأبيه من ظلم يتحرى الدقة في كل أحكامه، غير ناظر إلى شيء غير الدلائل والقرائن الدامغة التي تقدمها كل حادثة أو واقعة في حد ذاتها، ثم يبحث في الشرع عما يصلح لإصدار قراره، فيقضي فيها بما استقر في يقينه، ولا يشغله مَن يكون أمامه من أصحاب المخالفات والجُنح والجرائم، كبيرًا كان أم صغيرًا، غنيًا أو فقيرًا، صاحب عزوة أو مقطوعًا من شجرة.

كان زملاؤه ينصحونه كثيرًا بألا يهمل مقامات الناس، فكان يقول لهم: المقام الأسمى عندي هو البراءة. جلب له هذا متاعب جمة،

لكنه واجهها بعزم وصبر لا يلين. أدرك رؤساؤه هذا فكانوا يُبعدونه عن نظر قضايا يريدون لها أن تمضي في غير طريق العدالة؛ لأن أصحابها ذوي سلطان وجاه. ومع الأيام أدرك «ناجي» أنه مستبعد، لتمرده على أن يكون مجرد موظف يستوفي أوراق المتنازعين.

استدعاه ذات يوم رئيسه في العمل، وقال له: طالني أذى كثير من ورائك.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: أي أذى يطال مَن يقضي بالعدل؟

نفخ متضجرًا، وأجابه: أذى كبار لا قبل لنا بهم.

ابتسم «ناجي» وقال في ثبات: لا يستطيع أي من هؤلاء أن يجلب لنا نفعًا ولا ضُرًا يوم المحشر العظيم.

قلّب الرجل أوراقًا أمامه في سرعة، ليغلب الضيق الشديد الذي سرى في أوصاله، وقال: في الشرع اتساع لمَن أراد ألا يثير المشكلات.

فطِن «ناجي» إلى ما يقصده، فقال له: في حقوق الله مسامحة، وفي حقوق العباد مشاححة.

رفع وجهه إليه غاضبًا، وقال: لا يُضيّع الناس إلا الانسياق وراء العبارات المسجوعة الفارغة.

قابل «ناجي» الغضب بغضب أشد، واحتد صوته: قواعد الفقه ليست كلامًا فارغًا.

رماه بنظرة ساخرة، وقال: كأننا لم ندرس الفقه أيام كنت صغيرًا

تبول في سروالك.

ضايقه ما سمع، فضرب حافة المكتب بقبضة يده، وقال: الويل لمَن يعرف ولا يعمل بما عرف.

نهض الرجل من فرط الحنق، وقال له: سأحيلك إلى التحقيق لتعرف كيف تخاطب رؤساءك.

منذ ذلك اليوم تعكر صفو العلاقة بينهما، وسكنتها الإحن والمكائد، فراح الرجل يعد سرًّا التقرير تلو أخيه ليثبت أن «ناجي» لا يصلح لمهمة القضاء الشرعي، ويطلب ممن هم أعلى منه أن ينقلوه إلى وظيفة أخرى.

انتهز فرصة قضية منظورة أمام «ناجي» كان طرفها أحد أبناء البشاوات، أقامت زوجته التي تنتمي إلى أسرة فقيرة دعوى ضده. كانت القضية قد حلّت أمام رئيس «ناجي» في العمل، وحين أعمل فيها الشرع والعرف والعقل، وجد أن الحكم فيها سيصدر ضد ابن الباشا. ورغم أن قضايا الكبار كانت تُبعد عن «ناجي» أحال الرجل هذه القضية إليه، وعوّل عليها أن تقصم ظهره، بعد أن عرف من مطالعة أوراقها أن الحكم سيصدر لصالح الزوجة.

زار الرجل الباشا في قصره، وقال له: يؤسفني أن أبلغكم أن القاضي الذي ينظر في اتهام ابنك متحجر، لا يريد إلا أن يدينه.

ابتسم الباشا، وقال: بوسعك أن تسندها إلى قاضٍ آخر.

بلع ريقه، وقال: سيكون هذا صعبًا، وأخشى إن فعلت، أن يُرفع الأمر إلى مَن هم أعلى مني.

- وما الحل إذن؟

- أنا طالبت بنقله إلى وظيفة أخرى، لكن لم يستجب لي حتى الآن.

- أخبرني أين استقر طلبك، واترك الأمر لي.

وفوجئ «ناجي» بصدور قرار بنقله إلى نظارة المعارف. استشاط غضبًا حتى كاد يمزق الورقة التي سلمها إياه الساعي. لكنه لم يلبث أن تمالك زمام نفسه، وقال لها: رُب ضارة نافعة. خرج، يلملم غضبه، إلى مديرية المعارف. كان حنقه يتساقط تحت قدميه وهو يخطو شاردًا فيما جرى، وما ينتظره في قابل الأيام. سكنت رأسه الآية القرآنية التي تقول: «وأنذر عشيرتك الأقربين»، فلمّا بلغ مكتب المدير العام قال له: أريد أن يكون النقل إلى مدرسة «الجابرية».

أصدر المدير قرارًا بما طلب «ناجي» ليمسي مدرسًا للغة العربية والتربية الدينية، وقال له وهو يسلمه القرار: مكان ناظر المدرسة سيشغر بعد شهور، فإن أخلصت في عملك فهذا مكانك.

(30)

استقبلت «عبلة» ما جرى لابنها بفرحة غامرة، وقالت له: رأيتك وأنت تستذكر دروس «صابر» وتُعلم «محبوب» كيف يصبح صاحب رأي سديد، فوجدتك لم تخلق لشيء في هذه الحياة أكثر من تربية الناس وتعليمهم.

ولم تكن تضنيه المهمة الجديدة التي ساقوه إليها، إنما الظلم الذي وقع عليه، فقال لها: يحزنني أن طريقي هذا لم يكن من اختياري.

ابتسمت، وربتت كتفه، وقالت: إن جاءك الغصب فاجعله جودة.

وسألته عما إذا كان قد رأى شيئًا جديدًا في طريقه إلى السرايا، فقال: رأيت عمال السكة الحديدية، لكن لم أشأ أن أحدثهم وأنا على حالتي هذه من الغضب والذهول.

(31)

لم يمضِ سوى أسبوع واحد على دخول «محبوب» شريكًا في المشروع الجديد، حتى توعك «قطاوي». خارت قواه، فأوصاه الطبيب بملازمة السرير في راحة طويلة، لكن قلقه على ماله جعله يغادر مخدعه دون أن يتعافى جسده، ووصل «الجابرية» لا تكاد تحمله ساقاه. كان يسعل، ويضع يده على صدره بين الفينة والأخرى، وتخرج الكلمات من فمه متقطعة، لكنها بينت ما يريده.

نظر إلى «محبوب»، وقال: جئت لأخبرك بإسناد الإدارة إلى ابني حتى أتعافى. أخرج العبارة، ثم اهتز جسده بعنف بعد أن اجتاحته نوبة سعال مجنونة، فنهض «محبوب»، ورفع دورق المياه الذي كان يحط على صينية إلى جوار أكواب الينسون، ومده إليه، فراح يسحب جرعات متلاحقة، والماء يسيل على صدره، ثم هدأت أنفاسه، ونظر إلى العمدة، وقال: اعذرني يا عمدة، النوبة هذه المرة شديدة.

نظر إليه بإشفاق، وقال: لم يكن هناك داعٍ لتتعب نفسك. ورآه يغتصب ابتسامة من قلب أوجاعه، فقال له: لو أنني أعلم ما أنت فيه لجئت أنا إليك. فتح حقيبة جلدية كالحة، وأخرج منها دفترًا، ونهض ليجلس إلى جوار «محبوب»، وقال: أطلعك على الحسابات، لتعرف إلى أين وصلنا.

وكان «قطاوي» قد أرسل مَن يخبر ابنه أن يلحق به إلى بيت العمدة، فجاء وأبوه يغرس إصبعه في الدفتر، ويقول: هذه هي النفقات حتى نهاية الشهر الفائت. ثم نظر إلى «ليشع» ومد إليه الدفتر، وقال: واصل أنت عرض الحسابات على العمدة، وأخبره بما تحتاجه في الأيام القادمة.

هز العمدة رأسه، وسأل: أين شريكنا الثالث؟ أليس من الواجب أن يطلع على الدفتر أيضًا؟

رفت ابتسامة ساخرة على شفتي «قطاوي»، بينما طوح «ليشع» يده في الهواء، وقال: ينام مخمورًا في بيته.

نظر «قطاوي» إلى العمدة، وقال: تعبت من نصحه، لكن لا يسمع إلا صوت شيطانه، ويزيد في الشراب حتى يفقد الوعي.

كانا يعتقدان أن هذا الكلام سيُرضي «محبوب»، لكنهما فوجئا به يقول: مهما كان، فطالما أنه لا يزال شريكًا لنا فمن حقه أن يعرف كل شيء. وأغلق الدفتر، ورمى بصره إلى «قطاوي»، وقال: عليك أن تستريح، والبركة في ابنك، فهو ورث عنك الدقة والانتباه، فليأتِ في وقت آخر ومعه «بهاء»، لنراجع كل شيء، ونعرف ما تحتاجه المصانع وندبره.

لكن «بهاء» رفض أن يذهب إلى السلاملك الجديد، وقال: «محبوب» له العُشر فقط، وهو مَن عليه أن يأتي إلينا. رماه «ليشع» بنظرة ملؤها الغيظ، وقال: كفاك طيشًا، أبي أدخله شريكًا حتى لا تتسرب محاصيل الفلاحين من بين أيدينا، وتكون هذه المصانع

مجرد قطع من حديد لا قيمة لها. فضرب ركبته بيده، ورد: أنا قادر على هذا، ولم نكن في حاجة إليه. رفّت ابتسامة ساخرة على شفتي «ليشع»، وسأله: ألم تطرق البيوت طالبًا من الناس أن يأتوا، فلم تستجب سوى قلة؟ وحتى مَن استجابوا خرجوا ليشكوك للعمدة، ولولا أبي أدخله معنا، ما كان للمشكلة أن تُحل، بأقل الخسائر. فبصق، ونطق: سأؤدب هؤلاء الملاعين بعد البهوية.

تطلع إليه «ليشع» في استغراب، وقال: يبدو أنك تعتقد أن البهوية ستطلق يدك. إنها شيء شرفي إن فقدت شرفك قد تفقده. ولم يجد «ليشع» طريقة ليجعل «بهاء» يصحبه إلى بيت «محبوب» سوى أن قال له: لنجارِ «محبوب» حتى تحصل على البهوية، وبعدها لها ألف حل.

وافق على مضض، وقال: أيام أثقل من الجبال.

(32)

كان على «ناجي» أن يذهب إلى المدرسة ليسلم قرار نقله إلى الناظر. لكن «عبلة» استمهلته، وقالت: يمكن لهذا أن ينتظر إلى الغد، أما ما أريدك أن تراه الآن عن قرب فهي السكة الحديد.

ابتسم في فتور، وقال: رأيتها، لكن من بعيد.

- يبدو أنك قد نسيت ما كان يسعى وراءه المرحوم «عمر».

- أنستني هموم كثيرة.

- كان «عمر» يريد أن يوضع اسم القرية القديم على محطتها التي اقترب إنشاؤها.

- كيف أنسى أمرًا كهذا؟

- ألم يكن وجودك في القضاء يساعدنا أكثر على تحقيق هذا؟

- لم أترك القضاء إلا قبل يومين، وزميلي الذي ساعدنا على تنصيب «محبوب» عمدة لا يزال موجودًا.

تنهدت في حرقة، وقالت: أخشى أن يشتد الخلاف حول هذا الأمر، تُطلق فيه شتائم، وتُرفع شوم وسكاكين وبنادق.

انتبه إلى شيء آخر، وقال: ربما. ثم انتبه إلى شيء ثالث، وقال لها: عجيب أمرك، ألستِ من «الجوابر»؟

ابتسمت وقالت: بيني وبينهم حجاب لم يتبدد أبدًا، كما أن لي ولدين من الصوابر، أنجبتهما من رجلين منهم، واحد عشقته، والثاني عشقني، وبينما تنكر لي أهلي، مدا لي يد العون، وعملا ما في وسعهما لإرضائي.

- تسبقين زمانك يا أمي.

صمتت برهة، وسألته: ماذا عساك أن تفعل لو وقع بينك وبينهم شجار، وأنت ليس حولك رجال كُثر؟

ـ كنت قد أوصيت عمي بشيء، لكن القدر سبقنا، وعليّ أن أبدأه الآن قبل الغد.

- أتذكر هذا، لكن ماذا تنوي بالضبط؟

- عائلتنا كبيرة كما تعرفين، لكنها تفرقت في البلاد.

- طالما سمعت هذا من أبيك وعمك.

- اكتفيا بالكلام، واجترار الأحزان على ما فات. أما أنا فلن أتكلم فقط.

- أتريد أن تبحث عن إبرة في كومة قش.

- كل الإبر ستأتيني دون أن أغادر مكاني إلا لرحلة واحدة.

- أي رحلة؟

أجابها، وهو ينظر إلى قطعة من السماء أطلت من النافذة: من «القاهرة» تكون البداية.

وشرح لها ما كان قد طرحه على عمه، فاستملحت الفكرة، وقالت: لكل جيل ما لا يخطر أحيانًا على بال العجائز.

(33)

تسلم «ناجي» عمله في المدرسة، وطلب من الناظر أسبوعًا إجازة، هو في حاجة ماسة إليه. خرج من عنده إلى عمال السكة الحديد. سأل أحد المهندسين عن الوقت الذي سيستغرقونه حتى تُنشأ محطة قريتهم، فأجابه: ليس أقل من شهر.

عاد إلى السرايا، وقال لأمه: لا بد من مناسبة أدعو أهلي إليها.

- تزاور الأهل لا يحتاج إلى سبب.

- يحتاج، إن كانت الفُرقة قد طالت.

- لن نجد مناسبة أفضل من زواجك.

- هذه ورطة وليست حلًا.

اقتربت منه، وقالت: وجدت لك العروس المناسبة.

تطلع إليها مندهشًا، فقالت: ابنة الناظر.

- متى قابلتيها؟ وأين؟

- رأيتها في مكتبه، حين استدعاني لأمر يخص أخاك.

لم ينطق، فواصلت: بنت جميلة، اسمها «نوارة»، تجيد القراءة والكتابة، وأبوها رجل علم وخلوق، رقيق الحال لكنه عفيف النفس. هي وحيدته، ولها أخ، اسمه «طاهر» يدرس في الأزهر منذ سنوات.

واصل صمته، فقالت: نذهب الآن، ونفاتح أباها، وتراها قبل ذهابك إلى «القاهرة».

وما إن رأى «ناجي» العروس حتى انخطف قلبه، ومال على أمه هامسًا: ما أعظمك خاطبة!

ابتسمت، وقالت: صبرت ونلت يا بن بطني.

ابتهج الناظر لهذا النسب، وكذلك ابنته، التي ما إن اختلت بـ «ناجي» في بيت أبيها ساعة من الزمن، حتى راق لها حسن حديثه وهيأته، وشعرت بأنه الرجل الذي كانت تحلم به. حسب ومال وعلم.

قالت «عبلة»: خير البر عاجله.

قال الناظر: لا أحتاج إلى السؤال عنكم، لكن أريد بعض الوقت لأدبر حالي.

- أنت تأمر، وعلينا التنفيذ.

صمت الرجل متحيرًا، فقالت له: نحن جاهزون، وابنتك ابنتنا.

غادر «ناجي» إلى «القاهرة» كما لم يغادر من قبل. كان قلبه يرفرف فرحًا، وتسكن أذنيه ألحان عجيبة، تقع بين الترتيل والحداء والأهازيج. كان وجه «نوارة» ينطرح أمامه على صفحة الماء، حتى وصل إلى «أسيوط»، ومنها ركب القطار إلى «القاهرة»، فظل الوجه يطارده حين يراه مفروشًا أمامه على بساط الزرع، وفوق هامات النخل، وأغصان الشجر. يغيب، فيعصر رأسه ليأتيه، فتكتمل أمامه الملامح على مهل، فيقول لنفسه: حين تجود الحياة على المرء تهبه الجمال والسكينة.

كان قد صاغ الإعلان على مهل، قرأه مرات حتى حفظه، ثم نظر إلى الورقة طويلًا، قبل أن يدسها في جيبه، وقال: قد تجمع الحروف أشتات التائهين في البلاد، وبين العباد.

وكلّما توقف القطار عند قرية، تطلع «ناجي» إلى اسمها المكتوب على لافتة تتوسط المحطة، ونظر إلى البيوت الخفيضة، وقال لنفسه: ما أدراني لعل واحدًا من أهلي يسكن هنا.

وصل إلى المحطة الأخيرة والليل على الأبواب. توجه على الفور إلى لوكاندة قريبة منها، وحجز مبيتًا لليلة واحدة. في الصباح قطع الشارع إلى جريدة «الأهرام»، فدفع أجر الإعلان، ثم ذهب إلى جريدة «المقطم». أخذ منه الموظف الورقة، وقرأها على مهل، وقال له: منذ متى لم تجتمع بأهلك؟

- لم أرهم أبدًا، افترقوا عنا منذ زمن بعيد.

- سأنشر إعلانك، لكني أنصحك بطريقة أقرب.

- إليّ بها، ربنا يكرمك.

- أتعرف دار المحفوظات.

- أنا حاصل على العالمية من الأزهر، وذهبت إليها مرات.

- هناك ستجد مَن يساعدك على الوصول إلى ما تريد.

تطلع إليه الموظف بدار المحفوظات، ثم ألقى نظره على الأرفف والخزانات المحشوة بأوراق يكسوها التراب، وقال: لدينا سجل بالعائلات، لكن البحث فيه يستغرق وقتًا.

لف العمامة التي تحط على رأسه، يظهر منها الطربوش الأحمر الزاهي، وقال: اعتبرها مهمة خاصة.

ابتسم الموظف، وسأله: من أي البلاد هم؟

- ابدأ من «قنا» وحتى «المنيا».

زام الموظف، وهو يقول: أربع مديريات، إنه أمر شاق.

قال له «ناجي» متودّدًا: سأساعدك، ولك الحلوان.

خلع الموظف طربوشه الأحمر، ونهض إلى الخزانات، وفتح واحدة منها، وأخرج ملفات مكدسة بالأوراق، التي أبلاها الزمن، وقال: علينا التحلي بالصبر حتى نعثر على «الصوابر».

ضحك «ناجي» وقال: يتفرق الناس في البلاد لأسباب شتى، لكن

من الأصول أن يعرف المرء أهله.

سحب الموظف ورقة بيضاء وقلمًا. مدهما إلى «ناجي»، وقال: كلما وجدنا أحدهم، سجل اسمه وعنوانه.

اضطر «ناجي» إلى تمديد بقائه في «القاهرة». يستيقظ صباحًا ويقطع الشوارع مسرعًا إلى دار المحفوظات، فيجد الموظف في انتظاره، فيكملا البحث عن الضائعين في البلاد. في اليوم الرابع امتلأت ورقتان كاملتان بالأسماء والعناوين. راح يقرأها، وعلى وجهه فرحة غامرة. ثم دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا من الذهب، وقال للموظف: هذا حلوانك.

- لم أفعل سوى ما تطلبه وظيفتي.

- ليست رشوة على أي حال، إنما حلوان اهتدائي إلى أهلي.

مد الموظف يده وأخذ منه الأوراق، ونظر فيها مليًا، ثم قال: يمكنك اختصار الطريق.

تطلع إليه وفي عينيه سؤال، فأجابه: أرسل إليهم خطابات على عناوينهم، فربما هم أيضًا يبحثون عنك، ولا يعرفون كيف يصلون إليك.

قال، وهو يهز رأسه مستملحًا الاقتراح: أخطرتهم بإعلانين في «الأهرام» و«المقطم».

مط الموظف شفتيه، وقال: لا تضمن أن يكون من بينهم مَن يواظب على قراءة الصحف.

قضى «ناجي» ليلته في اللوكاندة يكتب الخطابات إليهم. كان خطابًا واحدًا، ينسخه، ويدسه في ظرف، ويكتب عليه العنوان. في الصباح سلّم الأظرف إلى مكتب بريد العتبة، وخرج يقول لنفسه: زرعت وعليّ انتظار الحصاد.

في طريقه إلى المحطة جلس على مقهى ليستريح. لفت انتباهه أن الناس يحتسون مشروبًا أحمر داكنًا من كوب زجاجي صغير. أشار إلى النادل فأتاه مسرعًا، همس في أذنه سائلًا، وهو يشير إلى كوب موضوع على طاولة أمام زبون ينظر إلى الشارع في هدوء: أي مشروب هذا؟ ابتسم النادل وقال: شاي. ظهر تعجب على وجه «ناجي»، وقبل أن يسأل، واصل النادل: مشروب جاء به الإنجليز من بلاد الهند.

شرب الشاي فاستملحه، فلما انتهى الكوب طلب غيره، ثم سأل النادل: من أي مكان أشتريه؟ فدله على محل بقالة في وجه المقهى، فقام على الفور، واشترى بعضه، وهو يقول لنفسه: سيروق لـ «عبلة» إلى جانب «القهوة»، التي تفضلها.

كان قد دعا أهله لحضور زفافه. وحين عاد إلى «الجابرية» وجد ثلاثة رجال في انتظاره. كانوا أخوة يقطنون بندر «جرجا». أحدهم موظف في مديرية الري، والثاني مدرس رياضيات، والثالث موظف بنظارة الحقانية. احتضنوه تباعًا، وهم يحبسون الدموع.

قال المدرس: نعتذر أننا لم ننتظر الموعد الذي حددته في «الأهرام»، ورأينا أن من واجبنا أن نأتي مبكرًا، لعلك بحاجة إلينا في ترتيب عُرسك.

ردت «عبلة» في امتنان: هذا بيتكم، مفتوح لكم في أي وقت.

وحدثه المدرس عن أنهم تواصلوا مع أهلهم في إحدى قرى «المنيا»، كان قد تعرف عليهم من ابنهم الذي زامله أيام الجهادية.

قال موظف الحقانية: صغيرة الدنيا على اتساعها.

ابتسم «ناجي»، وأشار إليهم ليتبعوه إلى سطح السرايا. كان الواقف فوقه يرى بيوت القرية كلها. رفع يده وحركها يمينًا ويسارًا، وقال: هنا عاش أجدادنا قبل أن يتفرق شملهم.

ورمى بصره نحو الجبّانة، وقال: قبورهم هناك، تنتظر عودة الغائبين.

قال موظف الري: يجب أن نزورها لنقرأ الفاتحة على أرواحهم الطاهرة.

مدّ «ناجي» إصبعه إلى الزرع، وقال: لنا أرض، كانت وسيعة، لكن ما بقي منها ليس بالقليل.

وانجلى أمامهم شريط السكة الحديدية، حيث يميل العمال على العوارض يثبتونها، فقال «ناجي»: لم يبقَ إلا وقت قليل، وتضيق بيننا المسافات.

تبادلوا الحديث مقلبين أوراق العائلة، فأيقن «ناجي» أنهم على انشغالهم بأهلهم، ليسوا مسكونين بالوعد مثله، فهو من بيتهم الكبير، أما هم فقد تساقطت الحكايات من رؤوسهم. ضاعت في مشاغل الحياة التي لا تتوقف هجماتها الضارية. بعضهم أوقف نسبه إلى جد آخر، كان يتوقف عنده في السجلات الرسمية، وفيما يرد على

خاطره إن تذكر الراحلين، في ساعات الراحة والسمر، أو في الملمات الصعبة، التي تدفعه إلي أن يستمد عزمًا، كمُن في جيناته، أو رأى الآباء والأجداد الأقربين يظهرونه، دون كلل ولا ملل.

وكما كان «الصوابر» متفرعين في مسقط رأسهم، موزعين بين ثراء أصحاب الالتزام، ومتوسطي الحال من أصحاب الأملاك التي لا تقارن بما لدى أهل البيت الكبير، والفقراء الذين يتعشمون في أثريائهم أن يمدوا لهم يد العون والحماية، ظل كثير منهم على هذه الحال في مختلف البلاد.

لم يكن «ناجي» تشغله أموالهم، ولا مناصب الذين ارتقوا منهم في مدارج العيش بتملك الأرض أو الحصول على وظائف، لكنه كان مهتمًا بعددهم، بالعزوة التي تسد عيون الناظرين. فالرجل رجل، مهما كانت حيازته أو مكانته، طالما حرص على أن يعرق، ويكسب قوته بشرف وإخلاص.

(34)

الرجولة لا تهب فجأة كالعاصفة، إنما تنمو على مهل، كما ينبت الزرع ويشمخ في وجه النسيم. كما يمضي الأطفال من الحبو إلى الدبيب على الأرض. تُستقطر كما يمتص النحل رحيق الزهر، وتُستجمع كشذرات الذهب الضائعة في الصخور.

ولأنها كذلك، فلا يطلب الحكيم من شخص لم يكتسب الرجولة من الصغر سواء بتجربة قد عركته، أو بنطفة سرت في خلاياه كهدية ثمينة من الأسلاف، أن يغضب كرجل حين يكبر، حتى لو كان يجلس فوق رؤوس كل الناس.

هذا ما كان يؤمن به «ناجي»، علّمته إياه تجربته المتنوعة، بما منحته في عيون الناس عمرًا فوق عمره، وعرفه مما كانت تحكيه أمه عن أبيه، ومن الفراسة التي حلت في نفسه دون إرادة منه، ثم عززها بما قرأه عنها، حتى صار قادرًا وقت عمله بالقضاء على تبين الحقيقة من الوهلة الأولى.

استبشر خيرًا بطلائع «الصوابر»، الذين سبقوه إلى القرية، وبينما كان يودعهم عند المرسى وهو يأمل أن تنهمر عليه ردود مَن وصلتهم خطاباته، كان خمسة منهم قد وصلوا إلى السرايا بالفعل. كانوا فلاحين يسكنون نجعًا شرق النيل، ليس بالبعيد. أحدهم يمتلك قراريط قليلة، والأربعة يعملون أجراء في أرض الناس.

جلسوا يتطلعون إلى جدران البهو وأثاثه، تغمرهم فرحة بأن الزمن قد جاد عليهم بأهل مقتدرين. وقد أحسنت «عبلة» استقبالهم، وأمرت الخادمات أن يجهزن لهم طعامًا دسمًا، شاركهم فيه «ناجي» بشهية مفتوحة، وهو يرمي بصره من النافذة إلى الجسر، آملًا أن يرى آخرين من أهله يهلون من بعيد. لكن ظهر غريب على «حمار» يرتدي زيًا يختلف عما ألفه أهل القرية. حين اقترب، تهلل «ناجي»، وقال لنفسه: إنه ساعي البريد.

سلمه عشرة خطابات، شجلت على أظرفها عناوين مختلفة، موزعة بين المديريات الأربع، وبينها ثلاثة خطابات جاءت من «القاهرة». فض «ناجي» الأظرف على الفور، وقال لأهله الذين كانوا يلتهمون الطعام دون تمهل: الخير على قدوم الواردين.

لم يخل أي يوم لاحق من خطابات أو زيارة. يأتي فرد واحد أو

جماعة، و«ناجي» يحصيهم كأنه يحسب أشولة الغلال في الشونة، أو عدد الفدادين التي يملكها. كان مشغولًا بالعدد، يضاهيه بعدد رجال «الجوابر» في القرية، ويقول: لا بد أن أغلبهم عددًا.

تسمعه أمه فتضحك، وتقول: في أهلك رجال الواحد منهم بمائة.

لم يكن يدبر لمعركة، ترفع فيها العصي والفؤوس والخناجر أو يُطلق الرصاص من فوهات البنادق، إنما كان يبحث عن الردع. فمَن ذا الذي بوسعه أن يجرؤ على منازلة مَن يفوقونه عددًا. وحين تراه أمه مهمومًا بالعدد، يضحك ويقول لها: أريد أن يملأوا القرية يوم الغرس.

كان يحرص كلما جاءه أحد، أن يصطحبه إلى سلاملك العمدة، ليعرف أن أهله ليسوا فقط أصحاب مال، إنما لهم اليد الطولى في القرية. يأخذهم إلى الزرع، ويرفع سبابته ويشير إلى اتساعها، ويقول: كل هذا لنا. ويأخذهم إلى الجبّانة، يطوف بهم على قبور الراحلين، ويحكي عن كل أحد منهم باستفاضة، ويحرص أن يسبقه بالنظر في عيون سامعيه، ويقول: جدكم فلان، ليربط قلوبهم بالقرية، بعد أن يعرف كل منهم أن جذوره العميقة مستقرة في أرضها.

(35)

اشتعلت النار في نفس «بهاء»، وقال لأمه: هذا الأزهري الماكر يدبر لنا أمرًا.

هدأت من خواطره المضطربة، وقالت: دعوة أهله إلى عرسه القريب، ليست فيها ما يخيفك.

نظر إليها في غيظ، وسألها: منذ متى كان أي منهم ينشغل بجمع المتفرقين في البلاد؟

- هم غرباء، يؤدون واجبهم، وينصرفون.

نظر إليها في استهانة، فقالت له في حدة: زوجناك ليستقيم أمرك، فلم تتبدل حالك. ولما أنجبت قلت ستتغير حياتك، لكنك تصر على أن تمضي في طريق خاسرة.

عاد يقول لها، دون أن يلقي بالًا لكلامها: أتمنى أن يُخيِّب الله ظنوني، ويرحل جميع اللموم.

لكن «ناجي» كان قد تحدث مع الأجراء الأربعة عن بقائهم في القرية، ليكدحوا في أرضه أفضل من أراضي الغريب. وقالوا له إن لهم بيوتًا وعيالًا، فيسر لهم الأمر، قائلًا: على يسار المقبرة هناك أرض فارغة نملكها، يمكن أن تبنوا فيها بيوتًا جديدة.

تبادلوا النظرات في حيرة، ففطن إلى ما يشغل أذهانهم، فقال: يبيع كل منكم بيته، ويأتي ليبني هنا، والأرض هدية مني إليكم. وسألهم إن كان أبناؤهم قد التحقوا بالمدارس، فقالوا: لا توجد مدرسة في قريتنا، إنما كُتّاب لم ينتظم أولادنا فيه. فزاد في إغرائهم، وقال: هنا مدرسة نلحق أولادكم بها، ولا تشغلوا بالكم بما يحتاجونه من مصروفات.

قبل العُرس بيوم واحد امتلأت القرية بالقادمين. رست بهم المراكب، وانتظرتهم الأحصنة والحمير، ومنهم مَن ركب الدوكار. ورآهم أهل «الجابرية» وهم يتجاورون في حديقة السرايا، يحتسون

الشاي في تلذذ، ثم يتقاطرون جماعات إلى المسجد في وقت الصلاة، فتساءلوا: أين كان كل هؤلاء ضائعين؟

بعد صلاة العشاء أجلسهم «ناجي» في الحديقة، ووقف فيهم خاطبًا. تحدث عن الجدود الغابرين، والحكايات التي سكنت النفوس والرؤوس، والوصايا التي حملت وعدًا، عليهم أن يعرفوه جيدًا، ويعملوا له مخلصين. تطلع بعضهم إلى بعض صامتين، ووقف أحدهم، وقال: سمعت شيئًا عن هذا من أبي، قاله مرة واحدة، ولم يكرره.

وقال آخر: أنا لم أسمع به من قبل.

وسأل ثالث: أخبرنا بما علينا فعله، ولن نخذلك.

تعالت الهمهمات بين الجالسين. وكل منهم ينبش في رأسه لعله يهتدي إلى أي شيء يعرفه. وأدرك «ناجي» ما هم فيه من حيرة، فقال، وهو يعدل العمامة فوق رأسه: إياكم أن تعتقدوا أنني جمعتكم لأذى، إنما هي صلة الرحم، التي يعرف رجل مثلي قدرها.

وقف موظف الحقانية، وقال: ما بدأناه يجب ألا ينقطع، لكن لكل منا ظروفه.

رفع «ناجي» يده إلى اتجاه شريط السكة الحديدية، وقال: هذه القرية كانت تحمل اسم جدكم الأكبر، وبعد أيام ستقام على رأسها محطة قطار، ولا يجب أن يُكتب عليها إلا الاسم الذي نرضاه جميعًا.

رد موظف الحقانية: هذه تحتاج إلى موافقة الحكومة.

ابتسم «ناجي»، وقال: هذا أمر مفروغ منه، لكن بعض أوامر

الحكومة وقراراتها تراعي ما يطلبه الناس.

سأله موظف الري، وكان يعرف جيدًا كيف يتنازع الفلاحون على مناوبات الري في أيام الماء الشحيح: هل يوجد مَن يعترض؟

هز «ناجي» رأسه، وقال: هنا مربط الفرس. ثم تنحنح، مستعدًا للمكاشفة، وقال: سُميت القرية باسم عائلة جاءتها في الزمن البعيد، فلما راح أجدادكم من هنا غيّروا الاسم، ولن يقبلوا بسهولة عودته إلى أصله.

رد موظف الحقانية: حين يأتي الأمر من أعلى سيمتثلون له. فملأ «ناجي» عينيه من الجالسين، وقال: وربما لا يرضون، فإن وجدوا عزوتنا أمامهم صدتهم عن المنازعة.

أدرك الرجال أن السبب الحقيقي لجمعهم ليس عرسًا، ولا صلة رحم، إنما بحث عن عزوة. عادوا يتبادلون النظرات، فقال «ناجي»: تفرق آبائي وأجدادي في البلاد، لكن أيًّا منهم لم ينسَ الوعد، وورثوه لنا قبل المال، وعليكم أن تمتنوا لحرصنا على اسم العائلة. فتطلعوا إليه صامتين، فواصل: ما أخبرتكم به ليس أمرًا، إنما هو رجاء.

قال مدرس الرياضيات: لا تحمل همًّا، وكل ما علينا أن نتصرف بحكمة.

رد «ناجي»: قدمت طلبًا بما أريد إلى مدير المديرية، وابنه، وكان زميلًا لي في القضاء الشرعي، وعدني خيرًا.

سأل موظف الحقانية: متى يشرعون في إنشاء المحطة؟

أجابه «ناجي» وكان قد عرف الموعد بدقة من أحد المهندسين:

بعد أسبوع واحد. فقال أحد الفلاحين: يبقى بعضنا هنا، ومَن لا يقدر، يذهب عقب العرس، ويعود بعد أيام.

اتفقوا على هذا الرأي. طلب «ناجي» من «محبوب» أن يجمع في السلاملك النصارى واليهود، ومَن تبقوا من آل بخيت، وشيخ الجامع، والفلاحين الغرباء الذين أتوا قبل سنين واستوطنوا القرية، وهم ينتمون إلى أسر فقيرة، وبعضهم لا ظهر له، وطلب منه أن يستميلهم إلى جانبه.

في يوم العُرس جاء كل أهل القرية، ومنهم بعض «الجوابر»، حيث حرص «ناجي» على دعوتهم، فلبى بعضهم. هناك مَن امتنع وعلى رأسهم «بهاء». مدت أسمطة الطعام في الحديقة وأمامها في فراغ وسع كثيرين، وتقاطرت على الطريق المؤدي إلى السرايا.

أكل الناس حتى امتلأت بطونهم، وشربوا الشاي، الذي عرفوه هنا. وبعد أن اختلى العريس بعروسه في غرفة ناعمة، نُصب التخت للقوّالين، فأنشدوا الأشعار على عزف الرباب. حرص القوّال على أن يتلو على مسامعهم سيرة «الصوابر» التي انداحت في القرى وسكنت المواويل والأغنيات. أُقيمت في اليوم التالي حضرة ذِكر. فُرشت لها الحُصر في منتصف الحديقة، وجاء إليها شيخ الطريقة البيومية، ومعه منشدوه، وحامل الدف، ونافخ الأرغول، فانطلقت المدائح طرية، تسري في شوارع القرية، حتى وصلت إلى الزاوية.

اهتزت «هنيّة» في جلستها. وضعت الوِرد إلى جانبها، وانشرح صدرها للإنشاد العذب، فطفرت الدموع من عينيها، ثم انتفضت واقفة، فنهضت الخادمة تنظر إليها في حيرة، ووجدتها تخرج

صامتة. سألتها: إلى أين؟ لكنها لم تجب. سارت مجذوبة إلى اللحن الشجي، ودقات الدف التي تنبض في قلبها، حتى بلغت الحضرة.

فوجئ الناس بها قادمة، فنظر إليها مَن يعرفونها متعجبين، لكنها لم تكن مشغولة بحملقة الناظرين ولا همهماتهم. مضت حتى بلغت طرف الحضرة، ثم توغلت فيها حتى صارت على مقربة من الشيخ، وهو يتمايل بين الذاكرين، يضرب راحتيه حتى يضبط الإيقاع، الذي يهديه العزف والدقات المتواصلة والحمحمات الملتهبة والنشيج المحبوس في الصدور.

توقف أحد الذاكرين، وأشار إليها أن تخرج، لكنها لم تُلقِ له بالًا. همَّ أن يمسك بها، لكن الشيخ أشار إليه أن يرجع إلى مكانه، فرجع مسرعًا إلى الصف الأيسر. لم يتوقف الشيخ عن ضرب راحتيه، وهو ينظر إلى «هنيّة» في امتنان. اقتربت أكثر، وحاذته، وراحت تضرب راحتيها مثله، وتهز رأسها، فتنزاح الطرحة عن رأسها، ليطل شعرها الأبيض، بينما وجهها مسكون بالفرح والاطمئنان.

كان أحد «الجوابر» حاضرًا، فانسل من بين المتفرجين، وجرى نحو بيت «بهاء». كان يجلس وحيدًا، أمامه زجاجة خمر استقر أغلبها في جوفه، ويلتقط معها حبات الترمس المسلوق، والجبن، والخبز الجاف. وقف يتطلع إليه، ولم يدرِ إن كان يخبره أم ينصرف صامتًا. صرخ فيه «بهاء»: ماذا تريد؟

اقترب منه في وجل، وقال: غرس ابن الصوابر صار عارًا على «الجوابر» أجمعين.

صرخ فيه من جديد: لا تطير السكرة من رأسي، وهات ما عندك

مرة واحدة.

فأبلغه بما رآه. فهب «بهاء» واقفًا، وكاد ينسى نعليه، لولا أن الرجل نبهه. مضى غاضبًا، والرجل يتبعه، حتى بلغ الحضرة. وقف قليلًا متطلعًا إلى عمته، وهي تتمايل غير عابئة بأحد ولا بشيء. كان بعض شكره قد راح عنه، لكن رائحة الخمر تفوح نفاذة من فمه.

تقدم إليها مسرعًا، وأمسك كتفها، وجذبها بعنف، فكادت تسقط على ظهرها. توقفت الحضرة بإشارة من الشيخ، ونظر إليه وقال له: كيف تفعل هذا؟ فلم يرد، وراح يشد «هنيّة» ليخرجها من بين الرجال المتقابلين. فارت الدماء في عروق الجالسين، فانتفض غاضبًا رجل قوي البنية من فلاحي «الصوابر» القادمين من بعيد، وهو لم يكن يعرف هذا الشاب الطائش الذي يعتدي على امرأة، ولا يعرف مَن تكون هي بالنسبة له، فكل ما شغله وقت أن اندفع نحو «بهاء» ليمنعه أنه يعتدي على حضرة ذِكر ثقام في سرايا كبيرهم الجديد، ويهين الشيخ الذي سمح لهذه المخبولة بأن تجاوره بين الذاكرين.

أمسك الرجل «بهاء» من كتفيه، وصرخ فيه: عيب عليك. فدفعه «بهاء» في غضب، لكنه لم يتزحزح من مكانه، بل ضغط على ضروسه، وطوق ذراعي «بهاء» ثم رفعه بين يديه عاليًا، ومشى به خارج الحضرة، فضج الناس بالضحك. قام أحد «الجوابر» وقال: كفاية.. كفاية. لكن الفلاح لم يمتثل للنداء، وخرج بين صفوف الجالسين، وهم يوسعون له الطريق، حتى ألقى «بهاء» تحت شجرة كافور، فارتطم رأسه بها. طار بقية ما في رأسه من خمر، ونهض سريعًا، وبصق على وجه مَن ألقاه، فما كان منه إلا أن صفعه بقوة

على وجهه، فسقط على الأرض من جديد.

هرع الجالسون إليهما، فحالوا بينهما. وقف «الجوابر» غاضبين مما جرى لمَن يُعوِّلون عليه ليكون كبيرهم في قابل الأيام. كتموا غيظهم لأنهم يدركون خطأ «بهاء». وجد الشيخ أن في استئناف الحضرة فرصة ليعيد الناس إلى أماكنهم، فأشار بيده إلى ضارب الدف، فدق عليه، وانطلق الأرغول، تبعه صوت المنشد. طربت «هنيّة» فعادت إلى مكانها، تتمايل بين الذاكرين.

عاد «بهاء» إلى البيت، يغلي جسده من فرط الغضب، ولا يقدر على تهدئة الرغبة في الانتقام التي سكنت رأسه. كانت أمه قد خلدت إلى النوم، فلم تدرِ به، وهو يسحب بندقيته من الخزانة، ويلتقط رصاصات، ويخرج قاصدًا الحضرة.

كان رجال «الجوابر» قد لحقوا به ليتداولوا الأمر، منقسمين بين مَن يرى أن «بهاء» قد أخطأ، وأولئك الذين يشعرون بالإهانة لما فعله به الفلاح، الذي رفعه فوق رأسه، وكأنه حزمة قش، وألقاه دون اعتناء. وصلوا إلى السلاملك القديم، فلم يجدوه، فقط كانت بقية زجاجة الخمر، وما حولها من مزة، وكنب صامت، وأرائك تنتظر الجالسين. جلسوا، ليتموا حديثهم، يحاول العاقلون منهم تهدئة الحمقى.

ظنوا أن «بهاء» لا يزال في البيت، ولم يدرِ أي منهم أنه قد انسل من الباب الخلفي، وحاذى الزرع، يلفه الليل. وسع خطواته، وهو يلهث، والبندقية تهتز في يده، حتى وصل إلى السرايا. كان الحاضرون منجذبين إلى الإنشاد، يعيدون به تنقية صفو نفوسهم

التي تعكرت.

كان حارس السرايا قد انخرط في الحضرة، مغمضًا عينيه في خشوع، فلم يرَ أحد «بهاء» وهو يدخل، ويسير على مهل إلى جانب السور، محتميًا بالظلام الذي يرمي سواده في وجه نور الكلوبات الساهرة. جلس القرفصاء، يمد بصره ليتبين موضع الفلاح الذي أهانه.

رآه جالسًا يميل إلى رجل بجواره يحدثه. فلمّا اعتدل، سمحت قامته المديدة لـ «بهاء» أن يصوب فوهة البندقية إليه في سهولة، وأعطته مساحة خالية إلى جوار السور فرصة التقدم دون أن يشعر به أحد، بينما حرم ظل الشجر عيون الجالسين من الانتباه إليه.

كتم أنفاسه، وسحب الرفاس على مهل، فلم يضف صوته إلى صدح الإنشاد شيئًا، ووضع سبابته على الزناد، وأحسن التنشين، فانطلقت رصاصة لتستقر تحت عنق الفلاح، فسقط بين الجالسين والدم يلطخ جلبابه، وهم في ذعر لا يعرفون من أين أتاه الغدر.

أخرستهم الفجيعة لثوانٍ معدودات، ثم صرخ أحدهم، فهاج الناس وماجوا، وتوقفت الحضرة، وانطلقت الأسئلة الباحثة عن أجوبة لا يعرفها أحد في هذه اللحظة. وقف أحدهم، وغرس إصبعه نحو السور، وقال: الرصاصة أتت من الخلف.

واندفع الرجال يسرعون في الاتجاه الذي أشير إليهم أن يسلكوه. لم يروا «بهاء» لكنه كان يراهم، فألقم البندقية رصاصة أخرى، وسحب الرفاس، وضغط الزناد من جديد، وأطلق رصاصة لعلهم يتراجعون إلى أن يجد مسربًا للهروب فأصابت أحدهم في كتفه.

سقط بينهم مضرجًا في دمه. توقف بعضهم خوفًا. مضى البعض في تقدمه، ليخلص لهم رجل نحيل من الظلام. صرخ أحدهم: إنه هناك.

تراجع «بهاء» إلى الخلف، حتى التحم ظهره بالسور، وسحب الرفاس من جديد، لكنه قبل أن يلقم بندقيته رصاصة ثالثة، كانوا قد أمسكوا به. قبض أحدهم على البندقية، ورفعها إلى أعلى. جذب الثاني يد «بهاء» فأبعدها عن الزناد. ضربه ثالث بسيف يده على ظهره بقوة شديدة. ركله رابع في ساقه، فخر ساقطًا مكانه، لكنهم جذبوه، بعد أن استولوا على البندقية، وجروه على الأرض، يغلق فمه الذي ملأه التراب اللدن وأوراق الشجر اليابسة.

كان صوت الرصاصة الثانية، التي انطلقت بعد توقف الحضرة، قد وصل إلى أذن «ناجي»، بينما هو مستلقٍ على ظهره، يلتقط أنفاسه المبهورة، بعد أن انتهى للتو من مضاجعة عروسه، فهب واقفًا، يداري عريه في النور الشفيف. سمع دبيب أقدام الخادمات يسرعن، فارتدى جلبابه الأبيض على عجل، وهبط مسرعًا حتى صار بين المحتشدين.

أفسحوا له الطريق حين رأوه، وقال أحدهم: قُتل رجل منا، وجُرح آخر حالته صعبة، وقد يموت أيضًا.

ارتج قلب «ناجي» فزعًا، وقلّب بصره ذات اليمين واليسار باحثًا عن القتيل، لكنه وجد «بهاء» مكومًا على الأرض يتألم من آثار الضرب المبرح الذي انهال على جسده بلا حساب. وقال أحد «الصوابر» بصوت يسكنه الغضب: لم نشأ قتله حتى نعود إليك. فأشار إليهم أن يهدأوا، وتقدم نحو «بهاء»، ونظر إليه في غيظ، وقال: لم ترث من السالفين سوى الحماقة.

وتطلعوا إلى «ناجي» ليقضي في أمره. وكان شيخ الطريقة قد اقترب، وهو يقول: لا تقتلوه.. لا تقتلوه. فرد «ناجي» مطمئنًا إياه: لا تقلق يا مولانا، أنا لم أنسَ القضاء بعد.

أمرهم «ناجي» أن يحملوا المصاب فوق الدوكار، ويسرعوا به إلى مستشفى البندر، وأن يُقيّدوا «بهاء» إلى شجرة كافور، فرفعوه بين أيديهم، وألصقوه بالجذع الأملس، ولفوا حول جسده حبلًا متينًا. سأل «ناجي» عن القتيل، وكانوا قد مددوه على الأرض، فأخذوه إليه. تطلع إلى وجهه الساكن في أسى وأسف، ثم جلس القرفصاء إلى جانبه، ينتحب.

كان العمدة قد ترك الحضرة إلى داره ليستريح قليلًا، بعد أيام شاقة قضاها في استقبال وخدمة الواردين من أهله، فأرسل «ناجي» إليه، حتى يرفع الأمر إلى قسم الشرطة. في الطريق حكى المرسال له كل شيء، فاختلط في نفسه الحزن والفرح. كان حزينًا على قريبه الذي جاء ليموت بينهم، وتعكير صفو هذه الليلة الجميلة التي اغتيلت بهجتها، وكان فرحًا لذهاب «بهاء» من طريقه، وهو الذي انشغل طويلًا بتدبير يجعل المشروع الجديد يؤول إلي «الصوابر» في يوم ليس بالبعيد.

لمّا وصل العمدة، طلب من المتزاحمين أن يترجعوا، ومد يده يفك وثاق «بهاء»، وأمر خفره: احبسوه في بيت العدة والكرباج حتى نبلغ الشرطة في الصباح. وطلب من أحدهم حمل البندقية التي ارتُكبت بها الجريمة، فالتقطها ومضى خلفه. كان الشيخ قد أشار إلى مريديه أن يجتمعوا صامتين فوق واحدة من الحصر المفروشة، فامتثلوا

على الفور، تجاوروا وعلى وجوههم كآبة، يُقلّبون عيونهم في الجالسين، ويتملكهم خوف من أن تنزلق الأمور إلى ما هو أخطر.

صدق حسدهم، فقد وصل إلى «الجوابر» المجتمعين في السلاملك القديم نبأ ما جرى، وكانوا قد سمعوا صوت الرصاصتين، فظنوا أنه قد أتى من قلب الزراعات. هبوا مذعورين، وجروا لا يعرفون ما عليهم أن يفعلوه في هذا الموقف العصيب. بلغوا السرايا، وكان «ناجي» لا يزال بين أهله. سألوا الخفير عن «بهاء» فأبلغهم بأنه سيق إلى دار العمدة، فاستداروا ذاهبين إليه. جرى الخفير نحو «ناجي» فأبلغه، فأشار لرجاله أن يتبعوه، وأسرع الخطى، حتى لحق بهم وهم على مشارف السلاملك.

ناداهم بصوت جهوري: توقفوا.

استداروا إليه، وقال «رافع»: لن تمر الليلة على خير.

مرر «ناجي» عينيه سريعًا على أيديهم، فلم يجد بها شومًا ولا فؤوسًا ولا مناجل ولا بنادق، فأيقن أن عليه أن يُحسن القول حتى لا تزيد المأساة، التي أفسدت عليه أيام عرسه. رفع عقيرته ليسمع الجمع: قُتل رجلنا لكننا لم نقتل رجلكم، وليحكم بيننا القضاء.

رد أحدهم وكان أكبرهم سنًا: رجلكم مَن بدأ بالشر، ولقي جزاءه.

وهمّ أحد فلاحي «الصوابر» أن يتقدم نحو الرجل، مدفوعًا بغضب عارم، لكن «ناجي» أمسك كتفه، وأوقفه، قائلًا: حين أتكلم تسمعون أنتم أيضًا.

تراجع الرجل، فقال «ناجي» وهو يتذكر ما قرأه في كتب الفقه أن

جلوس الغاضب ينقص عنه بعض حنقه: تعالوا لنجلس في السلاملك، وقولوا ما شئتم.

لكن أحدهم قال وهو ينظر باستهانة نحو دار السلاحليك: العمدية التي جاءتكم في غفلة من الزمن.

استعان «ناجي» بصبر كان يسري في عروقه من صلب أسلافه، وبما تعلم إياه أيام القضاء، وقال: اختاروا أي مكان نجلس فيه.

رد أحدهم: لا جلوس معكم، حتى يخرج «بهاء» إلى بيته.

وكان «محبوب» قد خرج إليهم، فرد غاضبًا: أنت تطلب المستحيل.

هاجوا وماجوا، وانسحب اثنان منهم إلى الوراء، وقال أحدهم: يبدو أن أيدينا الفارغة قد أطمعتكم فينا.

فطِن «ناجي» إلى ما يسكن رأس الرجل من ضغينة، تدفعه إلى أن يذهب ليعود حاملًا سلاحه، فقال له: ونحن أيدينا فارغة أيضًا، فلا تُحرِّض الناس على الشر، ويكفي ما جرى.

تطلع عجوز «الجوابر» إلى الرجال المتحلقين حول «ناجي» و«محبوب» وخفره المسلحين، فأدرك أنهم أكثر عددًا، فقال: لن ترضوا لنا أن نترك رجلنا محبوسًا ونعود إلى بيوتنا.

رد «ناجي» على الفور: يمكنكم البقاء في السلاملك ضيوفًا حتى الصباح.

قال أحدهم في غضب: سنبقى هنا، وليذهب أحدنا ليرى «بهاء».

زام «محبوب» غاضبًا، لكن «ناجي» قطع الأمر: ليكن ما تطلب.

ثم إلى الخفر: هاتوا خصر ليجلس الرجال.

ساد صمت، قطعه «محبوب»: ليأتِ «رافع» مع الخفر إلى السلاحليك.

(36)

لم تسل مزيد من الدماء هذه الليلة، بفضل حكمة «ناجي» ونزول «محبوب» على ما قضى به. لكن الإحن ملأت النفوس من جديد. كل ما تبدد في مسارب الأيام الطويلة، عاد وتجمع. تدفق في العروق حتى امتلأت، فاتسعت ونفرت، وكادت تنفجر من انتفاخها الرؤوس.

جلس «الجوابر» ملتصقين، يشعر كل منهم بما يغلي به جسد أخيه. ودخل «الصوابر» إلى السلاملك، يستعيدون ما حكاه لهم «ناجي» عن الخلاف الطويل، والوعد المقيم.

(37)

تشاور «الصوابر» في أمر قتيلهم، فقال «ناجي»: بعد معاينة البوليس جثته، يُدفن إلى جوار أجداده.

رد «رافع»: نأخذه إلى حيث أسرته، فيدفن بجوارها.

قال «ناجي» وهو يرفع رأسه في اتجاه الجبّانة الصامتة: سآتي بأولاده وأمهم ليعيشوا هنا، وأكتب لهم فدان أرض.

مال واحد من أجراء «الصوابر» على أجير معله، وقال: لو كدّ طوال حياته ما امتلك قيراطًا واحدًا.

رماه بنظرة مشمئزة، وقال: أتحسد الرجل على موته، وتيتم أولاده.

رفّت على شفتيه ابتسامة صفراء، وقال: الحي أبقى من الميت.

غمزه في ركبته ليخفض صوته، وقال: أنا واثق من أنه لن يبخل علينا بشيء.

جاء ضابط الشرطة عند الظهر، عاين الجثة، وقبض على القاتل، وطلب الشهود، فكانوا كثرًا، لكنه قال: أريد شيخ الطريقة.

وكان الشيخ قد قضى ليلته بين مريديه وباتت «هنيّة» إلى جانبهم. رفضت العودة إلى الزاوية، فخصص لها الشيخ حصيرة، أبعدها عن الرجال، وجعلها خلف جذع جميزة عفية، حتى لا يرى أحد جسدها إن خلدت إلى النوم.

لم تكن مثل البقية كاسفة، بل كان وجهها ينضح ببهجة غريبة، وكأنها قد تلقت خبرًا سعيدًا. تطلق عينيها نحو الأفق البعيد في اندهاش، وكأنها ترى في صفحة السماء وجوهًا مليحة، أو نورًا غامرًا، وربما تشهد موضعها من جنة الخلد، ثم تعود لتغمضهما، متقلبة بين ضحك وبكاء، وتتمايل برأسها وجذعها، كأنها لا تزال تسمع الإنشاد الطليق، يسري في أوصال النسيم.

(38)

كان «محمود» قد انصرف مبكرًا من الحضرة، بعد أن شعر بدوار شديد. كانت عافيته قد تراجعت، ولولا ما تخفف به «رضيّة» عنه، ربما مات كمدًا، أو أصابه كُساح، أقعده في داره لا يبرحها.

حين استيقظ في الصباح أبلغه ابنه بما جرى، فدس قدميه في نعليه، وتركهما تلثمان تراب الشارع على مهل، حتى أوصلتاه إلى

دار العمدة. وجد «الجوابر» جالسين، وشعاع الشمس الوليدة يحط على رؤوسهم المسكونة بالقلق والغضب. ألقى عليهم التحية، فردها بعضهم في تثاقل. لاذ بعضهم بالصمت متطلعين إليه في غيظ، إذ أدركوا أن لا شيء يدفعه إلى الحضور في البكور إلا المطالبة بما يقول إنه حقه.

لكن «محمود» جلس في السلاملك صامتًا، لا يعرف إن كان يترك نفسه للشماتة في «بهاء» الذي وافق على هضم حقه، وأمعن في إهانته، أم يبدي حزنه على النكد الذي حل بالعريس؟ أم يطرد المخاوف التي هجمت عليه من أن ينزلق الأمر إلى ما لا تُحمد عُقباه؟

كان قد استسلم لما حاق به، ولام نفسه على الغفلة، لكنه لم يندم على حسن نيته. عزا ما جرى له إلى شيء يسري في عروقه من أجداده الأبعدين، جعله مجذوبًا، دون إرادة منه، إلى العودة بالحال إلى أصلها، يسأل نفسه كلما خلا بها: لم يكن «آل بخيت» إلا خدم.

جلس على حافة الجلسة، فلما انتبه إليه «ناجي» نهض نحوه، وأخذه من يده ليجلسه إلى جانبه في صدارة المجلس، وقال للحاضرين: هو ثالث ثلاثة، مع أبي وعمي، أخلص للوعد، فجاء معهم إلى قرية غبّر جدوده أقدامهم في تراب شوارعها.

نظر إليه «محمود» في امتنان، ثم جال ببصره في وجوه الجالسين، وأعاده إلى «ناجي»، وهو يقول في غبطة: أنت أطيب ثمرة في شجرة «الصوابر» العالية. وسرى في نفسه اطمئنان إلى أن حقه قد يعود إليه على يد «ناجي»، لكنه لم يشأ أن يُذكّر أحدًا به، حتى يأتيه كما ذهب، حين يحل الوقت المناسب.

دخل شيخ الطريقة، يتهادى في جلبابه ناصع البياض، وعمامته الخضراء، فقال الضابط: أستأذنك يا مولانا أن تأتي معي إلى القسم، لتشهد بما رأيت.

- ما سمعته ورأيته وصل إلى آذان وعيون كل الحاضرين.

- شهادتك أثقل عندي من غيرها، ولك أجر مساعدة العدالة.

أمسك العساكر يدي «بهاء» وقيدوهما، فلما خرجوا من السلاحليك، قال «ناجي» للضابط: أرجو أن يُفك قيده، حتى لا نثير حفيظة الجالسين في الخارج.

نظر إليه الضابط، وقال في حسم: هذا ما يقضي به القانون.

- أعرف، لكن إن وجد القانون طريقه دون عناء، هذا أفضل.

نزل الضابط على رغبة «ناجي». أمسك العساكر بكتفي «بهاء»، وساروا به على الجسر، يوسعون خطاهم ليلحقوا بقائدهم الذي امتطى صهوة جواد تثير حوافره التراب، ويشمخ أنفه في نسيم الضحى الذي أتى رخيًا من فوق صفحة النيل.

(39)

لم تمضِ سوى أيام حتى جاءهم نبأ موت «قطاوي». ذهب «ناجي» و«محبوب» إلى بيته لأداء واجب العزاء. واختلى بهما «ليشع»، وقال: أتعشم ألا ينقطع شيء بيننا.

همّ «ناجي» أن ينطق، لكن سبقه «محبوب»: أنت وارث أبيك، ومكانك محفوظ إن أردت.

صمت برهة، وقال: سجن «بهاء» سيطول، ولا أدري إن كانت أمه ستبقى معنا أو تنسحب.

تهلل وجه «محبوب»، وسأله: هل حدثتك في أمر بيع نصيبها؟

هز رأسه، وأجاب: أراد «بهاء» التنازل عن جزء من نصيبه، وهي لم تُبدِ اعتراضًا على ما كان يعتزمه، ويبدو أنها لن تمانع في البيع.. بدأت فعلًا ببيع العبد الذي كان قد اشتراه «بهاء» قبل شهر واحد من سجنه.

قهقه «محبوب» وقال: سيوحشه هذا العبد كثيرًا.

شاركه «ليشع» الضحك، وقال: في السجن سيجد ما يريد، بالفلوس أو بالقوة.

لكن «ناجي» أعاد الحديث إلى جديته، وقال بحروف واثقة: نترك لك الأمر، فإن أرادت فنحن جاهزون، ولن نبخس السعر.

وانتهز «محبوب» الفرصة كي يضرب ضربته، فقال وهو ينظر طويلًا في عيني «ليشع»: نحن جاهزون لشراء المشروع كله، إن أردت أنت البيع أيضًا.

كان «ليشع» يخشى من أن تؤدي يقظة الإحن القديمة بين «الصوابر» و«الجوابر» إلى تعريض ماله للخطر، وطالما حدث أباه حين أقعده المرض في شأن الانسحاب من المشروع، لكن الرجل كان يقول له: بعد عيني، افعل ما شئت.

(40)

مات المصاب في المستشفى، وأتى به «ناجي» ليُدفن إلى جوار أجداده. وكما فعل مع القتيل الأول، نقل أسرته إلى «الجابرية»، وخصص لها فدانًا تزرعه في أجود الأراضي.

تأخر قرار إنشاء محطة القطار. نزل «ناجي» إلى البندر ليستطلع الأمر، فقيل له إنه ينتظر التخصيص المالي في الموازنة الجديدة. ورآها فرصة قد جاءته من حيث لا يحتسب كي يُهيئ الأمر دون متاعب. تذكر ما كان قد بدأه «عمر» حين طرق ذات ليلة باب عجوز «الجوابر» حاملة الحكايات القديمة، لكن القدر سبقه إلى غير ما يريد. ذهب إلى أمه، وكانت وعكة صحية طارئة قد ألزمتها الفراش، وقال لها: جاء دورك يا كبيرة «الجوابر».

طلب منها أن تفعل ما عليها من أجل نزع الحنق من نفوس أهلها. وكان يعرف أنها لا تزال مسموعة الكلمة بينهم، لا سيما الكبار منهم، الذين يحملون لأبيها امتنانًا لم يبله الزمن. هزت رأسها خفيفًا، متغلبة على أوجاعها، وقالت: بداية الخيط دومًا مع النساء.

وكانت «نوارة» تجلس إلى جانبهما صامتة، فتهلل وجهها، وقالت: رأي سديد معجون بحكمة السنين.

قهقه «ناجي»، وقال: ليس كل الرجال في قريتنا ينزلون على مشورة النساء.

ابتسمت «عبلة»، وقالت: قوة المرأة في ضعفها، ولها على الرجل ما لا تدركه أنت.

وتاهت في صور الماضي، وواصلت: كان أبوك وعمك من خيرة

الرجال، لكن كثيرًا مما فعلاه في اطمئنان، كنت أنا خلفه، دون أن يشعر أيهما بعقلي عليه.

رمى نظرة نحو «نوارة»، وقال: أرأيتِ، هكذا يكون مكان الزوجة الذكية في قرار زوجها.

اختارت «عبلة» زوجة عجوز «الجوابر»، وكانت تعرف أن كثيرين منهم يعودون إليها، وأرسلت إليها مَن يُخبرها بأن عليها أن تعود قريبتها المريضة. جاءت المرأة تتوكأ على عصاها، فصعدت بها الخادمة إلى غرفة «عبلة». صافحتها في امتنان، وجلست تنظر إليها، وقالت: ألف لا بأس عليك.

ردت «عبلة»: طالما ضمك هذا المكان مع أبي وأمي.

- شهدت معهما أيام عزنا.

رمت «عبلة» حبلها الذي فتلته على مهل: يدوم العز طالما كان بيننا مَن هي مثلك.

صمتت المرأة، متخبطة في خواطر اجتاحتها عن العائلة التي تتهاوى، فيترنح رجالها على مهل، وتضيق بنسائها البيوت. عادت تقول: لم تعد الحال كما كانت، وأنتِ سيدة العارفين.

فطِنت «عبلة» إلى ما تقصده المرأة، فقالت: لم يخلُ زمن من جسور تصل بيننا.

- لا يوجد بيننا جسر أعلى منك، يا بنت الغالية والغالي.

- بل أنتِ جسرنا العالي، يا أم الكل.

تطلعت إليها العجوز في امتنان، وقالت: لا أحد يكره هدوء البال.

تنهدت «عبلة» في خرقة، وقالت: لا ينقصنا إلا هذا، وعلى العقلاء أن يخمدوا الفتن قبل أن تقوم.

تنبهت المرأة إلى ما تأخذها «عبلة» إليه، وربما تعللت بمرضها، كي تأتي بها إلى السرايا، وهي تعرف أنه كان مكانًا أليفًا لها، إلى أن انقطعت عنه منذ موت «حورية». ابتسمت، وقالت: يدي على يدك، وإن كان الأمر بيد الرجال.

انتزعت «عبلة» ضحكة صافية من بين أوجاعها، وقالت: بعض النساء يرمين الحطب على النار دون توقف.

سألتها على الفور: هل وصلك خبر عن شيء؟

- علينا أن نعمل حتى لا تكون هناك أخبار في هذه القرية إلا ما يَسُر. وطلبت منها أن توصي نساء «الجوابر» بأن يهمسن في آذان الرجال بما يهدئ النفوس الملتهبة، ولا توسوسن بكلام يحرضهم على الاستسلام للغضب. أفهمتها أنها تعرف أن كثيرات منهن يعدن إليها، ولا تخلو دارها في أي يوم من الباحثات عن الرأي والمشورة.

قالت لها دون مواربة: كل شيء يصب في حجرك منذ أول النهار حتى الليل.

ردت العجوز: أنتِ أيضًا لك في نفوسهن مكانة، لم ينقص منها انحيازك إلى آل ابنيك.

أرادت أن تكسبها إلى جانبها، فقالت: يهمني أمر «الجوابر» أيضًا، فهم أهلي، وأي سوء يمسهم لا أرضاه.

وقبل أن تنهض العجوز على مهل لتنصرف، قالت لها: أتمنى أن أراكِ هنا كثيرًا، مثلما كان يحدث أيام أبي وأمي.

ردت في امتنان: أتمنى أنا أيضًا أن أراكِ في بيوتنا.

استجابت «عبلة» لطلب المرأة، فلم تمر أيام حتى ركبت الدوكار إلى بيتها. وصلته قبيل الظهر في يوم شتوي غائم وبارد، فوجدت عندها نسوة من الجوابر، يتحلقن حول منقد تصفو فيه جمرات حطب من جذوع العنب اليابسة، تحط عليها كنكة شاي. جلست بينهن تمد يديها إلى النار، فلما غلى الشاي، أمسكت بالبراد من مقبضه، وراحت تصب في أكواب من زجاج مستقرة على صينية من الصاج المطلي باللون الأبيض، ثم رفعت الأكواب إليهن، وهن متعجبات مما تفعله سيدة السرايا.

على وقع رشفاتهن المتتابعة، كسرت «عبلة» الصمت، قائلة: يعز عليّ أن تقاطعن السرايا. تبادلن النظرات في صمت، فواصلت: هي بيت رجل ظل كبير «الجوابر» إلى أن مات، وهي مفتوحة أمامكن في أي وقت.

وتوالت زيارات النسوة إلى السرايا، وكلما جاءت إحداهن أصرت «عبلة» على ألا تخرج إلا وفي يدها هدية جهزتها الخادمات. قفة فيها صفيحة جبن، وبلاص صغير من العسل الأسود، وبرطمان من العسل الأبيض، وأكياس سكر، وعبوات شاي، وكيس من الدقيق، وزجاجة زيت، وزراوية بها سمن بلدي.

وقالت لها إحدى الخادمات ذات يوم: هذا كثير يا ست.

فابتسمت، وقالت: «اِطعم الفم تستحي العين».

واقترب عيد الأضحى، فطلبت «عبلة» من «ناجي» أن ينحر عشرة خراف سمينة، يوزع لحمها على الفقراء، ولا ينسى بيوت «الجوابر». استملح الفكرة، وقال لها: نذبح أكثر، فنرسل إلى البيوت لتأكل النساء والعيال، ثم نمد مائدة هنا في حديقة السرايا، وندعو الرجال جميعًا، بمَن فيهم «الجوابر» وآل بخيت والنصارى واليهود.

راق لها اقتراحه، وجاء الرجال في ظهر يوم العيد لتناول الغداء. لم يأتِ «الجوابر» جميعًا، لكن نصفهم على الأقل لبى الدعوة. من بينهم مَن قَبِل قبل لفة اللحم التي وصلت إلى باب داره، فاطمأن «ناجي» وهو الذي كان قد أحصاهم من قبل مرتين، واحدة مع «عمر»، وأخرى قبيل عرسه.

حين انفض الجمع، قال لأمه: لا يبلغ أحد النجاح مرة واحدة.

(41)

فوجئ «محبوب» بوصول «ليشع» إلى السلاملك. كان بصحبته شاب لم يرَه من قبل، قدمه إليه على أنه ابن عمه، واسمه «عسّاف». كان وقت غداء، فأصر «محبوب» على أن يأكلا معه، وقال: عيش وملح يربط شراكتنا. فابتسما، وتبادلا نظرات أيقن منها «محبوب» أن شيئًا وراء هذه الزيارة المفاجئة، لكنه لم يشأ أن يبادر بالحديث، ساقه بعيدًا عن المشروع، وسألهما عن الأخبار الواردة من المحروسة حول المظاهرات التي تجوب الشوارع منددة بالاحتلال الإنجليزي.

قال «عساف»: امتدت المظاهرات إلى مدن أخرى خارج العاصمة،

وأخمدها الإنجليز باعتقال كثيرين، وقتل آخرين.

نفخ «محبوب» في غيظ، وقال: المهم أن الشعب استيقظ بعد نوم طويل.

قهقه «ليشع»، وقال: شعبنا ما إن يصحو حتى يعود إلى النوم سريعًا.

تدخل عساف: الإنجليز في عز قوتهم، ومواجهتهم الآن ليست من الحكمة في شيء.

نظر إليه «محبوب» في غيظ، وقال: إن انتظرنا حتى نساويهم في القوة سنبقى تحت الاحتلال إلى أبد الدهر.

ابتسم «ليشع»، وقال: غريب أن يخرج هذا من رجل الحكومة.

سرى غضب في أوصال «محبوب»، ونطق في غيظ: يكره الناس مَن يتعاون مع الاحتلال من أهل الحكم، حتى لو كان رئيس الوزراء نفسه.

وجاء الطعام، فتحلقوا حول طبلية واسعة، وضعها الخدم على سجادة في قلب السلاملك، فقال «محبوب»: يحلو الكلام على الطعام. ودس «ليشع» لقمة في فمه، فلما لانت، قال: جئنا إليك في أمر فتحناه قبل مدة. تطلع «محبوب» إليه، وقال وهو يمزع جزءًا من بتاوة طرية: يدور هذا في رأسي منذ أن رأيتكما، لكنني انتظرت حتى أستيقن.

قال «عساف»: دخلنا بالمعروف، ونخرج بالمعروف.

قهقه «محبوب» ووارب الحديث بعيدًا، وقال: لا تخشَ شيئًا، لن أحبسك في بيت العدة والكرباج، وكما دخلت ستخرج معززًا مكرمًا.

بادله «ليشع» الضحك، وقال: أم «بهاء» راغبة في بيع نصيبها وابنها.

رد «محبوب» على الفور: نحن مستعدون، وسأترك تقدير الثمن لك.

ثم عاد وسأل: هل «بهاء» موافق على البيع؟

أجاب «ليشع»: زارته أمه في سجنه، وخيّرها يائسًا أن تفعل ما تشاء، بعد أن صدر حكم بسجنه مؤبدًا. يريد لها أن تترك القرية كلها، فهو يخاف الانتقام من ابنه الرضيع.

هز «محبوب» رأسه تأثرًا، وقال: هذه آخرة الطيش والحماقة.

صمتا برهة، قطعها «عسّاف» قائلًا: ليست وحدها مَن تريد البيع.

توقف «محبوب» عن مضغ لقمة في فمه، ونظر إليه طويلًا، وهز رأسه، مشجعًا إياه على مواصلة الحديث، فقال: نصيبنا أيضًا سنعرضه للبيع، ولن نجد شاريًا خيرًا منك.

لاذ «محبوب» بالصمت، وهو يدرك أنه لو أبدى حماسة للشراء سريعًا فإن هذا سيزيد في السعر. تزحزح في مكانه، وقال: لا أعرف إن كان بوسعنا شراء كل المشروع أم لا.

فاجأه «ليشع» بالقول: ساكنو السرايا لن يعدموا وسيلة في تدبير المال.

ولم يجد «محبوب» ما يقوله سوى: لا أعتقد أنني ضايقتكم في

شيء، ولا أعرف سببًا لهذا القرار.

رد «ليشع»: الحقيقة أننا قررنا إنشاء مشروع آخر في «القاهرة»، هناك سوق كبيرة.

وتدخل «عشّاف»: مغامرة جديدة، نتمنى أن تنجح.

وقال «ليشع»، وكان أكثر صراحة: الحقيقة يا عمدة أنت رجل لا غبار عليك، لكننا كنا نشتري القصب والقمح وبذور القطن واللبن أيام «رشدان» بأسعار أقل، فكان الربح أكثر.

سكت «محبوب» برهة، وقال: لم أخطئ حين أعطيت الناس حقوقهم.

رد «عشّاف»: حاشاك يا عمدة، لكن لكل طريقته.

هز «محبوب» رأسه، وقال: أمهلوني أسبوعًا واحدًا، أعود فيه إلى مَن يشاركني، وفي زيارتكم القادمة نجلس لنقدر ونقرر.

(42)

غمرت الفرحة نفس «عبلة» حين سمعت الخبر. نظرت إلى «ناجي» بوجه بهيج، وقالت: فرصة يجب ألا تضيع. وسألها عن تدبير المال، فقالت: عبء هذا أقل كثيرًا من عبء رسو المشروع على غريب، لا نعرف مَن يكون، ولا كيف سيتصرف معنا، ونحن على أبواب أن نكون كبراء القرية بلا منازع. صعدت إلى الطابق العلوي، وأحضرت صندوقًا صغيرًا مملوءًا بحُليّها، وجنيهات من الذهب. مدته إلى «ناجي» وقالت: جاء أوان نفعه.

عز عليه أن تبيع حُليّها، فقال: نبيع أرضًا، واحتفظي بمصاغك.

- يبدو أن عيشك الطويل في البندر أنساك قيمة الأرض.

- لم أنسَ، ولكن..

- بيع الأرض عار، حتى لو مكنتنا من امتلاك مشروع قد يأتينا بأكثر مما نجنيه من حصاد المحاصيل. الأرض باقية، وغيرها يذهب. لم يترك لنا الأجداد الذهب والمال، إنما تركوا الأرض، ومنها جاء كل شيء.

وأحصى ما في الشونة من غلال، وفكر في أن يبيع محصول الأرض مبكرًا، ويبيع قطعان الماشية والضأن التي تتزاحم في الحظيرة، وباعت هي المركب الشراعي الذي لن تكون له فائدة لديهم بعد وصول القطار إلى قريتهم.

جلس «ناجي» يُحصي كل شيء، وقال: هذا لا يكفي.

ردت هي: فاتح «ليشع» في تقسيط ما يتبقى، لعله يقبل.

- لا أعتقد أنه سيرضى.

- أبلغه أننا لن نرضى بغريب يملك شيئًا في قريتنا، ولن يكون أمامه سبيل سوى القبول.

ثم برقت في رأسها، فكرة، وقالت: هناك حق «محمود» ولنفاتح أم «بهاء» في رده، فإن قبلت، نمهله هو حتى موسم الحصاد بعد القادم.

صمت «ناجي» برهة، وقال: أظن أنها قبلت الحرام، ولن ترد شيئًا.

وكان «محبوب» قد أبلغهما بأن «ليشع» سيعود بعد أسبوع لإتمام

البيع، فقال لها: الوقت ضيق، ولا نريد أن نعلق آمالنا على حبال ذائبة. وقلّبوا الأمر على مختلف وجوهه، فبدوا عاجزين عن تداركه. لكن فكرة برقت في رأسها فجأة، وقالت: آن الأوان أن تؤول إلينا أرض الانتقاع.

استملح «ناجي» ما سمع، لكن هذا لم يكن يحل المشكلة التي يواجهونها الآن، فقال: هذه نقرة أخرى، نتفرغ لها بعد أن نشتري المصانع.

استعرضت أمامه أسماء غمد القرى القريبة، وقالت: ربما نجد لدى أحدهم قرضًا، نرده بعد سنتين.

لكنه أبدى أمامها مخاوفه من أن يطلب أيهم شراكة في المشروع، أو جزءًا من الأرض، فارتدت كاسفة البال، وقالت: لم تبقَ سوى السرايا.

انزعج من اقتراحها، ورآه غريبًا، وقال: هي واجهة لمهابتنا، وفيها كل الذكريات التي لا يمكن أن نتركها لأحد يعبث بها.

اقترح عليهما «ليشع» أن يقترضا المبلغ المطلوب من البنك. وكان «ناجي» قد سمع عن بنك أنشأه روفائيل سوارس وأرنست كاسل برأسمال مليون جنيه لكنه رفض الفكرة، وقال له: ليس أمامك سوى أن تُقسّط لنا ما تبقى.

فكر «ليشع» قليلًا، وقال: رهن جزء من أرضكم فيه الحل الشافي.

وسأله «ناجي» عمن يقبل بهذا الحل، فقال: ثُرهن لي، وثُرد إليكم بعد سداد المبلغ المتبقي.

ووجده «ناجي» حلًا مناسبًا، لكن «عبلة»، طوحت يدها في الهواء رافضة؛ لأنها رأت في هذا إهانة بالغة، وبابًا يفتح عليهما ألسنة الناس. نظرا إلى «ليشع»، وسألته هي: عليك قبول تقسيط ما تبقى، وهذا آخر ما عندنا.

صمت برهة، ونظر إلى «عسّاف»، وكانا قد فكرا في كل الاحتمالات قبل عودتهما إلى القرية، فقال: موافق على التقسيط، لكنه يختلف عن الدفع الفوري.

وتطلع إليه «ناجي» متسائلًا، فواصل: تدفعون المبلغ المتبقي وفوقه الثلث.

احتد عليه «ناجي»: هذا ربا، لا تقبله ذمتي.

قهقه، وقال: تقبله ذمتي أنا، ولا شأن لك بهذا.

نظر إلى أمه لعلها تسعفه بشيء، فوجدها تقول: ليكن العُشر، ولن نزيد.

هز «ليشع» رأسه رافضًا، وقال: هذه خسارة لا أتحملها.

ردت «عبلة»: نقف في نقطة وسطى، فليكن الثمن، وهذا آخر ما عندنا.

ابتسم «ليشع»، وقال: لا بأس، سأقبل من أجل خاطر الهانم.

(43)

انتهى الفلاحون من حصاد القمح، وجاء المقرقرون من النصارى وفي يد كل منهم مذراة، راح يغمسها في الجرن العالي أمامه،

ويتطلع إلى الهواء لعله يتدفق سخيًا، فيساعده على فصل التبن عن الغلة في يُسر. مُلئت الأجولة، وحملتها الحمير والجمال إلى الشونة.

كان «ناجي» جالسًا على كرسي أمام الشونة يعد الأجولة، ويقيد العدد في دفتر، بينما يتولى أولاد «أم الخير» رصها في صفوف تعلو تباعًا، حتى تكاد تبلغ السقف. ظل على هذه الحال من الصباح حتى حلّ الليل، ثم نهض متعبًا إلى السرايا، مطمئنًا إلى تسديد ما حصل عليه مقدمًا من التجار. ما إن سقط في سبات عميق، حتى طرقت خادمة باب حجرته. لعن الطارقة في سره، وأراد أن يعود إلى النوم، لكن الطرق ازداد، فهب واقفًا، ليجد «نوارة» على الباب، تقول في انزعاج: جاء الفيضان.

استدار مسرعًا نحو حذائه، فدسه في قدميه، وهو يردد في جزع: الشونة.. الشونة. راح يجري في الحديقة حتى بلغ بابها، فوجد فلاحين يسرعون نحو الجسر، فاستوقفهم قائلًا: اتبعوني.

قال له أحدهم: لم يبلغ الماء القرى المجاورة بعد.

لكنه لم يلتفت إليه، وراح يسرع الخطى ملهوفًا. جروا خلفه، ومعهم حارس السرايا والحوذي الذي كان يستلقي على ظهره إلى جوار السور. بلغ الشونة، فلم يجد الماء قد وصلها. التفت إليهم، وصرخ: آتوني بربط القش والأحجار.

ركبوا عربات الكارو والحمير والجِمال، وأسرعوا نحو الحقول. كانت ربط القمح مُكوّمة كأنها تل عالٍ. خطفوا منها على قدر ما تحمل الدواب، فوصلوا إليه وهو يولي وجهه شطر النهر، ينتظر أول الماء المندفع. كدسوا ربط القش صفوفًا متلاصقة، ووضعوا أمامها

الأحجار التي جمعوها. ضرب بعضهم الفؤوس في الأرض، وكوموا خلفهم الطمي أجرانًا صغيرة، رفعها رجال آخرون في المقاطف، ليضعوا الطمي على القش، حتى ارتفع السد، أعلى من الجدار الحجري للشونة، والذي كانت تعلوه حوائط من الطوب اللبن. دقوا خلفه أوتادًا من أفرع الشجر، ليكون قادرًا على صد الماء.

طوقوا الشونة من كل جانب، وساعدهم ضوء قمر منتصف الشهر العربي على أن يتبينوا ما فعلوه جيدًا. ألقوا أجسادهم المنهكة خلف الطوق، بينما ظل «ناجي» واقفًا يتطلع إلى الماء، الذي مد لسانًا عفيًا، وانداح في سرائب الحقول فغمرها.

كان فلاحون آخرون قد هرعوا إلى الجسر، يرمون فوقه القش والتراب، ويكدسون في الجوانب المهترئة منه كتل الطين والحجارة. بعضهم جرى نحو الشواديف والطنابير الموزعة بالقرب من شفة النهر، ورفعوها بعيدًا، حتى لا يجرفها الماء في طريقه. رفع الصيادون قواربهم إلى اليابسة، التي سيبلغها الماء لا محالة، وضعوها خلف أشجار الكافور والجميز المتينة، وربطوها بالحبال في الجذوع الثابتة، تاركين أعشاشهم وأكواخهم الهشة طعامًا رخيصًا للماء.

انهمك آخرون في إغلاق فوهات الشوارع المفتوحة على الخلاء، سدوها بالقش والأحجار، وأهالت عليها الفؤوس كل ما استطاعت أن تغرفه من التراب. هرع مَن كانوا قد تأخروا في حصاد أقماحهم وفي أيديهم المناجل والأشولة. جزوا رؤوس السنابل وهم يسابقون الزمن، تاركين الأعواد الهشة اليابسة للماء الذي بات على الأبواب.

حتى شريط السكة الحديدية غمره الماء. خضعت قضبانه وعوارضه السميكة المثبتة بإحكام لهجوم الفيضان، رغم أنها تعلو على الزراعات. حين نظر «ناجي» إليها في اليوم التالي أيقن أن تشييد المحطة سيتأخر مرة أخرى، فقال في نفسه: محطة مشؤومة، كلما اقتربت ابتعدت.

وحدها الجبّانة التي اطمأن الجميع إلى أنها ستنجو كالعادة من هجوم الماء الكاسح. ووحدها «هنيّة» التي لم يحركها شيء. كانت قد تربعت تحت اللمبة، يدها ممدودة إلى الوِرد، تقرأ على مهل، وصوتها الندي يسري نحو النيل والبيوت.

تركتها الخادمة ووقفت فوق قبر «رضوان»، نظرت إلى الساكنين تحت التراب، وقالت: أراحكم الله من عذاب هذه الدنيا الفانية. ورمت بصرها نحو قبر «رشدان»، وبصقت، وقالت: أنت لا راحة لك ولا رحمة.

انقطعت السبل بالفلاحين، فمكثوا في بيوتهم عاجزين عن فعل شيء. كانوا يصعدون إلى السطوح في النهار، يرمون أبصارهم إلى الأرض المغمورة صامتين، ثم يمدونها إلى مجرى النيل، لعله يرأف بهم، ويفرج عنهم، فيعودوا إلى الكدح.

وضاقت النسوة بهم، وهن اللائي أخلصن دومًا للمثل الساري الذي يرى أن جلسة الرجل في البيت أثقل من الهم على القلب. ولمّا ضاقت الأرزاق زادت المشاحنات، ولم يكن أمام الرجال من سبيل سوى الصبر، أو الهروب إلى المصاطب، ليتبادلوا الحديث عن أوجاعهم، ويحسبوا الساعات التي انقضت على عطلتهم، ويبعثوا أشواقهم إلى

الفؤوس التي بردت من طول الانتظار.

وتذكرت «عبلة» ما كان يفعله أبوها في مثل هذه الأوقات العصيبة، فنظرت إلى «ناجي»، وقالت: لا يجب أن تنقطع العادة. ولم يفطن إلى ما تقصده، فشرحت له ما عليه أن يفعله، وقالت: في أيام الفيضان تصبح بيوت الكبار هي الملاذ. قام على الفور إلى غرفة الخزين. تطلع إلى أشولة الدقيق والأرز والعدس والفول، وأكياس السكر، وبلاليص العسل، وصفائح السمن والجبن، ثم انهمك في إحصائها، فلمّا انتهى أيقن أن الخرق متسع على الراتق، لكن «عبلة»، نصحته بأن يبدأ ببيوت الأجراء، وقالت: هؤلاء لا غلة حولهم ولا تبن، ولا يجب أن ننتظر حتى يصرخوا بالشكوى.

نظر إليها «ناجي» في امتنان، وقال: سأرسل إليهم ليأخذ كل منهم ما يعينه على العيش إلى أن تنكشف الغمة. فهزت رأسها رافضة ما سمعته، وقالت: الناس في القرية يفضلون الموت على السؤال. لم يدرك مقصدها، وهو الذي يسكن البندر نفسه أكثر من الريف، فأوضحت: يذهب ما نجود به إلى كل منهم حتى داره.

استعان «ناجي» بالعمدة، الذي رغم قصر مدته في القرية إن قيست بمَن طلب إعانته، إلا أن مهمته جعلته يعرف كل أحد، وأي شيء، يسعفه في هذا خفره، وفضوله الدائم، وشعوره الراسخ بأن مَن يتولى شؤون الناس عليه أن يعرف أحوالهم جيدًا. جلس العمدة في السلاملك، وفي يده ورقة وقلم، وراح يسجل أسماء الذين هم في حاجة إلى الإعانة أكثر من غيرهم. وكانت «عبلة» قد فضلت أن يجري كل شيء في الليل، حتى لا تُجرح نفوس الناس بعوزهم.

بعد العشاء، خرجت الخادمات يغبرن أقدامهن في تراب الشوارع، ومعهن الخفر. طرقوا البيوت، ومدوا إلى كل مَن فتح بابه مؤونته. أغلب الأجراء من «الجوابر» قبلوا الصدقة، وقلة منهم ردت الخادمات قائلين: تكفل أهلنا بنا. فلمّا عادت الخادمات بالرد إلى «عبلة»، قالت هازئة: لم تغادر الأحقاد القديمة كل النفوس بعد.

(44)

وجد «ناجي» في أيام الفيضان فرصة ليفهم سير العمل في المعاصر ومعمل اللبن والطاحونة. كان فلاحون من القرية قد أتقنوا هذه الحرفة الجديدة، يؤدونها بلا عناء. راجع الدفاتر، حيث الوارد والصادر، وهوامش الربح، وأجور العمال. حرص على أن يشرح له رؤساء العمال كل شيء عن الآلات التي تزمجر، لا تلقي بالًا لمَن باع، ومَن اشترى وصار مالكًا جديدًا.

حين اختلى برؤساء العمل، بعد أن استفاضوا في الإجابة عن أسئلته المتلاحقة، قالوا له: طلبنا منذ مدة طويلة زيادة أجورنا، لكن لم يُستجب لنا. وعدهم بأن يستجيب حين يتسع الربح. قهقه أحدهم، وقال: هذا ما سمعناه طوال الوقت.

شعر بخجل. غاص في نفسه قليلًا، وقال: ليس الناس سواء.

تدخل آخر ليطلف غلواء ما قاله زميله، فرسم على وجهه ابتسامة عريضة، وقال: مَن جلس ليقضي في الناس لن يظلمنا.

استملح «ناجي» ما نطق به الرجل، وقال: سترون كيف ستختلف الأمور، عليكم بالجد كي يزيد إنتاجنا، وفي هذا حل لكل المشكلات.

وكانوا يعرفون ما على «ناجي» من أقساط، وما تخلى عنه كي يملك ما تركه «ليشع» وأم «بهاء»، فهزوا رؤوسهم وقالوا: لن نبخل أبدًا بأي جهد.

فتح أمامهم باب أمل عريض، حين قال: أجوركم سارية كما هي حتى ينتهي العام، وفي مطلع العام الجديد ستزيد بقدر ما ننتج، وسيكون لكم نصيب أيضًا في الربح.

وفاتحه أحدهم في أمر عامل هرست تروس المعصرة يده، وصار عاطلًا، فقال «ناجي»: هاتوه، وسأجد له موقعًا يفيدنا منه. ثم نظر في وجوههم، وقال في ثقة: اعتبروا أنفسكم شركاء لا أجراء.

صارت هذه العبارة هي عنوان العمل في قابل الأيام. نعم لن يكونوا شركاء في الملكية، ولا في الربح، يأخذون منه بقدر ما يؤول إلى أصحاب كل شيء، لكنهم أيقنوا أنهم صاروا شركاء في المسار والمصير، فأقبلوا على العمل بشهية مفتوحة، وأبلوا بلاءً حسنًا.

وذهب إليه «محمود»، يتقدم خطوة ويتراجع خطوتين. كان قد قضى ليالي طويلة يفكر في همه وحيدًا، ويشرك أحيانًا زوجته «رضيّة» التي كان بصرها يكل، حتى باتت لا تتبين الناس إلا إن اقتربوا منها كثيرًا. قالت له بعد تفكير: حقك انهضم مع الخسيس وابنه. لكنه كان يتعشم في عدل القاضي السابق، وأكثر في المعلم الذي يعلم التلاميذ أن يسلكوا درب الحياة بقلوب نيّرة. قال لها: هو يعرف ما كان لي، ولن يقبل ظلمي مرتين. ردت وهي تحرك جفنيها لعلها ترى وجهه وهو بعيد عنها: لن تخسر شيئًا من المحاولة.

استرجع في الطريق إلى السرايا ما جمعه مع الراحلين «جعفر»

و«عمر»، فجلس يحكي عن الثروة التي ورثوها وضاعت، وعن الكفاح الذي بدأوه حتى كبروا في مكان عادوا إليه خفية، وعن الوعد الذي حط على أكتاف «آل بخيت» كما كان مع «الصوابر». وكلما همّ لينطق بما يريد، توقف الكلام على لسانه، فهرب إلى الحكايات القديمة.

فطن «ناجي» إلى ما يريد، فقال له: لم أنسَ ما لك، لكن الديون تثقل كاهلي.

نظر إليه «محمود» في استعطاف ظاهر، وقال: لا ذنب لك فيما جرى لي، ولو جُدت بشيء فهذا من كرمك.

فكر «ناجي» قليلًا، ثم سأله: هل كنت شريكًا في إدارة المشروع؟

سرى في وجهه ارتياح، وأجاب: نعم، وتعلمت أكثر من طول الانشغال.

ابتسم، وقال: سأوكل إليك الإدارة، ولك أجرها، ومن فائض الربح، سأسدد لك نصيبك القديم تباعًا.

هب واقفًا من فرط الفرحة، وقال: أنا لها من الآن.

وقال «ناجي» لنفسه، وهو يودعه عند باب الحديقة: لا يخلص أكثر من صاحب الحق.

وكان «محمود» عند حسن الظن، فشمر عن ساعديه، وقدح ذهنه، فابتكر الكثير من الأساليب في الإدارة، واقترب من العمال، يمد يده معهم، ولا يكف عن إبداء النصائح، فإن أعطى أمرًا جعله هينًا، حتى قال «ناجي» عنه: الهيبة يصنعها العدل والفهم، وليس البطش

والاستعلاء.

وسمعته «عبلة» فقالت: لم نعرف عن «آل بخيت» سوى الإخلاص.

(45)

لم يبقَ أمام «ناجي» كي يقبض على كل شيء سوى أرض الانتفاع. استعان بزميله ابن مدير المديرية، فقال له: لا تحمل همًا، سيزكيك أبي، لكن عليك السعي عند أصحاب القرار في «القاهرة».

وعمل بالنصيحة، فسافر على عجل، ولم يرجع إلا بعد أن قطع شوطًا بالغًا في الطريق إلى الأرض البراح. قدم الطلبات مشفوعة بمكانته، وتاريخ أسرته المشهود مع الأرض. دفع الحلوان لمَن بيده الأمر، فطمأنه إلى أن كل شيء سيصير إليه، وهو ما كان.

حين تسلم الأرض خصصها لخدمة المعاصر والطاحونة، فزرع القصب والقطن والقمح. أطلق أولاد «أم الخير» ليجوبوا القرى جامعين المزيد. كان «محمود» قد وزع العمال على ورديات تعمل ليل نهار، حتى زاد الإنتاج، فلمّا فاض عن قدرة الشارين على استيعابه، نصحه قريب له من «القاهرة» بفتح سوق جديدة، وقال: لتكن لك وكالة، تباع فيها بضاعتك، فهذا أجدى.

استملح الفكرة، وقال: عما قريب يقف القطار في قريتنا، ويسهل نقل بضاعتنا.

وكان يعرف ما يفكر فيه «رافع» ففاتحه في أمر الوكالة، فقبل مسرورًا، وقال: أنا منكم في النهاية. ابتسم «ناجي» وقال: سأجعل عليها ذا خبرة يديرها، وتكون مساعده إلى أن تتقن المهمة.

رغم انشغاله بمشروعه الذي يتسع بمرور الأيام، لم يترك «ناجي» المدرسة. وزع وقته بينها وبين المشروع والأرض. وحين تأتي إجازة الصيف كان يسافر إلى «القاهرة» ليرى سير العمل في الوكالة، التي راجت بضاعتها بين الناس، فقصدها تجار الجملة والتجزئة والأفراد العاديون، يحملون منها بلاليص العسل، وصفائح الجبن، وأجولة الدقيق.

انتظم في دفع ما عليه من ضرائب، وكان يقدر بدقة نصيب الزكوات والصدقات في ماله، فالتف أهل القرية حوله، بمَن فيهم بعض «الجوابر»، الذين سلموا بأن لا أحد منهم له قِبَل بهذا الشاب الطموح، الذي فاق أجداده في استعادة المجد الغابر، وفي كسب قلوب الناس.

واعتادت أقدام أهله من «الصوابر» أن تطأ شوارع القرية، يأتونها تباعًا، فيحرص هو على أن يمشي بينهم معتدًا بنفسه، وهو يذهب إلى المسجد والأرض المزروعة والمصانع، فإن قابله أحد من «الجوابر» أوقفه ليتعرف الناس عليه، قائلًا: هذا عمي.

لم يفارق هذا الوصف لسانه حتى عن فتيان «الجوابر»، وكان يقول لنفسه حين يرى الأثر الطيب لما يفعله: تأليف القلوب قبل تنفيع الجيوب.

وحين يقرأ آثار الضغينة التي صنعتها الحكايات القديمة على وجوه البعض منهم، كان يقول: المعاملة الحسنة تذهب البغضاء ولو على مهل.

وسمعته «عبلة» فقالت بصوت قاطع: مرضى القلوب لا تنفع معهم

الحسنى.

وتطلع إليها، ليعرف ما يدور برأسها، فقالت: إياك أن يغيب عنك الحذر.

(46)

لا تجري الأيام كما دبّر الحكماء سيرها في رؤوسهم. هناك دومًا مساحة لا تزول بين الرغبة والقدرة، وبين الخيال والواقع. لا حدود فاصلة بين الخير والشر حتى في النفس الواحدة، فما بالنا بأنفس عديدة. توجد على الدوام زاوية عمياء يمرق منها السهم بغتة إلى قلب المطمئن، فيصيبه أو يرديه قتيلًا.

هناك في عالم الغيب ما تفجع له النفوس التي استكانت للحاضر، وفي الأحلام والرؤى تنبيه لمَن آمن بالعطايا التي يهبها الله في ساعات النوم.

(47)

نامت «عبلة» مطمئنة إلى أن ابنها صار كبيرًا، تسبق سمعته اسمه في كل الزمام. يأتي الناس على ذِكره حين يتحدثون عن الوجاهة والاستقامة، أو عن الكفاح والإخلاص. لم تنسَ كعادتها أن تتمتم بالدعاء له، بعد أن تكر السبحة بين أصابعها، ثم تضعها تحت وسادتها، وتذهب إلى نومها، موتها الصغير.

كانت في الأيام الأخيرة كثيرة الحديث عن الموت، حتى انقبض قلب «ناجي»، والتفت إلى «نوارة»، وقال: لا ينشغل بالموت هكذا إلا المقبلين على الرحيل.

ضربت يدها بصدرها، وقالت: لا ينسى التفكير في الموت إلا مَن مات قلبه.

وتذكرت جدتها التي ظلت عشر سنوات لا حديث لها إلا عن أهل القبور، وكان مَن حولها ينامون ليلهم وهم يعتقدون أن الصباح لن يأتي عليها بينهم، ثم يستيقظون فيجدونها تدب في البيت كأن الشباب قد عاد إليها.

ولمّا قرأت في عيني «ناجي» الخوف، قالت له: مثلك لا يجب أن يجزع لأمر لا مفر منه.

هز رأسه، وقال: أمي وتد كلنا ندور حوله، ونمسك به، وأخشى إن غاب نهتز جميعًا بلا مستقر.

لكن «عبلة» استيقظت في هذا الصباح لتحدثه عن شيء آخر. كان وجهها منقبضًا، وفي عينيها زيغ وأسى. قالت له وهو يطبع قبلة على جبينها: اعرف مكان الخنجر المخبوء قبل أن يطعنك.

نظر إليها بعينين سكنهما الوجل والحيرة، وقال: لا تخلو الدنيا من الخناجر.

- تعرف أن بعض ما أراه في منامات الليل يجري بيننا.

- بعض الأحلام تنفيس عن مخاوف، وبعضها هلاوس، وهناك ما نعجز عن تفسيره.

- يبدو أننا مقبلون على أمر غريب، لم ترَه القرية من قبل.

نظر إليها مستفهمًا، فواصلت: رأيت رجالًا يسرعون نحو عظام

قديمة في المقبرة، عيونهم حمراء، يتطاير منها شرر فوق البيوت والزروع، وأذرعهم ممدودة إلى أعلى، بينما تقبض أيديهم على شعل نار وعصي وسكاكين وبنادق.

ابتسم، وقال: لا يتصارع الناس على العظم.

هزت رأسها في أسى، وقالت: ما أشقانا هنا أكثر من حكايات الذين ذابت عظامهم تحت التراب!

(48)

لم تنسَ خادمة الزاوية ما فعله بها «رشدان». كانت تترك «هنيّة» سابحة في خواطرها الشجية، وتذهب إلى قبره كل ليلة. تجلس فوقه، بعد أن تبصق على الشاهد المدون عليه اسمه باعتباره عمدة القرية وكبير «آل جابر». تفرد ساقيها، وتطوح قدميها قائلة: أخيرًا صارت لك فائدة يا المجحوم.

طالما حلمت برجل تروق له، فيعتقها من الخدمة، ويدفئ فراشها البارد، أو يطفئ حرقتها. حين تسمع شدو «هنيّة» الذي لا تفهم أغلبه، تتخيل أنها تنادي حبيبًا قد هجرها إلى غير رجعة. تنظر إلى شعر «هنيّة» الأبيض الذي يطل من تحت طرحتها السوداء، وتقول في سرها: جاءتها الجذبة بعد أن ذاقت طعم الرجال.

وتتذكر «عمر» بجسده المتين، وطلته الجريئة، وتقول: لا شك أنه قد أشبعها، فمَن لي برجل، ولو كان نصفه أو ربعه. لكنها تغوص خائبة في أحزانها، متذكرة ما فعله بها «رشدان»، فقد أساء إلى سمعتها، فجفل منها الرجال. ورغم أنهم جميعًا قد تأكدوا من براءتها، لكن

لم يكن من بينهم مَن يتحمل حتى عبء الشكوك التي تبددت. تبدو متيقنة من أن «رشدان» يتفافز الآن في نار جهنم. يرضيها هذا بعض الوقت، إلا أن السخط سرعان ما يجتاح نفسها، فما فائدة أن يتعذب هو في الآخرة، بينما هي تتعذب في الدنيا؟

غلبتها الرغبة في الانتقام، لكن كيف تنتقم ممن مات. لا شيء يبقى منه في الدنيا قد تصب عليه جام غضبها. لعنته سرًا وجهرًا، حتى كان صوتها يبلغ أحيانًا سمع «هنيّة»، فتنظر إليها صامتة، وتواصل الشدو الحزين.

تمشي بين القبور فتصل إلى مكان تُرك فيه فأس وإزميل وشاكوش وكوريك. أشياء يحتاجها الناس كلما مات أحد كي يحفروا قبره. تمسك كلًا منها في يدها، وترفعه إلى أعلى، ثم ترمي بصرها نحو قبر «رشدان»، وتقول: حتى عظامك البالية تُنجّس المكان.

وأضناها السهاد ذات ليلة، نامت فيها «هنيّة» وارتفع غطيطها يكسر الصمت المقيم. انسحبت في هدوء من جانبها، ملتحفة بظلام لم تفلح النجوم الساهرة محلها في تبديده. سارت نحو الأدوات المركونة، والتقطتها بين يديها، ومضت نحو قبر «رشدان». كانت في ليالٍ سابقة، تمد يدها وتهز حجرًا بارزًا في جداره، حتى كاد ينخلع. وصلت إلى القبر. تلفتت حولها فتأكدت أنها الوحيدة هنا. جلست القرفصاء، وضربت الحجر بالإزميل فتهاوى إلى جانبها. أعملته مرة أخرى في الحجر الذي يليه، فلحق بسابقه، مثيرًا بعض الغبار. شدت طرحتها ومسحت الغبار من فوق جبينها، وواصلت الهدم في غلٍّ شديد، منحها طاقة جبارة.

لم تمضِ سوى ساعتين حتى كانت قد أزاحت الأحجار من مكانها. نظرت إلى الشاهد، وضربته بالشاكوش في قوة، فتحطم محدثًا صوتًا عاليًا. وقفت مذعورة، تتلفت حولها، لكن الصوت لم يبلغ أحدًا. حتى «هنيّة» كانت لا تزال تغط بلا انقطاع.

انكشفت لها أرضية القبر لينة، فرفعت الفأس وضربتها فيها فانغرست حتى ناصيتها. سحبت التراب نحو الأحجار المبعثرة، وواصلت الضرب والسحب في تفانٍ، حتى صارت أمامها حفرة. انتابها إجهاد، وتعب فيها الذراعان لكن لم يكن بوسعها إلا أن تواصل. واصلت، بعد أن استعادت همتها، حتى علقت الفأس بالكفن، شدته في عنف فتمزق، ثم حفرت إلى جانبيه حتى خلص لها بين التراب. رفعته في اشمئزاز بالكُريك، وكان هيكلًا عظميًا نُخر فيه قفص الصدر والأطراف، بينما كانت عظام الجمجمة والفخذ والساقين لا تزال قوية. مدت يدها ونزعت بقية الكفن، ثم سحبته إلى أعلى. جرّته بعيدًا. نظرت إليه تغالب خوفها، ثم انهالت على الجمجمة بالشاكوش تحطمها. فتتت الساقين، وطحنت العظام البالية، ثم بصقت عليه.

كان نور الفجر الوليد قد شقشق فوق الزروع. رفعت هامتها إلى بعيد، فإذا بها لا تزال وحيدة. بين القبور حفرت سريعًا، ودفعت العظام المهشمة إلى الحفرة الجديدة، ثم أهالت عليها التراب. أعادت الفأس والإزميل والشاكوش والكُريك إلى مكانها. وهرعت نحو الزاوية. في جريها الملهوف لمحت القبر المنبوش في قسوة، فبصقت عليه من جديد. خلعت ملابسها ونفضتها بقوة حتى تساقط عنها التراب، وكذلك فعلت بطرحتها. ارتدت ما خلعته، ودخلت إلى جوار

«هنيّة». دست رأسها في الوسادة، وراحت تبكي وتبتسم في آن.

لم تنم رغم التعب الشديد، شاردة في خواطر يمتزج فيها الخوف بالاطمئنان، والقلق بالسكينة. حدثتها نفسها أن تترك كل شيء وتمضي. تشرق الشمس فلا يجد لها أحد أثرًا في القرية. لكن رغبتها في أن ترى الفزع والغضب في عيون «الجوابر»، والشماتة في عيون غيرهم، جعلتها تبقى.

وبينما هي متقلبة بين تفكير في الفرار، وآخر في الثبات، استيقظت «هنيّة». ما إن رأتها تفتح عينيها، حتى تصنعت النوم، أخرجت شخيرًا عاليًا، لكنها شعرت بإصبع تنغرس في كتفها. أدركت أن مخدومتها تريد منها شيئًا كعادتها كل صباح، لكنها سمعتها تقول: أشم رائحة الموت.

غالت في انقباض جفنيها، ورفعت شخيرها أعلى مما كان. لكن «هنيّة»، أعادت غمزها، بقوة هذه المرة، وقالت لها: كأن ريحًا قد غبّرت المكان أثناء نومنا.

تصنعت التثاؤب، وقالت بصوت متقطع: لم أدرِ إن كانت الريح قد هبت، فقد نمت مثلك طوال الليل.

عطست «هنيّة»، وقالت: هاتي دورق المياه. أخذته بين يديها، وسحبت جرعة طويلة، حركتها بين شدقيها، ثم دفعت الماء إلى جوار الحصير. صبت قليلًا في راحتيها، ومسحت وجهها، وسألت وهي تنظر إلى باب الزاوية: من أين أتى هذا التراب والباب مغلق؟

اغتصبت الخادمة ابتسامة من جوف خوفها وقلقها، وكانت تعرف

الأوقات التي تسترد فيها «هنيّة» وعيها كاملًا، قبل أن تغيب في مرضها من جديد؛ لذا قالت لها: ربما تسرب من شقوق الجدران أو خروم الباب.

وبينما هما تتحادثان سمعتا صرخة في الخارج. كانت الخادمة تعرف سببها، بينما قالت لها «هنيّة»: اخرجي لتعرفي ما جرى. نهضت، ودفعت قدمين مثقلتين بالوجل والتردد، حتى بلغت الباب. فتحته على مهل، ومدت رأسها لترى، فإذا برجل يقف على رأس القبر المنبوش، ينظر إليه في عجب، ويضرب كفًّا بكف. نادته الخادمة: مَن أنت؟

حين سمع صوتها جرى نحوها، وهو يقول: ما رأيته لا يُحكى.

تصنعت الجهل بما يقول، وصرخت فيه: قطعت نومنا، فاذهب إلى حال سبيلك.

أزاحها من طريقه حين رأى «هنيّة» جالسة في هدوء، ترمي بصرها نحو المقبرة، غير مشغولة بشيء. وقف الرجل عند باب الزاوية، وقال لها في جزع: نبشوا قبر أخيك.

كانت الخادمة قد جرت نحو القبر، فعادت تقول، وهي تتصنع الجزع: ما قاله الرجل صحيح.

قامت «هنيّة» متثاقلة حتى بلغت الحفرة. غرست عينيها في قعرها اللدن، وقالت: يستاهل.

عادت إلى الزاوية، فلم يجد الرجل أمامه سوى الخادمة، فصرخ في وجهها: أين كنتِ حين حدث هذا؟

غلبت ارتباكها، وقالت: كنت نائمة.

تركها الرجل وأسرع نحو القرية. كانت الشمس قد أشرقت فوق البيوت، وأخذ الفلاحون يسعون إلى الحقول، على أكتافهم الفؤوس، وفي أيديهم أرسنة مواشيهم. أوقف أول مَن قابله، وحكى ما رآه بصوت متقطع من فرط لهاثه. وسمعه التالي، فتوقف، وهكذا فعل الثالث. سرى الخبر خلفهم إلى البيوت، حتى هرع كثيرون نحو المقبرة.

قال أحدهم: مصيبة لم تحل علينا من قبل.

تدخل آخر: لا بد من إبلاغ العمدة.

كان الثالث بينهم من «الجوابر»، فصرخ في حدة: هذا فعل تطير له الرقاب.

ولمّا جاء العمدة «محبوب»، غلب مسرته، وأبدى جزعًا مفتعلًا، وسأل عن الرفات.

داروا يمنة ويسرة باحثين عن شيء، لكنهم لم يجدوا، فقال أحد «الجوابر»: مَن نبش لم يتركه، أراد أن يلحق بنا عارًا.

نظر إليه «محبوب»، وقال من طرف لسانه: العار لحق بنا جميعًا.

لكن «الجوابر» الذين حضروا، تبادلوا النظرات في غيظ، وسأل أحدهم العمدة في تحد: مَن في صالحه أن يسيء إلينا يا عمدة؟

هز العمدة رأسه، وأجاب: لا أدري.

زاد الرجل في تحديه، وقال: أنت تدري، وكل «الصوابر» يدرون.

كان الخبر قد وصل إلى «ناجي» فتذكر ما قصته عليه أمه من رؤياها، وقال: كلما أوصدنا نافذة للشر انفتح لها باب. وأوصته «عبلة» أن يتصرف بحكمة، فأسرع إلى المقبرة قابضًا على وصيتها، حتى بلغها وهو يلهث. كان الخلاف بين العمدة و«الجوابر» قد بلغ مداه. اتهمه بعضهم صراحة بأنه يعرف مَن ارتكب هذه الفعلة الشنيعة، إن لم يكن هو نفسه وراءها، ففار الدم في عروقه، وقال: لا أعجز عن مواجهة أحيائكم حتى أواجه موتاكم.

وقبل أن ينطق أحد «الجوابر»، قال «ناجي»، وهو يرفع كفه في وجه الواقفين حتى يهدأوا: هذا حديث لا يليق بالعقلاء.

نظروا إليه في استهانة، وقال أحدهم: لو قتلتم واحدًا منا لكان أخف علينا مما جرى.

رد «ناجي» في هدوء: الله بيني وبين الدم، وأنت تعلم.

وأراد أن يُفرغ شحنة الغضب بعيدًا عن المواجهة السافرة، فرمى بصره نحو القبور، وقال بذهن قاض: الأرض مروية حول المقبرة، ولو أن نابش القبر قد ذهب بالرفات بعيدًا سنعرف.

ومشى نحو الزرع، وهم يتبعونه. وقف على حافته، ومد بصره فلم يجد آثار أقدام ذاهبة، لإنسان أو حيوان. دار حول المقبرة ليرى أكثر، فإذا بكل شيء على حاله. التفت إلى الذين يتبعونه، وقال: فتشوا بين القبور، فربما نجد الرفات.

وقلّبوا أبصارهم، دون أن يزول عنهم العجب والغضب، حتى صاح أحدهم: يبدو أنه هنا.

كان قد لمح طرفًا صغيرًا من الكفن انحسر عنه التراب. هرعوا نحوه وهو يشير إلى ما رأى. فلمّا استقر بصر «ناجي» عليه، قال: احفروا هنا.

وقال «محبوب»: هنا تراب جديد.

كانت الخادمة تمد أذنيها لتسمع ما يجري، فانكمشت مكانها متحسرة على أنها لم تُحسن إخفاء جريمتها على نحو تام، ثم تواسي نفسها بأنها حققت ما أرادت، وألحقت بالميت وأهله فضيحة ستلوكها الألسن كثيرًا، وتُضَم إلى الحكايات الأليمة، التي تُبقي جذوة الغل مشتعلة. لكنها فزعت حين جاءها صوت أحدهم: وجدناه. وفزعت أكثر، حين جاءتها صرخة: عظامه مهشمة. هناك مَن أراد الانتقام.

مدّت بصرها من الباب الموارب، لتجد بعض الرجال قد تقرفصوا عند الرفات، ثم رأتهم وهم يرفعونه، بينما هناك بينهم مَن يتحجر في عيونهم الدمع. نظرت إلى ثيابها لتتأكد أنه لا يعلق به تراب بعد. وكذلك فعلت بحذائها، أمسكت به ونفخته في قوة، وبينما تعيده إلى مكانه لمحت آثار التراب في أظافرها. دفعت أصابعها إلى فمها، تقضم كل ظفر تِباعًا، ثم جمعت الأظفار، ودستها في شق صغير بالجدار. صبت حفنة ماء في خرقة ومسحت أطراف يديها جيدًا، حتى زال عنها أي أثر لفعلة الليلة الفائتة.

قبل أن يعيد الرجال الرفات إلى مكانه، قال أحد «الجوابر» في غضب، وهو يتوجه إلى العمدة: هذه جريمة لا يجب أن يفلت فاعلها.

قال «ناجي» في هدوء: ندفنه ثم ننظر في هذا الأمر.

لكن «الجوابر» أبوا دفن رفات «رشدان»، وأصروا على أن يبقى قبره محفورًا على الهيئة التي هو عليها، وأن تظل الحفرة الأخرى على حالها. تحدثوا عن أدلة يجب ألا تُطمس، وعن شكوك يجب أن تظل قائمة إلى أن تبددها الأدلة الدامغة.

ولم يجد العمدة بُدًّا من إبلاغ قسم الشرطة نزولًا على رغبتهم، فجاء الضابط ومعه عساكره. رمى بصره إلى الرفات ثم رفعه سريعًا، ووضع يده على أنفه ليمنع رائحة الموت من التسلل إلى أعماقه، وقال: لم يمر عليّ مثل هذا من قبل.

وفتح التحقيق في السلاملك، وسأل الضابط أهل «رشدان» عمن يشكون في أنه ارتكب هذه الجريمة. تبادلوا النظرات في توجس، ثم نطق أحدهم قائلًا: ليس لنا أعداء في القرية إلا «الصوابر».

نظر إليهم الضابط في غيظ، وقال: حددوا مَن تتهمونه.

وقبل أن ينطق أحدهم، قال الضابط: أليس للمقبرة حارس؟

هزوا رأسهم لينفوا هذا، بينما قال أحدهم: لا يوجد هناك سوى زاوية، كان لها حارس، لكنه تركها، ولم تبقَ فيها سوى امرأتين، أخت الميت وخادمتها.

طلب الضابط أن يأتوا بالمرأتين، فلمّا جلس إلى «هنيّة»، ونظر إليها في إمعان، استغرب هيأتها، فقال له أحدهم: إنها مجذوبة، وليس مثلها يفعل هذا.

وغلبت الخادمة اضطرابها، وكانت قد اعتادت مثل هذا الموقف، فقالت في حسم: كنت أنا ومخدومتي نائمتين.

حاورها الضابط وداورها، فلم يستطع أن يتبين من أقوالها شيئًا ذا بال، ثم صرفها بعد أن قالت: قضيت حياتي في خدمة الراحل وأخته، ويعلم الله مدى حزني على ما جرى له.

وحين تم توجيه الاتهام إلى «محبوب» و«ناجي» جيء بشهود على أنهما لم يفارقا داريهما في الليلة الفائتة. وتضامن الخفر مع بعضهم البعض. غارت الأدلة في إفادات الحاضرين، فلم يجد الضابط بُدًا من أن يأمر بدفن الرفات، وسأل رجالًا من «الجوابر»: أليس للراحل أعداء في بلاد مجاورة؟

ألجمهم السؤال، فقد كان أعداؤه كُثر، من فلاحي القرية الذين طالما اشترى منهم بثمن بخس، أو خصم من أجور كدحهم في أرضه، كما يحلو له. تراءت في مخيلاتهم صور المظلومين وكانوا كثيرين، فقالوا: هذا أمر يحتاج إلى تدقيق.

ابتسم الضابط، وقال: خذوا وقتكم في التفكير، فإن سمعتم عن شيء، أو سكنت رؤوسكم شكوك في أحد أيًا كان، فباب القسم مفتوح أمامكم.

لم ينتهِ الأمر في أذهان «الجوابر» عند هذا الحد، فعجزهم عن الإتيان بدليل الآن، لا يعني عدم قدرتهم على بلوغه غدًا. وحتى لو لم تتهادَ إليهم إجابة عن الأسئلة التي وخزت رؤوسهم، فإن شكوكهم وحدها كافية بأن تشغلهم زمنًا لا يعرفون له حدًا. لم تكن ظنونًا وهواجس فقط، بل شعورًا دفينًا بالعار، لا يعرفون له مصرفًا. كان بعضهم قد طاله ظلم أيضًا من «رشدان»، وهو إن كان أشد وأنكى لأنه من قريب، فهذا لا يمنعهم من الشعور بالمسؤولية حيال ما جرى،

بل الرغبة في الثأر له. هو لم يرَ مَن عَبِث به، ولم يدرِ أصلًا بهذا العبث، لكن مَن هم على قيد الحياة، رأوا القبر المنبوش، والرفات المهشم، ليصير كابوسًا أسود يطاردهم في منامهم.

وحتى النصارى الذين كان ظلم «رشدان» لهم أشد، ومن قبله بعض أجداده الراحلين، تأثروا كثيرًا بما رأوا وتمنوا لو لم تكن حرمة الموت قد انتهكت إلى هذا الحد.

(49)

لم يكن الماء العكر الذي يجري في أوصال الزمن بين «الصوابر» و«الجوابر» بحاجة إلى غبار جديد يلقى إليه، لكنه هذه المرة لم يكن مجرد غبار كنسته ريح الحنق المحمول على أكتاف حكايات تتناسل كالبق، بل كان ردمًا هائلًا، صنع سدًا عاليًا حال بين النفوس التي تاقت إلى أن ترفع الجسور والجدران، وتفتح مجرى جديدًا رائقًا، لكن الأيام تظل دومًا خبلى بما لا يخطر على بال.

(50)

لم ينسَ «الجوابر» ما جرى، ولم يغفل «ناجي» ما تغلي به نفوسهم من غل. أدرك أن صمتهم لا يعني الصفح والنسيان، إنما هو انتظار مَن يتحين الفرصة لينفذ إلى ما يريد دون تردد. وأطلع أمه على ما يدور في ذهنه، فقالت له محذرة: بقية الرؤيا لم تأتِ بعد.

وكررت تحذيرها في الأيام اللاحقة، ثم وجدها تسأله: ألا يوجد لي حفيد في الطريق؟

ابتسم، وقال لها: تساور الشكوك «نوارة» أن في بطنها شيئًا، لكني

أعتقد أنها تتحدث بما تتمناه.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسأله عن هذا، فانتبه، وقال لها: ما أسعد مَن تهدهده سيدة الزمام.

ابتسمت، وقالت: لتبقَ عيناك مفتوحتين عليه حين يأتي، فأمثال مَن تربصوا بجدك القديم لا يزالون يدبون بيننا في شوارع هذه القرية التعيسة.

كانت هذه وصيتها الأخيرة، ففي اليوم التالي رآها تذوي. غارت من وجنتيها حمرة الحياة البهيجة، وحلّ مكانها شحوب لم يقدر على أن ينزع منه الاطمئنان الذي سكنه على مدار السنين. حسبها مطمئنة إلى رؤيا جديدة بددت الهواجس والمخاوف التي طالما تحدثت عنها في الأسابيع الأخيرة، لكنه كان اطمئنانًا إلى شيء آخر.

قالت له ذات صباح: كم يسعدني أن أترك الراية مرفوعة.

وخزه قولها، فمد أصابعه تتخلل شعرها الأبيض، وقال:

- رايتنا مرفوعة ما دمتِ فينا.

- أحط نفسك بأهلك، فمَن له ظهر لا يُضرب على بطنه.

وسبح في ظنون لا نهاية لها، سرعان ما أصبحت في اليوم التالي حقيقة مرة، خطفت من حياته أقوى سند اتكأ عليه. كان لا يزال نائمًا، حين أيقظته الخادمة وهي تقول في جزع: سيدتي لا ترد. خلع نفسه من الفراش سريعًا، وجرى نحو غرفتها. كانت ممددة على جانبها الأيمن في فراشها، ساكنة كأنها صارت جزءًا منه. ناداها وهو عند باب الغرفة فلم ترد. كرر النداء فلم يسمع منها صوتًا، ولم يرَ

حركة. قطع خطوات إليها، ومد يده في رفق، وغمزها في كتفها، وهو ينادي، فلم تستجب. جثا على ركبتيه أمام السرير، وأمسك يدها، فإذا بالنبض غائب. رمى رأسه على صدرها، وغمس أذنه في اتجاه قلبها، فلم يسمع شيئًا. هزها خفيفًا، ونظر في جزع ووهن إلى سكونها الأبدي. مد أصابع إلى جفنيها وأغلقهما على مقلتين انطفأ بريقهما، وأجهش بالبكاء الحرور. يبكي رحيلها، والفراغ الكبير الذي تتركه في حياته، وشعر لأول مرة باليُتم، رغم أنه قد صار كبير القرية.

نصب الخيّامية سرادقًا واسعًا في حديقة السرايا. وأرسل «ناجي» أولاد «أم الخير» وبعض فلاحي أرضه إلى أهله في القرى المجاورة، وأبرق تلغرافات إلى الأباعد منهم. وكعادة الناس في مثل هذه المناسبة، ذُبحت عجول وخراف لتقديم طعام إلى الآتين. توافد أهل القرية، وعمال المصانع، وزحف عمد القرى ومشايخها على دواكير وأحصنة، وكثير من فلاحيها يمتطون الحمير وعربات الكارو. كان السرادق يمتلئ، وينفض ليعمر من جديد، ومقرئو القرآن يسرعون بين العُشر وأخيه، ليعطوا فرصة لمن ينصرف كي يخلي مكانًا لغيره.

ومع انشغاله في مصافحة القادمين والذاهبين لم ينسَ «ناجي» أن يعد رجال «الجوابر» الذين أتوا للعزاء. كانوا قلة، رغم أن الراحلة كانت كبيرتهم، ولم تُسئ إلى أحد منهم في أي يوم. بعضهم لم ينسَ لها أنها مالت إلى أهل زوجيها المتعاقبين. وبعضهم كان لا يزال مغبونًا مما جرى لقبر «رشدان».

انفض الغرباء، واستمهل «ناجي» أهله كي يبقوا أيامًا معه ليؤنسوه، فنزلوا على طلبه، وازدحمت بهم القرية فرآهم الناس

فأكبروهم مرحبين. أما «الجوابر» فتهامسوا عن ذلك الذي يستعرض قوته مستغلًا وفاة أمه. وقال أحدهم: رحلت مَن كنا نتغاضى عن أفعال «الصوابر» لأجلها.

رد آخر، وهو يقلب ناظريه في وجوه الجالسين في سلاملك «بهاء»: صار أغلب المال معهم، وفي يدهم العمدية.

تدخل ثالث: لسنا الطرف الضعيف ورجالنا أكثر.

سخر منه رابع، وقال: ضاقت الشوارع بالذين حضروا عزاء أمه من أهله.

قهقه خامس، وقال: لا يخيف رجال لا يظهرون إلا في المناسبات.

وتطلعوا إلى عجوزهم، وكان ينصت إليهم صامتًا، فقال: لا تستعجلوا الشر، فإن أتى حتى أبواب بيوتكم ردوه بلا خوف ولا تردد.

لكن الشر لم يبلغ الأبواب، إنما وُلد في لحظة كانوا قد تناسوا قدومها. لحظة فاصلة بين زمنين وعهدين، لم يتخيلوا أنها ستهجم عليهم بغتة هكذا، قبل أن يحكموا التدبير في الثأر لما جرى لرفات رجلهم.

(51)

لم تكن جثة «عبلة» قد خلقت دودًا لينهشها، حين وصل إلى السلاملك ظرف مغلق، ما إن فضه «محبوب» حتى سقطت الأحزان من رأسه، وصاح: اليوم فقط يسعد «الصوابر» في قبورهم.

وأسرع الخطى إلى السرايا، فوجد «ناجي» جالسًا في بهو الطابق السفلي يحتسي فنجانًا من قهوة سوداء، يرتشف منه على مهل، غارقًا في حزن دفين. وقف أمامه، وقال له متهللًا: آن لك أن تنسى حزنك ولو ساعة واحدة.

تطلع إليه بعينين كسيرتين، وقال: لم يعد لشيء طعم بعد رحيل أمي.

مد إليه الخطاب، وقال: معل هذا سيسعدها في قبرها، فقد كانت تنتظره معلنا.

قرأ «ناجي» بإمعان، ومع توالي السطور كان الأسى يتساقط من وجهه، فلمّا انتهى، قال: اليوم فقط اكتمل تحقيق الوعد الذي أضنى حمله نفوس أجدادنا.

ثم رفع سبابته، وقال في حزم: اكتم الخبر عن أي أحد، حتى زوجتك، وشيخ خفرك.

وألقى نظرة من النافذة إلى المكان الذي ستقام فيه محطة القطار، وقال: لم أتخيل اسمًا غير هذا يكون عنوان قريتنا إلى الأبد.

كان المهندسون والعمال قد عادوا إلى تمتين العوارض ومد القضبان، فقام إليهم، ومعه «محبوب» ليسألهم عند موعد إنشاء المحطة. قال له أحد المهندسين: بعد خمسة أيام.

أطلعه على الخطاب الذي وصلهم، فابتسم، وقال: وصلنا مثله قبلكم.

دعاهم «ناجي» إلى تناول الغداء معه في السرايا، فقبلوا دعوته.

وبعد أن فرغوا من طعامهم، قال لهم بينما الخادمة تقدم إليهم الشاي: يُفضل أن تكتبوا إلى القسم ليرسل ضابطًا وعساكر يوم البدء في تشييد المحطة. تبادلوا النظرات متعجبين، ولاذوا بالصمت. لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يصدقهم القول فأخبرهم بكل شيء. استعرض تاريخًا طويلًا في دقائق، ثم قال: إعادة اسم القرية القديم قد لا يمر دون متاعب.

ابتسم كبير المهندسين وقال: ستوضع اللافتة بعد أن نفرغ من إنشاء المحطة. معنا وقت لننظر في تجاوز أي مشكلة.

ارتاح «ناجي» لهذا، وقال لنفسه: الفرصة واسعة كي أرتب حضور أهلي أجمعين.

أرسل إليهم خطابات يطلب منهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد ليأتوا إلى القرية لحضور مناسبة طيبة، فجاءته الردود تباعًا تُنبئه بأن الرجال جاهزون لأي شيء.

(52)

انتظر «ناجي» على أحر من الجمر بلوغ الصفحة الأخيرة في كتاب الوعد القديم. يصعد إلى سطح السرايا كل صباح، ليرى قضبان الحديد قد امتدت إلى الأمام، فيغمض عينيه لتتهادى لها لافتة عليها اسم «الصابرية». يبتسم مسرورًا، ثم يغرق في حزن حين يتذكر أن «عبلة» لم تعش لترى هذا اليوم المنتظر.

وبينما هو على حاله، صعدت إليه «نوارة»، وقالت: لا أعرف إن كان خبري سيفرحك أم يحزنك.

تطلع إليها في توجس، وقال: هاتي ما عندك، فيكفي ما أنا فيه من انتظار.

طأطأت رأسها قليلًا، وقالت في خجل: تأكدت من حملي، كل أعراضه هجمت فجأة.

ابتسم، وسألها في تعجب: ما الذي يُحزن في خبر مثل هذا؟

أبعدت عينيها عن عينيه، وقالت: سآتيك ببنت. وضعت القمح والشعير، فنبت الأخير.

نهض إليها، وأخذ رأسها إلى صدره، وقال: شاء الله أن ينعم عليّ بـ «عبلة» جديدة.

خلعت رأسها من صدره، وقالت: البنت لها رزقان.

رد في ابتهاج: رزقها أتانا قبل أن تخبريني، فلم تبقَ سوى أيام وتهب علينا رياح السعادة الغامرة.

(53)

قبل أن يهبط «ناجي» من فوق سطح السرايا اقتحم أذنيه صراخ عالٍ. تلفت حوله ليعرف من أين يأتي، فوجده يمزع الهواء الفاصل بين مكانه والزاوية. هبط مسرعًا، وخلفه زوجته، ليجد خادمة أمامه، تقول له في أسى: راحت المبروكة.

سألها: أتقصدين..؟

لم تدعه يُكمل، وقالت: ماتت الشيخة «هنيّة».

اجتمع الناس عند الزاوية، يلقون نظرة أخيرة على الراحلة. كان

«الجوابر» قد سبقوا الجميع إليها، فقد كانت قبل الأخيرة من أهل العز والجاه بينهم، وتركت كل هذا في لحظة فارقة في تاريخ القرية كلها. تطلعت النسوة إلى وجهها، وكان يكاد يضيء من فرط السكينة والراحة الأبدية.

ولمّا رأتها إحداهن على هيئتها هذه أطلقت زغرودة مدوية، فهمهم الرجال في الخارج منكرين. طرق أحدهم باب الزاوية، وقال غاضبًا: اخرسي يا مجنونة.

أتاه صوت زاعق من الداخل: هكذا يودع الناس أولياء الله.

خرجت إحداهن إلى الرجال، تغطي وجهها بطرحة رأسها. نظرت في وجوههم، وقالت: آن للجوابر أن يفخروا بولية لله كانت في نسلهم. واستحسن الرجال ما سمعوا، فصمتوا، تاركين الزغاريد تدوي من داخل الزاوية، تغطي على صوت أحدهم، الذي قال في ثقة: نبني لها مقامًا. مدوا أبصارهم إلى باب الزاوية الموارب ليروا التي تفرح النسوة بموتها، لكن أحدهم أسرع، وأغلق الباب، وقال: سترها الله حية، فلتذهب إلى ربها مستورة.

غسّلتها الخادمة ومعها امرأة، ولفوها في الكفن، وسكبوا فوقه قارورة عطر كاملة، ثم رفعنها إلى الخشبة، وكانت خفيفة كأنها ريشة تدفعها عاصفة. كان بعض الرجال قد انهمكوا في حفر قبر لها إلى جوار قبر «رشدان»، فحين رفعوها نحوه، توقفت الخشبة فوق الأكتاف، وثقل الجسد الخفيف كأنه صخرة ضخمة. كلما هموا لينزلوها إلى ما حفروه، استعصت الخشبة عليهم، وجذبتهم إلى الوراء.

تبادلوا النظرات متعجبين، ثم كرروا المحاولة، لكن الأمر لم يسهل عليهم. قال أحد حامليها: يبدو أنها لا تريد هذا المكان.

تملكهم خجل شديد، ورموا نظراتهم إلى أهل القرية المحتشدين عند المقبرة، ولم يدروا ما يفعلون. قال أحدهم: نقرأ الفاتحة، ربما تلين. لكنها لم تلن. كلما حاولوا إنزال الخشبة التصقت بأكتافهم، وكأنها شدت إليها بحبال متينة. لاذوا بالصمت متحيرين، فقالت الخادمة: هاتوا الوِزد ودسوه في كفنها، لعلها تستجيب.

أسرع أحدهم إلى الزاوية، والتقطه من فوق الوسادة الخالية. ناخ الرجال بالخشبة، حتى تهيأت أمام مَن مد عنقه إليها. سحب طرف الكفن، ووضع الوِرد، وأعاده إلى مكانه، وقال: حاولوا من جديد.

لم يتغير شيء. فقال أحدهم: نمضي بها بين القبور، وننزلها في المكان الذي تختاره.

ومشى الرجال حاملين الخشبة بين قبور «الجوابر»، فلما ابتعدوا عن قبر «رشدان» عادت خفيفة كما كانت، فقال أحد حامليها: هذا مكانها.

لكن الخشبة عادت ثقيلة، فرجع في كلامه، وقال: يبدو أنها مأمورة إلى مكان لم نعثر عليه بعد.

قال أحدهم: لنمشِ بها في المقبرة كلها، وحين يأتي مكانها سنعرف.

نفذوا ما سمعوه، وداروا بها بين القبور. وبينما وصلوا إلى بقعة خالية بين قبري «رضوان» و«بديعة» فإذا بالخشبة تقف فوق

أكتافهم. ضربوا أقدامهم في الأرض، ودفعوا جذوعهم إلى الأمام، لكن سيقانهم لم تطاوعهم. وقفت الخشبة لا تريد حراكًا. وقلّب «الجوابر» أبصارهم بين القبرين اللذين يحاذيانهم من الخلف والأمام، وكبّر عليهم أن يقولوا هذا مكانها. قال أحدهم في غضب: لن ندفنها بين الغرباء.

قال «شنودة» النجار: كلنا أهل.

نظروا إليه غاضبين، فهم يعرفون أنه قد صار في حِمي الصوابر بعد أن كانوا هم حماته، فبلع لسانه. وبدا الواقفون من غير «الجوابر» شامتين فيهم. أقروا بالولاية للراحلة، التي أرادت أن تضع أهلها فيما يستحقونه من جزاء. عاقبتهم حية حين هجرت فجأة طعامهم وشرابهم، وها هي تعاقبهم ميتة، حين أكدت لهم أن قبورهم لا تروق لها.

وقال أحدهم: كان بيننا رجال طيبون، جدنا «إبراهيم» والوجيه «زياد»، فلنحمل النعش إلى قبريهما.

خف النعش عند قبر «زياد»، فقالوا: أخيرًا وجدنا مكانها.

وضعوا النعش على الأرض، وهموا لحفر قبر جديد، لكنهم وجدوا الخشبة تزحزح من مكانها، كأن مَن فيها حية تديرها إلى الجهة التي تريدها. لم يعبأوا بما رأوه، وحفروا القبر، ولما مدوا أيديهم ليرفعوا ما في الكفن، استعصى عليهم، وتشبث بالخشبة كأنه صار منها.

عاد «شنودة» يقول: للقديسين والأولياء أحوالهم، وليس علينا سوى الطاعة.

لم يكن أمامهم من سبيل سوى هذا، فردموا ما حفروه، وذهبوا إلى البقعة التي اختارتها «هنيّة». وقبل أن يضربوا فؤوسهم فيها، قال أحدهم: لا تقعوا في الخطأ. لا بد من استئذان «ناجي» أو «العمدة».

هزوا رؤوسهم موافقين، فأسرع أحدهم إلى السرايا. فلمّا أخبر «ناجي» بما جرى، قال له: لنا شرف أن يكون بين موتانا جسد طاهر. ثم قال له: أبلغ كبير الجوابر أن هذه إشارة من سيدة صالحة لنا جميعًا أن ننسى خلافات الماضي.

دُفنت «هنيّة»، وأقام لها أهلها سرادق عزاء في الساحة التي يطل عليها السلاملك القديم. جاء أهل القرية للعزاء، وبلغ ما حدث في المقبرة أهل القرى المجاورة فزحفوا لينالوا البركة من حضور عزاء الراحلة.

ذهب «ناجي» إلى العمدة ليصطحبه لأداء واجب العزاء، فلما خلص جسداهما في نور الكلّابات المعلقة في السرادق وأمامه، زام «الجوابر» في غضب، فانبرى أحدهم مسرعًا نحو الرجلين القادمين. وقف أمامهما، وقال: لا داعي لوجودكما، وسعيكما مشكور على أي حال.

همّ «محبوب» أن يرد في غضب، لكن «ناجي» مد يده وطبعها على فمه، وقال: لا بأس، فعلنا الواجب، وأنتم أحرار.

وانسحبا عائدين إلى السلاملك، فلمّا جلسا، قال «ناجي» وهو يكتم غضبه: لن تصفو لنا هذه القلوب السوداء.

تذكر «محبوب» كل ما فعلته «عبلة» وابنها في سبيل طي صفحة

الماضي البغيض، وقال: قدمنا السلام والخير السبت والأحد، بل كل أيام الأسبوع، ولم نلقَ منهم دومًا سوى الرد السخيف.

تنهد «ناجي»، وقال: لا تخلو الحياة من الأوغاد.

ثم غاص في نفسه، وقرأ على مهل:

«كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِّلحَربِ أَطفَأَهَا اللَّهُ. وَيَسعَونَ فِي الأَرضِ فَسَادًا. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفسِدِينَ».

ابتسم «محبوب» وقال له: الأزهر لا يفارقك أبدًا.

(54)

عادت النفوس مشحونة بالأحقاد، فلمّا جاء يوم تشييد محطة القطار، تنادى «الجوابر» من بيوتهم، وخرجوا غاضبين إلى السلاملك. أدركوا أن شيئًا ما قد دُبّر من خلف ظهورهم، وأن الطعنة هذه المرة كانت نجلاء، وقاتلة.

قال أحدهم: نحن كثرة، وعلى جثتنا يتغير اسم القرية.

وكانت بينهم قلة لا تريد الشر، فقال أحدها: لم يتغير، إنما عاد كما كان.

رد عليه أحدهم في غضب: لا يخون أهله إلا الخسيس.

رد الرجل في هدوء: قول الحقيقة ليس خيانة.

انبرى له آخر، وقال: الحقيقة الوحيدة التي نعرفها أن القرية حملت اسم جدنا مئات السنين، وعار علينا أن نجعله يتقلب اليوم في قبره من الحزن.

تبادلوا النظرات صامتين يقرأ كل منهم في عين صاحبه ما يعتزمه. قطع الصمت رجل منهم، وقال: إما أن نكون اليوم أو لا نكون.

وقال العجوز فيهم: لا يجب أن تذهب عنكم الحكمة حتى وأنتم غاضبون.

تطلعوا إليه، فواصل: ربما يكون كل هذا شائعة سخيفة.

وكان أحدهم ممن التحقوا بالكتاب صغيرًا قد رأى اللافتة الجديدة مركونة إلى جانب المحطة قبل نصبها، فقال: رأيت كل شيء بعيني، ولا داعي للتهرب من عبء المواجهة.

صرخ أحدهم في غضب أعمى، وقال: تحايلوا علينا، ولنردهم خاسرين.

سرت همهمات بينهم على ما يجب أن يفعلوه، فاستقروا في نهاية الأمر على المواجهة. تفرقوا إلى البيوت ليحمل كل منهم ما فيها من سلاح. وجاءوا بعد قليل وفي أيديهم البنادق والفؤوس والخناجر والشوم. وبينما هم يستعدون للزحف نحو المحطة، جاءهم «شنودة» يجري. وقف بينهم يلهث وقال: لا تتركوا الغضب يوقعكم في خطأ أشد.

وغاظهم ما سمعوه منه، فأشاروا إليه أن يمضي بعيدًا، لكنه تشبث بمكانه، وتوجه إلى العجوز، وقال: هناك سبيل أسلم يجب أن تسلكوه.

أشار إليه أن يواصل، فقال: لم يغير «ناجي» اللافتة بالقوة، وما عرفته أنه حصل على موافقة المديرية، واعتراضكم سيضعكم في

وجه الحكومة.

رد أحدهم: إن واجهت الحكومة اعتراضًا، ستؤجل كل شيء إلى أن تُحسم الأمور.

قال «شنودة»: الأفضل أن تردوا بشكوى رسمية، وليس بالعراك والدم.

ورآهم أحدهم مترددين، فرفع عصاه في غضب، وقال: إن لم تأتوا معي، سأذهب وحيدًا.

وتبعوه والشرر يتطاير من عيونهم، حتى بلغوا المحطة الوليدة. رأى كبير المهندسين الشر على وجوههم، فقال: اختاروا أحدكم ليحدثني.

زاموا وهمهموا وطوحوا أيديهم في الهواء معترضين، لكن المهندس لم يفقد رباطة جأشه. نظر إليهم في حسم، وقال: نحن ننفذ أوامر الحكومة، فإن كان لديكم اعتراض فليكن عليها.

كان أحدهم قد أسرع نحو اللافتة، وقبض على ساقها، ورفعها غاضبًا، ثم أزاحها في عنف، فسقطت عند شريط القطار. وكان الواقفون يتابعونه راضين عما أقدم عليه. فلما استيقن المهندس أن من العبث مواجهتهم، قال في هدوء: قدموا شكوى، وأنا سأرفع اعتراضكم إلى أصحاب الأمر.

كان «ناجي» يتابع ما يجري من فوق سطح السرايا، وكلما دفعه الغضب لينزل إليهم، أوقفته «نوارة»، قائلة: ليس من الحكمة أن تجادل مَن أعمى الحقد عيونهم. ولمّا وجدت الغضب قد تملكه حتى

دفع قدميه نحو السلم يريد مواجهة الغاضبين، رمت جسدها فوق أحد المقاعد التي تلتف حول طاولة كان يحلو لـ «ناجي» أن يتناول إفطاره فوقها في بعض الصباحات الندية. ووضعت يدها سريعًا على بطنها، وصرخت: الحقني.

عاد إليها مجزوعًا، فقالت له: تحرك ما في بطني من فرط الغضب.

مال عليها، يربت كتفها، ويمد يده إلى بطنها، وهو يقول: الانفعال خطر عليك.

اكتسى وجهها بمسحة من وجل وأسى، وقالت: لا تجعل الجهلاء يفقدونك ما انتظرته طويلًا.

ولمّا رأت التبرم باديًا على ملامحه، قالت: لو كانت أمك على قيد الحياة ما طلبت منك غير ما أنصحك به.

ثم قبضت على يمينه، وقالت: أخبرتني بأن هذا الأمر نافذ، فلا تعطهم فرصة لإفساد كل شيء.

ورأى رأس خادمة يبين من درجات السلم، فنظر إليها، وأنصت إلى قولها: العمدة ينتظرك في البهو.

طوق «نوارة» بذارعيه، فراحت تمشي على مهل نحو مخدعها، والخادمة تتبعهما صامتة. حين هبطوا السلم، التفت إلى الخادمة، وقال: قدمي القهوة للعمدة، حتى ألحق به.

اطمأن إلى استرداد «نوارة» أنفاسها المبهورة، وخرج إلى العمدة ليجده يكاد يتفطر من شدة الغضب. انتفض واقفًا، وعاجله سائلًا: هل نسكت على ما يجري؟

وجد «ناجي» نفسه في حاجة إلى طرد الغيظ من نفسه، حتى يحتوي «محبوب» الذي كان قد جاء حاملًا بندقيته، وكذلك خفره الذين انتظروا في الحديقة. نظر إليه «ناجي» وغرف ابتسامة عجلى من بئر قلقه وانزعاجه، وقال: نصبوا لأنفسهم فخًّا، فلنتركهم يقعون فيه.

رد «محبوب» وهو يضع بندقيته إلى جانبه: ربما يكون الفخ لنا بسبب سكوتنا على ما يجري.

هز «ناجي» رأسه، وقال: لم أتوقع هذا الرد ممن تعلم جيدًا كيف يزن الأمور.

لاذ «محبوب» بالصمت، فواصل «ناجي»: الأمر منتهٍ واعتراضهم على هذا النحو سيضعهم في تحدٍّ مع الحكومة، ولا يكون علينا إلا أن ننتظر ما نحصده من طيشهم.

نظر «محبوب» في عيني «ناجي» طويلًا، وسأله: ألم ترسل في استدعاء أهلنا؟

أجابه على الفور: سيأتون بعد غد، وهو اليوم الذي تنصب فيه اللافتة على محطة القطار.

سرى في ملامحه ارتياح، وقال: استكثروا أنفسهم علينا، ولا بد من أن يرونا أكثر منهم.

وبعقل قاض، قال له: الحق معنا، ولن نعدم القوة التي تحميه.

وأشار إليه أن يتبعه إلى سطح السرايا ليريا ما يجري عند المحطة.

كان «الجوابر» لا يزالون محتشدين حول المهندسين والعمال. بدا كبير المهندسين يجادلهم. بعضهم ينصت صامتًا. هناك مَن يعترض دون أن يصل صوته إلى السرايا. فجأة تراجعوا إلى الخلف، بينما جرى اثنان منهم نحو اللافتة الملقاة على الأرض، وحملاها وسارا بها نحو القرية.

قهقه «ناجي» وهو يشير إلى حاملي اللافتة، والرجال يتبعونهما في ثقة، وكأنهم قد انتصروا، ثم قال: تهزمهم حماقتهم، وأمثال هؤلاء لا خوف منهم.

طوح «محبوب» ذراعه في الهواء، وقال: لا يضرنا أكثر من غضب الطائشين.

بعد يومين هلَّ «الصوابر» على القرية من اليمين والشمال. كانوا يعرفون ما هو مطلوب منهم، فقد شرح لهم «ناجي» كل شيء في خطاباته. تزاحموا في الحديقة، وتداولوا الأمر. قال أحدهم في غضب: نهجم على بيوت «الجوابر» ونؤدبهم.

اكتسى وجه «ناجي» بالغضب، وقال في حسم: لا تخلو عائلة من الحمقى.

وشعر بأنه قد أغضب الرجل، فمشى نحوه، ووضع يده على كتفه، ونظر في عينيه، وابتسم وقال: يا بن عمي، لم آتِ بكم لعراك، إنما لردع مَن يفكر في عراكنا.

وكان المهندس قد رفع شكوى عاجلة إلى المديرية بما جرى، فجاء ضابط القسم ومعه أكثر من ستين جنديًا. توجهوا على الفور إلى

سلاملك العمدة. سأله الضابط عن بيت الرجل الذي سرق اللافتة، فأبلغه به، وأرسل معه خفره، فمشوا إلى جوار الجنود.

تنادى «الجوابر» غاضبين، وتزاحموا حول الجند، فأمر الضابط جنوده أن يصوبوا بنادقهم إلى صدور المتزاحمين، وقال لهم في حسم: إذا ارتكبتم أي حماقة سنطلق عليكم الرصاص، ولا دية لأحدكم.

تبادلوا النظرات في ذعر، وتراجعوا خطوات. انبرى عجوزهم، وقال مستعطفًا: نحن مظلومون، وكنا نظن أنك قد جئت لإنصافنا.

نظر إليه الضابط في استهانة، وقال: للمظلوم طريقة يحصل بها على حقه غير السرقة وإثارة الفوضى.

ثم أشار بيده في حسم لهم أن ينصرفوا. تشبثوا بأماكنهم يقطرون وجلًا وخجلًا، فأمر الضابط بعض جنوده، أن يطلقوا النار في الهواء، ففعلوا. مرق الرصاص من فوق رؤوس المتزاحمين، فنظر إليهم الضابط، وقال في غضب: الرمية القادمة ستكون في صدوركم.

تراجعوا خائبين، ثم انصرفوا تباعًا. لم تمضِ سوى ساعة، حتى عاد اثنان من الخفر يحملان اللافتة، ويسيران بها نحو المحطة، ويسلمانها للمهندسين. أما الضابط فقبض على مَن سرقا اللافتة. قيد أيديهما، وسار بهما الجند نحو الجسر، عائدين إلى القسم.

وما إن تسلم المهندس اللافتة، حتى شرع العمال في نصبها. وقفت عفية، تغلب ريحًا قوية هبت بعيد الظهر. ورآها «ناجي» من فوق السرايا، فنظر إلى «نوارة» وقال: لا يضيع حق وراءه مطالب.

ابتسمت في فتور، وقالت: أخشى أن تفتح هذه اللافتة بابًا جديدًا للمصائب.

وانطلق صوت الشاعر مفعم هذه المرة بالثقة والفرح:

العشب مهما يندأس

بالمطر يرجع خضاره

والحلم يشغل الراس

حتى يطلع نهاره

الكَفُّ الحَمراء

(1)

تسيل الدماء، وتندلع النار، بسبب التلاعب بالرؤوس، ربما أكثر من غريزة العدوان المتأصلة في نفوس البشر. لا تلعب أكثر من الحكايات التي يصنع شرها كثيرًا من سحرها. وقائع وأحداث لم يكن أي من أبطالها الغابرين يظن أن سيرته ستسكن الأذهان والنفوس على هذا النحو الغريب.

نبوءات ووعود، تختلط فيها الحقائق بالأكاذيب. ينفخ كل جيل فيها، حتى صارت شيئًا مسبوكًا على مهل، له قدرة على أن يجرف أمامه التقاليد والمصالح. يقفز إلى عقول الرجال فجأة فتطير منها الحكمة، وتتكفل النساء بتغذيتها بالجديد. أما القوّالون فيتلقفونها غضة، وتشكلها قرائحهم المشبوبة بالغناء في صيغة أخرى، فتسري الأسطورة في أوصال الزمن، متغلبة على كل أولئك الذين أرادوا دفنها.

(2)

هجرت الخادمة الزاوية بعد موت «هنيّة»، لم يسعها سوى بيت «رضيّة» التي استقبلتها بترحاب شديد، وضمتها إلى أخرى كانت تلازمها منذ سنوات طويلة. لم يكن أمام الخادمة من سبيل سوى قبول هذا، رغم أنها كانت تغمغم في ساعات الغضب كلما تلقت أمرًا، قائلة لنفسها: صار لآل بخيت خدم.

فرغت الزاوية شهورًا. تراكم أمامها التراب والقش، وبنت العصافير

أعشاشًا حول أطراف الجريد التي تطل من سطحها. وكان الناس كلما اقتربوا أسفوا لمنظرها، وتمنوا لو يفاجئهم مجذوب أو بهلول ذات يوم، ويُعمّرها من جديد.

جاء إليها المجاذيب تباعًا عبر زمن طويل راكبين النهر. رست بهم المراكب عند مرسى القرية، وكانوا يعرفون المكان الذي يقصدونه. وصية تلقوها من أحد شيوخهم، أو تلبية لهاتف سمعوه ينادي عليهم في جوف الليل، أو استجابة لرؤية في منام عامر بالعبر والمسرات، أو لخبر وصلهم أن هناك زاوية تقف على ربوة تطل على قرية يجزل أهلها العطاء.

تحقق لهم ما تمنوا ذات عصر. لكن الآتي لم يحمله الموج الساري، إنما القطار المندفع فوق الحديد. نزل المحطة رجل يلف جسده بعباءة خضراء، وعلى رأسه عمامة لوث الغبار بعض بياضها. مضى فوق الدرب المؤدي إلى الشارع العمومي، وسأل طفلًا صادفه: هل تعرف بيت العمدة؟

أخذه من يده إلى السلاملك، فاستقبله «محبوب» بوجه باش. قُدم له الطعام والشراب، فلم يتناول منه سوى القليل. احتسى القهوة على مهل، وهو يجيل بصره في السقف، ويتمتم بما لا يسمعه غيره. راح «محبوب» يراقبه بطرف عينه، ولا يعرف كيف يبدأ الحديث معه.

صمت المجذوب برهة، ثم قال: أنا من مريدي سيدك الفولي.

تهلل وجه «محبوب»، وقال بصوت مملوء بالخشوع: مدد يا أبا سليمان.

ابتسم الرجل، وقال: ركبت القطار لا أعرف إلى أين أذهب، ووجدتني أنتفض من فوق مقعدي واقفًا، حين توقف عند محطة بلدكم. نزلت دون أن أدري لماذا نهضت؟ ولماذا هبطت؟ ومَن أقصد من الناس؟

هز «محبوب» رأسه، وقال: لكل قرية مفتاحها، وفعلت خيرًا أنك قصدت بيتي.

أمسك الرجل عصاه، ونهض وهو يقول: لا أريد أن أثقل عليك يا عمدة، أخذت واجبي وآن لي الانصراف.

سأله في وجل: إلى أين؟

أجاب، وابتسامة عريضة تحط على شفتيه: أشعر بأن هناك مَن ينتظرني، ولا بد أن أسعى إليه.

ظن أنه سيتوجه إلى المقبرة، فقد يكون قلبه قد حدثه بساكنيها من المجاذيب والرجال الصالحين، الذين سكنوا الأخصاص، وزرعوا وحصدوا وبنوا في وجه الزمن بيتًا لا يريد أن ينقض. أشار إليه أن يجلس قليلًا، لكن الرجل ضرب عصاه في بلاط السلاملك، بينما قدماه تحطان على سجادة وثيرة. فنادى «محبوب» أحد خفره، وقال له: اصحب مولانا إلى حيث يذهب.

ورآه الخفير يقطع الشارع في اتجاه السرايا، فتبعه متعجبًا حتى بلغ الحديقة. كان الحارس يجلس فوق مقعد يُغرقه نور الشمس، فلمّا رآهما نهض واقفًا، وهو ينظر إلى الغريب في عجب. رمى بصره نحو الخفير ليدله على شيء، لكنه هز رأسه مبتسمًا، وقال: تبعته دون أن

أعرف ما يريد.

مد الحارس المقعد إلى المجذوب ليجلس، لكنه رفع عصاه نحو نافذة مفتوحة، وقال له: أبلغ البك أنني في انتظاره. فلمّا جاءه «ناجي» طلب أن يختلي به، فأخذه إلى البهو، وأمر الخادمة أن تعد له فنجان قهوة. فلما ذهبت قال له: أحمل إليك رسالة من أحد رجال «الصوابر». ثم مد يده في جيبه وأخرج ظرفًا مغلقًا، وأعطاه له. فضّه «ناجي» وراح يقرأ وهو ينظر إلى الرجل في عجب. ثم قال له: رأيت الخفير يصحبك، فهل ذهبت إلى دوار العمدة يا عم «نوفل»؟

هز رأسه، وقال: أردت أن أدخل القرية من بابها، لكني لم أبلغه بشيء، فالخطاب لك أنت، والعمدة إن كان من أهلك، إلا أنه في نهاية الأمر عين الحكومة ويدها. وغاص في نفسه قليلًا، ثم عاد: يسامحني الله أنني كذبت عليه، وأبلغته أنني نزلت في محطة الصابرية دون ترتيب. تابعه «ناجي» صامتًا، فواصل: هو يحسبني مجذوبًا جاء ليسكن الزاوية الخالية.

قهقه «ناجي»، وسأله: أعرفت أيضًا حكاية الزاوية؟

ـ قريبك حكى لي كل شيء، فصرت أعرف الكثير عن القرية. حتى السرايا عرفتها فور أن وقعت عيناي عليها.

- لا تخلو عائلة «الصوابر» من الثوار والمحاربين.

- أعرف حكاية والدك، ولهذا أيقنت أن مثلك سيوفر لي الحماية، فعاهدني على أن يكون ما عرفت سرًا بيننا.

- سرك في بئر غويطة، فلا تخشَ شيئًا.

ثم صمت «ناجي» برهة، وقال: لا يوجد مكان آمن هنا أكثر من الزاوية. هناك لن يسألك أحد عن شيء، وسنقول للناس إنه كما جاء المجاذيب السابقون إليها دون ترتيب منا، جئت أنت. بعثك الله إليها في الوقت المناسب لتعمرها.

- لي صنعة، ولا أريد منك سوى قليل من المال على سبيل السلفة، لأواصل عملي، فأنا لا أحب أن أكون عالة على أحد.

- لك ما تريد.

وكانت صنعته هي نسج الطواقي التي يشتريها الفلاحون من البندر لتقيهم شمس الصيف، وبرد الشتاء. كتب ما يريده، وأرسل «ناجي» إلى البندر مَن يشتريه له. لكنه قال له: لا تشرع في عملك إلا بعد مرور شهر على الأقل، يعرفك الناس فيه على أنك المجذوب الجديد، ساكن الزاوية.

أرسل «ناجي» إلى الزاوية مَن يُنظفها، ويملأ الزير بالماء، وحملت خادمة إليها بلاص عسل أسود، وصفيحة جبن قديم، ورصة من البتاو، وكيسًا مملوءًا بالكشك الناشف. حين حلّت صلاة المغرب، قال له: لتذهب معي إلى المسجد فيراك الناس.

سرى في القرية خبر عن مجذوب جديد اسمه «نوفل»، ففرح الناس بأن الله قد شاء ألا يقطع البركة عنهم. وفي اليوم التالي حملت إليه نسوة طعامًا من بيوتهن، لكنه كان يرد كل مَن تأتي في لطف، ويقول: أحب أن يرزقني الله من كدي.

ورآه الناس بعد أيام وقد شدّ خيوطًا بُنيّة إلى جذع شجرة الكافور

الواقفة بين الزاوية والمقبرة، ويدفع فيها مغزله، فتتوالى العُقَد الصغيرة بين يديه، وهو منهمك في تبتل، وكأنه يريد أن ينفض عن رأسه الخوف الذي سكنه منذ أن هرب من «المنيا» إلى أن استقر به المقام في «الصابرية».

(3)

أنجبت «نوارة» بنتًا أسمتها «سميحة»، بدت للوهلة الأولى تشبه جدتها الراحلة. أخذها «ناجي» من كف القابلة، نظر إليها طويلًا وابتسامة عذبة تكسو وجهه، وقال: شاء الله أن تأخذ من أمي الكثير.

ووجدها «ناجي» فرصة ليدعو أهله لحضور عقيقة سخيّة أعدها للقادمة جديدًا إلى الدنيا. لم يتأخروا كعادتهم، ليجدوا أنفسهم هذه المرة ملزمين بالإجابة عن سؤال طرحه عليهم مضيفهم في ثقة: ألم يحن الوقت بعد لتستقروا في «الصابرية»؟

غاصوا في تفكير عميق، ولم يكن بوسع أي منهم أن يتخذ مثل هذا القرار ببساطة. أبلغوه أنهم قد صارت لهم بيوت وأرض في مختلف البلاد التي سكنها الآباء والأجداد القريبين. لكن «ناجي» لم يُعدم، كعادته، القدرة على إيجاد حل. نظر إليهم وكأنه يُحصى الأقرب منهم إلى قبول عرضه، وقال: لا يزال بينكم مَن لا أرض له، فليأتِ ليكدّ في أرضنا، أو ينضم إلى عمال المعاصر والطاحونة ومعمل الألبان، وسيتولى الرجال هناك تدريبه على العمل.

كانت الأرباح قد تراكمت، ففكر في الأسابيع الأخيرة أن يُقيم عصارة أخرى. وكان قد وصله خبر أن بعض فلاحي القرى القريبة

يبيعون أرضهم، إما لعوزهم، أو لأن هناك ورثة يتخلصون من تركة زاد الخلاف حول توزيعها، أو رغبة بعضهم في السفر إلى البندر مع أولادهم الذين صاروا موظفين في دواوين الحكومة.

عاد يقول لهم: هناك أرض في قرى مجاورة معروضة للبيع، فلتبيعوا أرضكم هناك وتشتروا أرضًا هنا.

وحتى يغريهم أكثر، قال: الأرض هنا لا مثيل لها في الخصوبة.

هزوا رؤوسهم وطلبوا منه أن يعطيهم مهلة للتفكير، فقال: خذوا وقتكم، لكن لتعلموا أن جمع شملنا سيريح أجدادنا في قبورهم.

وما إن غادروا «الصابرية» حتى جاء خفير إلى «محبوب» وقال: سمعت أن رجلًا من «الجوابر» يريد بيع أرضه.

تطلع إليه في فرح، وسأله: هل هذا خبر أكيد؟

ابتسم، وأجابه: لو لم يكن أكيدًا ما أخبرتك به يا حضرة العمدة.

وسأله عن السبب، فقال: بعض «الجوابر» يرون أن المكان قد ضاق بهم.

واستقبل «ناجي» الخبر في سرور، وقال للعمدة وهو يضغط على الحروف: لا يجب أن تفلت منا أي أرض يتخلون عنها.

- ربما لا يقبلون البيع لنا.

- لنا حقوق الجيرة، ولن ندع غريبًا يتملك سحتوتًا واحدًا في «الصابرية».

- أنت تعرف عنادهم، فإن بلغتهم رغبتنا في الشراء رجعوا عنه.

- لا بأس، نأتي بوسطاء يشترون لحسابنا، ونعطيهم أجرهم.

في اليوم التالي جاءهم نبأ عرض بيت «بهاء» للبيع. جاءت أمه من البندر، باحثة عن مشترٍ. عرضته على «الجوابر» لكن لم يكن من بينهم قادر على السعر المطلوب. قالوا لها في أسف: نرسل لنخطر الناس في القرى القريبة.

لكنها كانت في عجلة من أمرها، فسألت: ألا يوجد هنا مَن يشتريه؟ كتموا الإجابة التي يعرفونها جيدًا، وقالوا: عليكِ بالصبر حتى نجد مَن تبحثين عنه.

كان «ناجي» يعرف الطريق جيدًا. انتحى جانبًا بإمام المسجد بعد صلاة العشاء، ووسّطه في الشراء. فلم يتأخر الرجل، ذهب إلى بيت «أم بهاء» متعللًا بأنه قد جاء ليطمئن على أحوالها. استقبلته في ترحاب شديد، وكانت حولها نسوة من «الجوابر» فطلب منها الانفراد به قليلًا، ثم قال لها: سمعت أنكِ تعرضين البيت للبيع.

- هو كذلك، لكن يبدو أن هذا الأمر ليس سهلًا.

- بل أسهل مما تتصورين.

وفاتحها بما جرى بينه وبين «ناجي» فارتبكت وقالت: لن يرضى أهلنا بهذا.

طوح ذراعه في الهواء مستهينًا بما سمع، وقال: مَن حكَم في ماله ما ظلم.

أناخت رأسها على كفها، ولاذت بالصمت. ولمّا وجدها الرجل على

هذه الحال، رمى إليها ورقته الأخير. دفع كل قدرته على الإقناع في صوته، وقال لها في هدوء: لن يعنيك موقف أهلك طالما ستعودين من حيث أتيت.

ثم مد عنقه ليقترب منها أكثر، وقال: لن تجدي مَن يدفع لك الثمن الذي سيقدمه «ناجي» دفعة واحدة.

تنهدت في وجع، وقالت: أخاف أن يتعذب ابني بالبيع لعدوه.

فوجئ بما قالته، لكنه لم يعدم حيلة. نظر إليها، وسألها: هل يزوره أحد من الجوابر في سجنه؟

أجابته: نسوه وكأنه لم يكن ابن كبيرهم.

هنا لاحت أمامه الفرصة ليُجهز على ذرائعها، فقال: مثل هؤلاء لا تقيمين لهم وزنًا. أما ابنك فاخفي عنه اسم الشاري. وحتى لو عرف فأخبريه بأنك لم تجدي غيره. ولن تكذبي، فما أعرفه أن «ناجي» و«محبوب» لن يسمحا لغريب أن يدخل القرية، ومعهما القوة والقانون.

وسألها عن حال ابنها، فارتبكت وأبعدت عينيها عن عينيه، وقالت: كان الله في عونه.

هز رأسه، ومصمص شفتيه، وقال: تجربة قاسية، أرجو أن يستفيد منها، ويتجاوزها.

وكان إمام المسجد موكلًا من «ناجي» ليفاوض «أم بهاء» في شراء البيت، بعد أن حدد له السعر الذي يبدأ به، وذلك الذي ينتهي عنده، ولا يزيد. طرح عليها سعرًا فاستنقصته، فرمى إلى سمعها ما

هو أزيد، وهو مندهش لقدرة هذه المرأة على المساومة، حتى بلغ السعر الأقصى غير المسموح له بتعديه، فقالت في هدوء: دعني آخذ المشورة وأعود إليك.

- هل ستعودين إلى ابنك في السجن؟

- هو، ولا أحد غيره.

انكسف باله، ورفت على شفتيه ابتسامة فاترة، وقال: أعتقد أنه سيرفض. وشعر بأنه قد أخطأ حين تلفظ بهذا، فقال في سرعة: ليس هناك ما يمنع من القبول، مثل «رافع» الذي باع ورثه في أبيه وأمه إلى «ناجي»، وترك القرية ليسكن المحروسة.

عدلت الطرحة لتواري خصلة من شعرها الأبيض انفلتت فجأة، وقالت: لن أخبره باسم المشترِي، ولم يعد شيء يهمه، ضاعت منه أرض الانتفاع وكثير من أملاكه، وهو لاهٍ لا يقيم لكل هذا وزنًا.

(4)

كان «بهاء» قد عقد العزم على ألا يعود إلى القرية مرة أخرى. نهشت الأسئلة نفسه بين جدران السجن، لكن إجاباتها جميعًا كانت تنتهي بقرار الابتعاد. كيف يعود إلى مكان رآه الناس فيه مُهانًا، يتلاعب خصومه بمصيره كما تتلاعب العواصف بزغب اليمام؟

كلما كان يحل برأسه مشهد النهاية، كان يعتصره ألم شديد، ويروض مجبورًا الرغبة في الانتقام. لكنه كان يرى أن ثأره يجب أن يؤخذ على مهل، حتى لا يتمكن أعداؤه من الإيقاع به مرة ثانية. كانت أمه كلما زارته حاولت أن تخفف عنه آثار الماضي، مستندة إلى

رغبته في الابتعاد، وتقول: حين تخرج من هنا، تبدأ حياة جديدة، أدخر لك المال، وليس عليك إلا أن تُحسن إنفاقه هذه المرة.

لم ينسَ «البهوية» التي حلم بها، وكان يرى أن أي مال سينفقه في سبيلها سيُرد إليه بفعل الجاه الذي يحوزه. صارح أقرب مَن صادقهم في السجن بما يفكر فيه، فقهقه طويلًا، ثم قال له: منذ متى كان أرباب السجون يصبحون بهوات؟

لكنه كان يؤمن بما تعلمه من «قطاوي» و«ليشع»، اللذين أفهماه أن كل شيء في بلادنا قابل للشراء، وأن المال يفتح الأبواب المغلقة. حتى سجلات السجون يمكن أن تُمحى منها أسماء مقابل رشاوى سخية، والكبار لا يعنيهم ماضي المرء طالما أن في كفه نقودًا كثيرة.

أليس المال هو الذي مكّنه من أن يقيم له أقوى رجل في السجن وزنًا، بل يهبه مَن يتلذذ به، ويوفر لهذا المكان المعزول والفرصة الكاملة؟ أليس المال هو الذي أتاح له إدراج اسمه في قائمة العفو التي تُقدم إلى الخديوِ؟ نعم هو. دفع لمأمور السجن، فوضعه على رأس القائمة. وكان عليه أن ينتظر متقلبًا في هواجس شريرة، تهجم عليه صباحًا ومساءً. حتى مناماته لم تخلُ منها، حين يرى نفسه وقد اعتلى صدر «ناجي»، يطبق بيديه على رقبته، ويرى في عينيه صور الأجداد الغابرين، وهم يمدون أيديهم له كي ينضم إليهم، تمنى لو تمكن من اغتصابه لكسر عينه إلى الأبد!

يهب مفزوعًا، فلا ينتبه إليه سوى صديقه «عبد القوي الحاجري». يمد يده إلى جبينه المتصبب عرقًا، ويقول له: لا يفزع إلا العاجز. ويتطلع إليه في ضيق، فيواصل: حين ينتصر الرجل على غريمه

يكف عن مطاردته في أحلام الليل.

كان قد حكى له كل ما يشغله، ودفع له كي يوضع أيضًا في قائمة العفو معه، وقال له: لمّا نخرج من هنا لا تفارقني.

ابتسم، وقال له: أنا معك حيث تكون، ولا أهل لي في هذه الحياة غيرك.

لم يكن «الحاجري» يوافق «بهاء» في ابتعاده عن قريته، وطالما قال له في عينيه: لا تهرب من المواجهة. لكنه لم يقدر على قبول العودة إلى بيته، وأصر على القرار أكثر بعد أن أخبرته أمه بأن القرية استعادت اسمها القديم. حين أبلغته بهذا، ضرب كفًا بكف، وقال: سقطت القلعة الأخيرة. ولمّا زارته لتستشيره في بيع البيت، سألها عن المشتري، وحين عرف، غاص في الألم، وسألها من جديد: ألا يوجد غيره؟

تنهدت في حرقة، وقالت: قدم أعلى سعر، ولا يوجد في القرية مَن لديه ثمن الشراء، وهو لن يسمح لغريب بأن يأتي إليها.

عض على أسنانه، وقال: يصر الكلب على محو اسمي من هناك.

وحاولت أن تخفف من حنقه، فقالت: هو في احتياج إلى البيت، ولا يعنيه ما في رأسك.

- مضطر للتراجع خطوة أخرى إن كان هذا لا بد منه كي أرى خصمي جيدًا، قبل التصويب عليه.

- ألم يعلمك السجن خطر هذا الطريق؟

- سأقتله في بطء، وبلا رصاص. هذا أوعر، ويشفي غليلي.

(5)

نزل خبر بيع بيت «رشدان» على رؤوس «الجوابر» كالصاعقة. اهتزوا أكثر من يوم بيع «رافع» نصيبه، وقالوا: هو في النهاية ابن «الصوابر» وإن مال إلينا. تبادلوا الرأي فيما عليهم أن يفعلوه، فلم يجدوا أمامهم سوى العجز. فحتى لو تمكنوا من جمع ثمن البيت من بعضهم البعض، فلن يقدروا على استرداده، فمَن اشتراه لا ينتظر منه ربحًا في بيع أو سمسرة، إنما يريد به أن يغيظ «الجوابر»، أو على الأقل يجعله في خدمة الحلم الذي يتنقل في رؤوس أهله جيلًا بعد جيل.

ترحموا على أيام جدهم «درويش» الذي كان داهية، استعمل ذكاءه وجبروته في غرس أول وتد عفي لـ «الجوابر»، وها هو قد انخلع تمامًا بسجن «بهاء» وبيع البيت الذي ورثه عن أبيه، وليس هو أي بيت. انخلع وألقي جانبًا، ولن يجد مَن يلتقطه، ويعيد غرسه من جديد.

تنادى بعضهم ليتحدثوا عما جرى. لم يعد لهم سلاملك يلتقون فيه، وخافوا إن جلسوا على المصاطب أن يصل ما يقولونه إلى سمع «الصوابر»، الذين اعتادت أقدامهم شوارع القرية في الأسابيع الأخيرة، وتناثرت أخبار عن رغبة كثيرين منهم في الإقامة فيها، فالتقوا داخل البيوت، وأغلقوا أبوابها جيدًا.

ذات مرة قال أحدهم في غضب: لم أعد قادرًا على البقاء هنا.

تطلعوا إليه، دون أن يتعجبوا مما قال، لكنهم لاذوا بالصمت، وغاصوا في شعورهم المتصاعد بالقهر، وتبادلوا النظرات، إلا أن أحدهم رمى ذراعه مستهينًا بما يسمع، وقال: لا يجب أن تضغط الحكايات القديمة على نفوسنا، وتدفعنا إلى التشرد في البلاد.

بدا في عيون بعضهم استملاح ما سمعوا، فواصل الرجل: هذه القرية كانت لهم، هم مَن وضعوا أساسها، وجاء جدنا القديم عليهم، فلم يضيقوا به.

نهره آخر: لا ترضَ بالذل.

رفت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ونطق: قول الحق مُر.

انقسموا بين راغبين في البقاء، ومُصرين على الرحيل، لكنهم آثروا أن يؤجلوا البت في أمرهم إلى وقت لاحق، مستجيبين لقول أحدهم: قرى كثيرة تتجاور فيها عائلتان كبيرتان، ولا ضرر في ذلك. وانتهوا إلى أنهم يجب أن يتمهلوا ليروا كيف تجري الأمور بينهم وبين «الصوابر» في قابل الأيام.

(6)

لم يكن «ناجي» يضمر لـ «الجوابر» شرًا، لكنه لم يُبدِ أي تراجع عن رغبته في السيطرة على زمام الأمر. شاركه «محبوب» هذا الشعور، وكانت شهيته قد انفتحت على تملك كل ما يستطيع شراءه، ولم يُخفِ تشفِّيه في «الجوابر». من نصيبه في أرباح المعاصر والطاحونة ومصنع الألبان اشترى أرض فلاح من قرية قريبة، تجاور أرض «الصوابر»، واشترى بيتًا قديمًا من النصارى، وشرع في هدمه

ليبنيه من جديد، وقال: لا بد أن نعمل حساب ذريتنا.

وكان قد أصبح له من الأولاد ثلاثة وبنت، ويطمع في المزيد، مدفوعًا برغبة ظلت دفينة في نفسه أنه يحتاج إلى عزوة من صُلبه، يطارد بها شعوره الدائم بأنه وارد على القرية جديد، حتى لو كان عمدتها. ولم يكن «ناجي» يختلف عنه في هذا، فاستعجل الإنجاب. وسايرته «نوارة» في هذه الرغبة، حتى قالت له ذات مساء: أتوحم على تين شوكي.

مد بصره من نافذة البهو العلوي إلى أرضه التي تأخذ ناظريه إلى البعيد، وتلا بصوت ندي: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

ألقت عليه نظرة حانية، وقالت بصوت خفيض: ربما تكون بنتًا ثانية.

- قلبي يحدثني أنه ولد.. ولكن كل ما يرزقنا به الله يكون خيرًا.

- يقول الرجال هذا، لكنهم في كل مرة يتمنون الولد.

- لا أنكر هذا، فالعمر يجري، وأحتاج إلى مَن يسند ظهري.

- كانت أمك أفضل من رجال كثيرين.

- مثل أمي من الصعب تكرارها.

وكانت «سميحة» على مقربة منهما تلعب بعروسة من القطن اشتراها أبوها لها من البندر، فنظرت إليها «نوارة» وقالت: أراها غاية في الفِطنة، وأحسب أنها ستفوق جدتها حين تنال نصيبها من التعليم.

هز «ناجي» رأسه، وقال: هذا سيجعل جدتها سعيدة في قبرها.

(7)

جاء حارس السرايا ذات ضحى، وقال لـ «ناجي»: المجذوب يستأذن في مقابلتك. لكنه آثر أن يذهب هو إليه بعد صلاة العشاء. وجده يجلس في قلب الزاوية يلتهم، على هدي مصباح آفل، لقيمات من طبق خوص وسيع تستقر فيه ثلاث بتاوات يابسة، وصحن به جبن، وآخر مملوء باللفت المخلل. وقف يتأمله، وهو يلتهم طعامه شاردًا، حتى إنه لم يشعر بمَن وقف بباب الزاوية يتأمله وابتسامة عذبة ترف على شفتيه.

ألقى عليه السلام فانتبه واقفًا، وقال: تفضل، ولو أن طعامي لا يليق بمقامك.

ضحك «ناجي»، وقال: سأخذلك وآكل معك.

جلس إلى جانبه، ومد يده إلى كسرة وغمسها في الجبن، وراح يلوكها وهو يمد بصره إلى الظلام الكثيف الذي يلف المقبرة، وقال: أنعم الله عليك بهذه السكينة.

ووقعت عيناه على خيوط تمتد بين جذع الشجرة وجدار الزاوية، خلصت له في الضوء الشحيح للمبة الجاز الذي أوشك على النضوب، وقال: سمعت عن مهارتك في صناعة الطواقي.

- مهنة ورثتها عن أبي، ويا ليتني أخلصت لها.

- كثيرون يتمردون على مهن الآباء بحقًا عما هو أفضل.

- تركتها إلى التعليم الأزهري، وقطعت فيه شوطًا لا بأس به، كان كفيلًا بأن يضمن لي وظيفة حكومية بسيطة.

- أتضحي بوظيفة في سبيل المجهول؟

- لم أفعل أكثر مما فعله أبوك، بل ما هو أقل، فأين أنا من مقام الشهادة؟

وشرح له كيف سحبه إلى هذا الطريق رجل اسمه «فهمي مربوح» كان من أعضاء «جمعية الانتقام» التي شكلها بعض الشباب الطامحين إلى الكفاح المسلح بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز مصر. كان الرجل من بين الذين حصلوا على البراءة لعدم ثبوت أي اتهام ضدهم. ماتت الجمعية التي لم تُعمّر سوى عدة أشهر، لكن «مربوح»، الذي كان على ثقافة رفيعة، لم ينسَ دوره. واصل منفردًا عمليات الانتقام، ولم تكن سوى طعن عساكر إنجليز عائدين من البارات ليلًا وهم يترنحون. فعلها خمس مرات على فترات متباعدة، ومرتين بصحبة «نوفل» إلى أن مات، وترك المهمة لتلميذه.

تنهد «نوفل» في حرقة، ثم رفت على شفتيه ابتسامة فاترة، وقال: لم أنسَ الكثير مما كان يقوله لي. حفظت بعضه من كثرة ترديده خاليًا، لكن أعمق ما بقي منه في نفسي، هو ما قاله لي ذات يوم: لن تُهزم إن لم تنكسر نفسك، وتخر إرادتك، ويلين عزمك. الهزيمة تبدأ داخل الإنسان، فإن تمكنت منه، وملأت شعوره بها، بدأ يسلك درب المهزومين، يقول أقوالهم، ويفعل أفعالهم، يعطي عدوه ظهره، ثم يفر أمامه، فإن كان الشعور بالانكسار طاغيًا ركع المهزوم وطلب من غيره أن يفعل مثله ثم راح يسب الشجعان.

هز «ناجي» رأسه، وراح يمضغ لقمته على مهل، ثم سأله: في أي أمر تريدني؟

- لم أعتد هذه العزلة القاتلة.

- فيها أمانك، فلا تُضحي به.

- لا أطلب منك سوى أن ترسل لي الجرائد التي تنتهي من قراءتها مع حارس السرايا.

- تستعجل ارتياب الناس فيك، فكيف لهم أن يدركوا أن صانع الطواقي يمكنه قراءة الصحف.

نظر إلى الخيوط التي غامت ألوانها في الضوء الكسيف، وقال: سأغلق باب الزاوية وأقرأ على ضوء اللمبة. ثم تنهد، وقال: انقطعت عني أخبار البلد، ومثلي يجب أن يتابع كل شيء.

وفاجأ «ناجي» بقوله: أظن أن فيك شيئًا من أبيك.

غاص في نفسه طويلًا، ثم رد: جفلت من هذا الطريق، وكفاني ما سمعته من أمي عما يسببه لصاحبه من أوجاع، بل قد يكلفه حياته كلها، ويورث أهله يُتمًا ووحدة.

ابتسم «نوفل»، وقال: هذا يعطي حياة المرء معنى.

لم يجاره «ناجي» وكأنه أراد أن يوصد باب الحديث، لكن «نوفل»، الذي كان بارعًا في تجنيد شباب كثيرين ضمهم إلى الثائرين، قال له: العيش في خطر له لذة لا يعرفها إلا مَن جربه.

قهقه «ناجي»، وقال: معلنا يخدم البلد بطريقته.

ثم رفع بصره نحو الظلام الذي يترامى فوق الزرع، وسحب أنفاسًا من النسائم الطرية التي تهب من هناك، وقال: أنا أزرع وأصنع، وهذا في نظري دور مهم لبلادنا، أراه أفضل لها من الجري وراء المجهول.

لكن «نوفل» عاجله قائلًا: لا تعتقد أننا مجموعة منقطعة للاعتراض والشغب، بيننا أصحاب الأملاك ورجال المال والموظفون الكبار، ومنهم بكوات وباشوات. ثم رمى إليه طُعمًا آخر، فقال: هناك طريق آخر آمن، يمكنك أن تسلكه في سهولة، وستجد فيه عزًّا وحماية.

تطلع إليه وفي عينيه سؤال، فقال «نوفل»: يمكنك الانضمام إلى حزب سياسي، ولك من المال والأهل ما يجعلك قادرًا على أن تكون عما قريب واحدًا من أعضاء مجلس شورى القوانين.

انشغل رأس «ناجي» قليلًا بما سمع، فعاجله الرجل: ليس للطموح نهاية، ومثلك لا يجب أن يكتفي بمجرد أن يكون كبير هذه القرية. ولمَّا لم يجد منه ردًّا، واصل: أنت على معرفة، وقراءة الجرائد أمدتك بكثير عما يدور في بلدنا، الذي هو الآن في حاجة إلى كل مَن يمد يده إليه.

لم يجد «ناجي» ما يقوله سوى: لندع كل هذا للأيام القادمة.

لكن منذ اليوم التالي وجد «ناجي» نفسه يقرأ ما في الصحف بطريقة مختلفة. لم يعد الأمر بالنسبة له تسلية، أو شيئًا يزيد من تميزه عن بقية أهل القرية، إنما وجد عينيه تحطان على أسماء الأحزاب ورجالها، وما يدور في المجلس النيابي، وما يقوله الخديوِ ويفعله، وما يصدر عن الاحتلال الإنجليزي، وكل ما يدور في العالم كله.

وذات يوم قال لزوجته: الحياة مراحل، ولا يجب أن يكف المرء عن السعي إلى ما هو أكبر.

وحين قابل «محبوب» في السلاملك، قال له ضاحكًا: ما أصغر «الجوابر» في عيني. رد وهو يسعل بعد أن سحب نفسًا عفيًا من الأرجيلة: لا تستهن بمكرهم.

(8)

اهتم «ناجي» بتطوير المدرسة منذ أن تولى نظارتها. تبرع لها بمالٍ كافٍ لطلاء جدرانها، وتوسيع فنائها، واشترى مقاعد للتلاميذ الذين فاض عددهم على أماكن جلوسهم، وخصص غرفة لتكون مكتبة. شرح للنجار كيف يقيم أرففها، مثلما رأى في مكتبات «القاهرة»، وجلب إليها العديد من الكتب في مختلف العلوم، وعيّن لها أمينًا يقوم على فهرسة الكتب، ويُنظم استعارة المدرسين لها.

حض المدرسين على القراءة المتواصلة، وخصص حصص المطالعة لتكون فرصة طيبة لتوسيع مدارك التلاميذ. أقام بينهم مسابقات في الثقافة العامة، وكان يُعطي من جيبه مكافأة لمَن يجيد فيهم. فعل الأمر نفسه في الكُتّاب، واحتفى بمَن يحفظ سور القرآن.

ودعا ذات يوم نُظّار مدارس متناثرة في القرى المجاورة، وأطلعهم على تجربته، وأبدى استعدادًا لنقلها إلى مدارسهم، فرحبوا بهذا، ورددوا اسمه في المدارس، وحمله الأولاد إلى البيوت، فامتلأت نفوس الناس في الزمام كله بامتنان عميق له.

وأوصاه «نوفل» بتوسيع نفوذه، قائلًا له: يكبر المرء في عيون

أعيان البلد بقدر ما يشهد له أهله برفيع المكانة. فدعا «ناجي» عمد القرى المجاورة ومشايخها، غير مرة، إلى غداء أو عشاء في السرايا، وشرب الشاي والقهوة. كان ينتهي بجلسة في حديقة السرايا يتدبرون فيها أمورهم، ويفضون المنازعات بين المتخاصمين، وينظرون في مشكلات الزراعة والري. كان يجلس في صدارة المجلس، مستعينًا بما في رأسه من معرفة، ومن خبرة القاضي والمدرس وصاحب الأرض والصناعة، فرآه العُمد كبيرهم، وأوكلوا إليه أن يكون همزة وصل بينهم وبين مدير المديرية.

كان المدرسون الذين يعملون تحت رئاسته ينتمون إلى قرى عديدة حول «الصابرية»، فطلب منهم زيارات لقراهم في أيام جمع متتابعة، ليلتقي أهلها بعد الصلاة. واختار كل مدرس بعض كبار قريته ونابهيها ليجلسوا معه. في كل جلسة كان يستفيض في طرح حلول لمشكلات أهل القرى، ويخرج منها إلى هموم الدولة بأكملها.

وقال له «نوفل» ضاحكًا: يبدأ السياسي الحقيقي رحلته من القاع.

- فتحت عيني على طريق، لا أدري إن كانت نهايته سعيدة أم تعيسة؟

- لديّ ما ينفعك، فاعتبرني مستشارك.

وكان يختلي إليه في الزاوية، أو يستدعيه للسرايا، ليناقشه فيما قرأه في الصحف، ويسأله عن أسماء وأشياء، وكان «نوفل» يعرف الكثير من التجارب نقلها إليه، وأوصاه أن يسافر إلى «القاهرة» لحضور مؤتمرات يعقدها الساسة، وطلب منه أن ينصت أولًا في إمعان شديد، ثم يشارك في النقاش، ليعرفه الحاضرون.

وأبلى في هذا بلاءً حسنًا، فتردد اسمه بين المنشغلين بالسياسة، وشجعه وجود وكالة له لتبيع منتجات مصانعه في أن يقيم بأي من فنادق القاهرة أيامًا وليالي، يدعو فيها بعض مَن راق لهم حديثه، ليتبادلوا الرأي. ولم تمر سوى شهور، حتى رأى فيه كثيرون رجلًا محل ثقة.

وزاد تردده على «القاهرة» حين انتقل إليها «صابر» ليلتحق بالأزهر، فاشترى له شقة في الأزبكية، كان يقيم فيها معه أيام وجوده بعاصمة البلاد، ويدعو إليها بعض مَن صادقهم ليتناولوا معه طعامًا مختلفًا أحضره معه من «الصابرية».

واستمع «نوفل» ذات يوم إلى حديثه، فنظر إليه في إعجاب، وقال: لم تبقَ أمامك سوى خطوات، وتصبح أحد أقطاب السياسة في بلادنا.

كان «محبوب» يستملح الخطوات التي يقطعها «ناجي» على دربه الجديد، ويرى فيها سندًا له في الاحتفاظ بالعمدية، وتوسيع طريق تجارتهم، وإن كان يضيق أحيانًا بما ينفقه «ناجي» بسخاء على السياسة. ووجد نفسه يقول له ذات يوم: إن لم تُعطِ السياسة كما تأخذ تكن عبئًا على صاحبها.

نظر إليه في اندهاش، وقال: في الحياة ما هو أهم من المال.

وأقره «نوفل» على رأيه، وقال له: لبلادنا دَين في أعناقنا جميعًا.

كانت «نوارة» منزعجة مما طرأ على زوجها. رأته قد انشغل عنها كثيرًا، وضجت بالشكوى مرات، لكنه كان يرضيها بالهدايا التي يجلبها

لها من «القاهرة»، ويختلي إليها ساعات، ليطلعها على ما يعتزم فعله، وكيف ستكبر معه، وتصير واحدة من هوانم البلد بأسره.

كانت تغلق باب الحديث كل مرة بعبارة مكررة: لنعش كما عاش أهلنا. لكنه كان قد قرر أن يدفع سيرة أهله إلى الأمام دفعة قوية، منصتًا إلى تشجيع «نوفل»، واستحسان «الصوابر» من سكان «القاهرة» أن يكون أحد رجالهم من بين الكبار. وما زاده إصرارًا على هذا أن «صابر» قرر أن يبقى في «القاهرة»، ويلتحق بالجامعة الأهلية بعد حصوله على العالمية من الأزهر.

كانت أخبار ما يفعله «ناجي» تسقط على رؤوس «الجوابر» كالصخور الجارحة. تملكهم خوف شديد من أن يسحقهم حين يزداد مكانة، رغم أنه بدا وكأنه قد نسيهم في غمرة انشغاله الجديد، متبعًا نصيحة «نوفل» الذي أنصت إلى شكواه من أثر الحكايات الغارقة في الإحن، وقال: تكون عظمة الرجل على قدر مكانة خصومه. ثم رفع يده إلى الشمال، وكأنه يشير إلى «القاهرة»، وقال: خصومك أبعد كثيرًا من بقايا عائلة قروية تتداعى. ونصحه أن يفتح صفحة جديدة مع «الجوابر»، وقال: قد تكون بحاجة إلى أصواتهم في الانتخابات المقبلة.

كان قد قرأ في جريدة «الأهرام» أن المعتمد البريطاني اللورد كتشنر قد ألغى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وسيصدر قانونًا يقيم «جمعية تشريعية» مدتها ست سنوات، يُعين فيها سبعة عشر عضوًا، ويُنتخب ستة وستون من مختلف المحافظات، على أن يكون العضو فوق الخامسة والثلاثين من عمره،

ونال حظه من التعليم، ودافعًا للضرائب.

وحين قرأ «نوفل» الخبر، قال له: كأن مَن وضع هذه الشروط يراك.

قهقه «ناجي»، وقال: في بلدنا آلاف ينطبق عليهم هذا.

طوح «نوفل» يده في استهانة، وقال: أنت معك ما ليس لأغلبهم.. محبة الناس وثقتهم، ومال يعينك على قضاء حوائجك.

طأطأ «ناجي» رأسه، وكأن شيئاً قد أثقله، وقال بعد أن زفر في أسى: كل هذا قد يضيع خلال قفزة في الفراغ.

كان «نوفل» يعرف أن الانخراط في الهموم العامة ينطوي على مخاطرة، لكنه سمعه لأول مرة يتحدث عن فراغ ينجم عن هذا. ألقى نظرة متعجبة على «ناجي»، فراح الأخير يبدد تعجبه حين قال له: طالما صعدت عائلتي حتى كادت تمسك النجوم، ثم ألقت بها مغامرات بعض كبارها إلى أسفل سافلين.

تنهد «نوفل»، وكان قد أدرك وطأة الحكايات القديمة على «ناجي»، فقال له: ربما تضع أنت حدًّا لهذه الآفة.

(9)

لم يتعلم «بهاء» شيئًا من السجن سوى الصبر. كان قبله لا يجيد لعبة ترويض الوقت، ويتوهم أن بوسعه أن يقول للشيء: تعالَ، فيأتيه مسرعًا، ويكون طوع بنانه. بعد السجن تعلم أن يتخلى عن التسرع والطيش حين يفكر في تدبير أمر لخصومه.

لم يكن في رأس «بهاء» من عدو سوى «ناجي». وحده الذي كان

يأتيه في منامه كابوسًا قاتمًا يفزعه. وحده الذي كانت صورته تحط على جدران العنبر كلما نظر إليه وهو يقظ، فكان يبعد ناظريه سريعًا إلى وجوه رفاقه. كم آلمه حين أخذوه إلى زنزانة انفرادية، بعد واقعة سبه لأحد السجانين، ألا يجد الوجوه التي تأخذ عينيه من وجه «ناجي» وهو يلاحقه من الجهات الأربع! وكان يغلي كلما نقلت إليه أمه أخبار خصمه، وقالت له كل مرة: «ناجي» كبر أكثر.

كانت تشرح له ما سمعته أو رأته، كلما كان يلح عليها. حتى حين تركت القرية استجابة لما طلبه منها، لم يعفها من جمع أخبار «الصوابر». ضاقت بانشغال ابنها بخصمه على هذا النحو، وأدركت أن ما ينتظره بعد خروجه من السجن لن يجعله يعيش في سكينة.

نظرت إليه في تودد، وقالت: لك ابن عليك أن تفكر في العيش له.

لم ينطق، فواصلت: أربيه على أفضل وجه، وأخبره بأنك في سفر وستعود.

كان يهمل ما فطنت إليه هذه المرأة المعذبة بين محبتها لابنها وحفيدها، وعدم اقتناعها بما يملأ رأسه، ويجعله يندفع في طريق الخسران. حاولت مرارًا، وهي في القرية أن تثنيه عما يعتزمه، لكنها فشلت، واستسلمت لعجز صنعه قلب ينبض مرتين، لا لقاء بينهما، مرة لفرط محبته، ومرة للخوف منه، بعد أن صار مخيفًا، وطالما أفسد الخوف الحب، فخضعت له، مكتفية بدعوات كانت تشعر بأنها لا تصعد إلى السماء.

حافظت على ماله حتى سلمته إياه، وقالت له: لم يبقَ مما تركه أجدادك سوى هذا، فإن لم تزده، حافظ عليه. اشترى شقة في بندر

«أسيوط». فرشها بأثاث وثير، وأتى بخادمة لتربي ابنه، ثم جلس على أحد المقاعد اللينة يفكر فيما عليه أن يفعله في قابل الأيام. دار رأسه مستعرضًا الكثير من الأشياء التي يمكنه أن يبدأ بها، لكن خياله كلما كان يخطو إلى الأمام خطوة، قفزت المخاوف فردته خطوتين، حتى إنه تعجب من نفسه، وسألها هازئًا: أين أيام الطيش والحماقة؟

وأشار عليه صديقه «عبد القوي الحاجري» بأن يطلق أي مشاريع تُدر عليه دخلًا، حتى لا يتآكل ماله. كان في الحقيقة يريد أن يشق لنفسه دربًا إلى جانب هذا الثري الذي أهدته إليه الأيام في ظلام السجن. نظر إليه «بهاء» في سخرية، وقال: كأنني أنتظر مشورتك.

جفل «الحاجري» وابتلع ريقه، وهو يشعر بأن «بهاء» يريد له أن يعرف أن الرؤوس التي تساوت في السجن آن لها أن تتفاوت. لكن رجلًا مثله لم يستطع تقبل الإهانة المبطنة دون رد. نظر إلى «بهاء» وقال: أنت ابن ريف، ومهما كان لك من مال أو طموح لن تعرف خبايا المدن بسهولة.

رفع إليه عينين كسولتين من فرط الشراب، فواصل: نبدأ بمشروع بسيط، أنا أعرفه جيدًا، وربحه مضمون.

زفر في غيظ، وسأله: أي شيء هذا الذي تضمن ربحه؟

أجابه على الفور: مقهى.

ثم عرض عليه شراء محل واسع يواجه مبنى المديرية والمحكمة الشرعية وقريب من قسم الشرطة، وقال: في مثل هذا المكان سنضمن زبائن بلا انقطاع. وحين وجد في عينيه ترددًا قال له

مشجعًا: أعرف أن هذا ليس من مقامك، لن تظهر في الصورة، وأنا سأدير كل شيء. فهز «بهاء» رأسه، وقال: سأفعل هذا من أجلك، لكن علينا التفكير في أبواب رزق أخرى.

لم يكن «بهاء» قد نسي تطلعه إلى نيل البهوية، فأنفق على هذا بسخاء، لكن الأمر تعثر، وجاءته ردود شتى من وسطائه، وكانوا لا يتورعون عن ابتزازه، حتى انتبه إلى أنه أنفق على هذه الرغبة مالًا كثيرًا، فلعن في سره «قطاوي» وابنه، وقال لصديقه «عبد القوي الحاجري» وهو يكتم غيظًا يكاد يمزقه: لا بد من تعويض ما ضاع مني.

نظر إليه صامتًا، ينتظر منه أن يبوح بما يدور في رأسه، فواصل «بهاء»: لم أخلق أنا وأنت لنكدح كفلاحي الغيطان.

سأله في لهفة: ماذا تنوي؟

صمت برهة، ورد عليه بسؤال: هل أنت معي مهما جرى؟

- أفضالك فوق رأسي. لم يعطني أحد في هذه الدنيا مثلك.

- الأيام آتية، وسنرى.

وفوجئ به يعرض عليه ذات يوم خطة للانتقام من غريمه «ناجي»، ثم قال: هذه مجرد بداية. وبدا «عبد القوي» غير متحمس لما سمعه، لكن «بهاء» كان يعرف ما يثير حماسه، فقال له: سأعطيك ربع ما نحصل عليه، وربع للرجال الذين سينفذون ما نريد، والنصف هو جزء مما أخذه مني عدوي في سنوات مضت.

كان «بهاء» يعرف مكان الخزينة في السرايا، هو لم يتغير منذ أن

بناها الوجيه. حتى أطفال القرية يعرفون هذا المكان، لكن ليس بوسع أحد أن يصل إليه، وإن وصل، فهي واقفة في الجدار، تلتحم بها أحجاره الثقيلة، وبابها من حديد صلب، ومفتاحها لا يعرف أحد مكانه. وحتى لو تمكن بعض الناس من تخليصها من الجدار، فلن تقدر على حملها سوى عصبة، وأنّى لهؤلاء فعل ذلك دون أن يشعر بهم أحد؟

أنصت إليه «عبد القوي» ثم قال: هذه مهمة صعبة، خصوصًا في بيت ريفي.

رد «بهاء»: أهل البيت جميعًا منشغلون الآن في ترشح «ناجي» للجمعية التشريعية. وعاد يدقق في عيني «عبد القوي» المملوءتين بالأسئلة، ثم قال: لا تقلق، أنا أعس وراء ما يجري هناك. وراح يحك ذقنه بسبابته ويرمي ابتسامة عريضة، وواصل: أهلنا هناك، ولن يبخلوا علينا بشيء. وأشار بيده نحو ثلاثة أظرف مفتوحة، تطل منها أوراق بيضاء مُلئت سطورها بالكلمات، وقال: يأتيني كل أسبوع خطاب من هناك، فيه شرح لكل شيء.

بدا الانزعاج على وجه «عبد القوي» وقال له: عليك التخلص من هذه الخطابات، فهي ستكون دليل إدانتنا فيما بعد.

قهقه، وقال: لم يرَها أحد غيرنا، وطبعًا «بَدُور» الذي كتبها وأرسلها، وسأحرقها أمام عينيك لتطمئن.

حاول «عبد القوي» ألا تظهر السخرية التي حلت بنفسه في عينيه، أبعدهما، وسأله: هل ستحرق مَن كتبها أيضًا؟

أجاب: أنا أضمن إخلاص «بَدُور» لي، وأضمن أكثر حنقه على «الصوابر».

فكر «عبد القوي» قليلًا، وقال: هل ترسل له الخطابات باسمك؟

- لا، بل باسم آخر، خوفًا من أن تقع عينا العمدة أو «ناجي» على عنواني.

وبينما كان الدخان يتصاعد من مجمرة ألقى إليها الخطابات، سأل «بهاء»: هل تعرف شخصًا بارعًا في فتح الخزن؟

- ليس هناك أمهر من «عجب سيده».

- مَن؟!

- هذا اسمه فعلًا.

- أتمنى أن يُعجبني حين يتمكن من فتح الخزانة العامرة بالنقود والذهب.

ثم رفع رأسه وقال: أريد استرداد كل ما أخذوه مني، ومن أهلي.

(10)

في المقهى الذي يجلس «عبد القوي الحاجري» في صدارته، تربع شاعر على كرسي عريض. داعب ربابته، وغاص في رأسه وقلبه، ليصطاد المعاني العجيبة التي تهز نفوس الجالسين، فيمدون أيديهم إليه ببعض من قليل مالهم.

قبل أن يغرف من الشعر الذي نسج أبياته على مهل، تلفت حوله، وأراد أن يُمهد الآذان المشرعة لسماع قصيدته الطويلة المجروحة،

فقال العبارة التي صاغها له أحد الأفندية فحفظها عن ظهر قلب: كل هذه الكبرياء والصبر يا صابرية في شوارعك حلت الغرائب والعجائب التي شاهدها الناس في كل زمان ومكان. على مدار الزمن كنت القلب في جسد مريض. سلام الآن وغدًا، كما كان بالأمس، على أطفالك الميامين، ونسائك الماجدات، أمهات الرجال الذين ينظر إليهم الصعيد كله بإكبار. رغم طول الزمن، ومشقة الرحلة وآلامها، لا تزالين واقفة يا صابرية، اسم أنتِ على مسمى، تجري الحكايات في شوارعك، كما يجري الماء في غيطانك.

كان تمهيد يسبق انطلاق الرباب مجروحًا قبل أن يتدفق الشعر سخيًا، لكن الشعر مات في رأسه، حين صرخ فيه «عبد القوي»: زهقنا من حكاية «الصوابر»، أليس لديك غيرها؟

كان «عبد القوي» قد أصابه الملل من حكايات «بهاء»، ولا يريد أن يتذكرها، وكان يعرف أن الشعراء ينحازون إلى «الصوابر»، فلم يُرد أن يملأ أذنيه بما يكون فيه «الجوابر» أشرارًا مهزومين، وواحد منهم صار ولي نعمته الآن. لكن أكثر ما جعله يغضب هو أن يتسلل الشِّعر إلى رؤوس الناس فتنضح منها أسئلة قد تقود مع الأيام إلى أن صاحب هذا المقهى هو كبير «الجوابر» الآن، فربما يصرفهم هذا عنه، بعد أن تمكنت كراهية «الجوابر» من نفوسهم.

لم يُبدِ أي تسامح مع الشِّعر الذي يصور هذه الحكاية التي عششت في الرؤوس قرونًا، ترمي بها ألسنة الشعراء إلى آذان كل جيل، ولا يكف الناس عن طلب سماعها.

(11)

مع الأيام راح «ناجي» يُحلق بعيدًا فيصغر «الجوابر» في ناظريه، بينما كان «بهاء» يغوص في الأرض، فكبر في عينيه «الصوابر»، حتى صاروا يسكنون رأسه ليل نهار، ويمدون سيقانهم ليطبقوا بها على صدره. يتنهد في حرقة، متطلعًا إلى اللحظة التي يزيح فيها هذا الغم.

وقالت له أمه: أنت تريد أن تُشقي نفسك. لكنه لم يكن يضع كلامها في الاعتبار، ومضى يجمع الأخبار التي ترده من «الصابرية» في خطابات بريدية. ثم لم يكتفِ بهذا بل طلب ممن يراسله أن يأتي إليه، فجاءه يتخبط في ظنونه. فلما اختلى به، قال له: هناك ما لا ينفع شرحه في الخطابات. طأطأ رأسه، وقال: تحت أمرك فيما يريد.

طلب منه أن يصف له بدقة تحركات «ناجي» في هذه الأيام، فوضع أمامه كل شيء كما يعرفه، وكان لا شغل له طوال الأسابيع الأخيرة سوى مراقبة السرايا من بعيد، ولملمة ما يتناثر من أخبار على ألسنة الرجال في الحقول وعلى المصاطب، وعلى أفواه النساء أمام أفران الخبيز، وعلى عتبات الدور.

وتوقف «بهاء» حين قال له الرجل: أنجب «ناجي» طفلًا.

رفّت على شفتي «بهاء» ابتسامة صفراء، وسكن في أعماق عينيه غدر حاول أن يداريه، وقال: مبارك له.

وجيء إليه بحرامي الخزن «عجب سيده»، وكان رجلًا نحيلًا، تتراقص عيناه في رأسه كأنها ترقب كل شيء حوله، ولا تكف شفتاه المقددتان عن احتضان لفافة تبغ. يسحب منها بفمه ويطرد الدخان من منخريه سريعًا. جلس قبالة «بهاء» فشرح له كل شيء، ثم تطلع

إلى أصابع يده الممشوقة، كأنها خلقت للأعمال الخفيفة الدقيقة، وقال له: صيد ثمين، إن ظفرت به، فلك حلوان كبير.

ابتسم، فبانت أسنانه المتآكلة، وقال: ليس حلوانًا يا بيه، إنما أجر على قدر ما في الخزنة.

هز «بهاء» رأسه، وقال: لن نختلف، المهم أن تنجز مهمتك دون نقصان.

أطرق مفكرًا، وقال له: لا أحتاج سوى إلى نصف ساعة حتى أنجزها، لكني أحتاج إلى مَن يؤمن دخولي إلى السرايا، ويحمي ظهري وأنا جالس إلى الخزنة، ويؤمن خروجي.

قال له «بهاء» في ثقة: لا تقلق، أنا جهزت للأمر جيدًا.

(12)

ما إن رفعت القابلة الوليد بين يديها حتى شهقت، ثم كتمت الصوت الذي انفلت من أعماقها، وأتبعته سريعًا بالقول: فلقة قمر. ثم انهمكت في تنظيف جسده بالقطن، ولفته في لباس أبيض اشتراه له «ناجي» من «القاهرة». وقبل أن يغطيه اللباس حطت عينا الخادمة الواقفة عند السرير على صدر المولود، ثم اتسعتا دهشة. بلعت ريقها، وقالت لـ «نوارة» في مودة: مبارك لكِ يا ست.

كانت «نوارة» تبلل شفتيها المقددتين بلعاب عالق في لسانها الذي ابيضَّ من كثرة الصراخ، بينما عيناها تطردان الغيم الذي سكنهما أثناء الوجع الرهيب. اعتدلت قليلًا، وقالت للقابلة: هاتي رضوان. وكانت قد اتفقت على هذا الاسم مع أبيه. استملحت القابلة الاسم،

ورفعت الوليد إلى أمه، وهي تقول: يتربى في عز أبيه.

أخذته منها، وملأت عينيها من وجهه، لتستيقن مما تسمع، فوجدته يشبهه فعلًا. ابتسمت وهي مستريحة لمرأى وليدها. وبينما تمده لتضعه إلى جانبها مستلقيًا على ظهره، لمحت أطراف خطوط حمراء تطل نحو عنقه. ظنت أنها نتاج احتكاك أصابع القابلة بجسده الغض وهي تسحبه، أو أن اللفة التي طوقت جسده قد حكته خفيفًا. مدت أصابعها، وأزاحت اللفة قليلًا، فإذا هي خمس أصابع. أزاحت أكثر فرأت الكف مبسوطة على صدره.

ملأها فزع وعجب، وسألت القابلة: هل رأيتِ ما بجسده؟

مدت بصرها على الفراش، وقالت بصوت خفيض: يبدو أنكِ كنت تتوحمين على كف أبيه.

أطلقت ابتسامة فاترة، وسألت القابلة: هل رأيتِ مثل هذا من قبل؟

أجابتها على الفور: رأيت أشياء على أجساد مواليد كثر، لكن ليس مثل ما هو مطبوع على جسد ابنك.

وجاء «ناجي» متهللًا، فأشارت «نوارة» إلى القابلة والخادمة لتغادرا الغرفة. فلما اختلت به، فكت اللفافة من فوق صدر وليدها، وأشارت بإصبعها إلى الكف الحمراء، وقالت: لا أعرف ما هذا.

مد رأسه حتى اقتربت عيناه من الكف، وامتلأ وجهه عجبًا، وقال: يا إلهي! كيف هذا؟

- خَلْق الله، ونحمده أن الوحم لم يكن في وجهه.

- العِرق دساس.

- هل هي علامة في عائلتكم؟

تنهد، وغاص ذهنه في أوحال زمن طويل، وسألها: ألم تسمعي ما ينشده القوّالون من سيرة «الصوابر»؟

ـ سمعت بعضها، لكنها تتغير من قوّال إلى آخر، ولا أتذكر أنني سمعت أحدهم تحدث عن كف حمراء تحط على صدر أحد.

صمت برهة، ثم قال: أنا سمعت، وأتذكر جيدًا أنني سألت عمي «عمر» عما إذا كان هذا من خيال القوّالين، لكنه أبلغني أنه قد سمع عنها من أبيه، وقال له إنه قد سمعها من جده، الذي كان يؤكد أنها حقيقة وليست من ابتداع الذين يغنون على الرباب، وأن كفًا حمراء كانت على صدر جدنا البعيد «سالم بن غنوم».

- هل كان جدك، صاحب الوشم، رجلًا طيبًا وناجحًا؟

- يُقال إنه كان وحيد أبيه، حين خطفه رجل من «الجوابر» اسمه «يونس»، وتركه وهو رضيع إلى جوار مغارة وبجواره صندوقان أحدهما مملوء بالنقود والآخر بالذهب، فوجده رجل عقيم غريب، فأخذه إلى مكان بعيد، وهناك صارت له أرض وسرايا.

- حكاية غريبة حقًا.

- عائلة غارقة حتى نواصيها في غرائب لا تنتهي، ومنذورة لوعد لم يأكله الزمن.

عادت تنظر إلى الكف المطبوعة على صدر الوليد، وقالت: مَن

يدري، لعلها علامة على شيء أبعد من خيالنا.

وتذكر ما جرى لجده «سالم» فانقبض قلبه، وتطلع إلى الوليد الذي كان مغمض العينين، سابحًا في ملكوت الله، لا يدري شيئًا عما ينتظره في قادم الأيام.

(13)

تحولت السرايا وحديقتها إلى سوق يعرض فيها أهل القرى رغباتهم في تأييد «ناجي». منذ الصباح الباكر وحتى انتصاف الليل لا تنقطع الأقدام عن المجيء والذهاب. كان لا يبخل على أي منهم بطعام أو شراب. خصص ثلاث غرف خلفية تطل على شونة الغلال من بعيد، لتكون مكانًا لإعداد ما يأكله القادمون ويشربونه.

استعانت «نوارة» ببعض نسوة «الصابرية» ليساعدن خادماتها في النهوض بهذه المهمة المضنية. جاءت بعض النسوة متطوعات، فيما تطوع آخرون إلى جانب أجراء لحمل الطعام إلى الموائد، وأكواب الشاي إلى الأصابع التي تلتقطها، وترفعها إلى الأفواه.

كان منافسه الحقيقي واحد من باشاوات البندر، فلاحت في الأفق نُذر معركة انتخابية حامية. عاش الناس في القرى حالة لم يمروا بها من قبل، وتخالطت في نفوسهم مشاعر المحبة والبذل والتعصب والخوف. كان مَن تلقوا قسطًا من التعليم ينظرون إلى هذه الانتخابات باعتبارها خطوة على طريق الألف ميل. هناك منهم الذين نظروا إلى الأمر باستهانة، فالجمعية التشريعية مجرد صحبة من أهل المشورة، وما يشيرون به لا يُلزم مَن ينصت إليهم، أو يقرأ ما رفعوه من اقتراحات.

واقترب مدرس شاب من «ناجي» ذات يوم، وهمس في أذنه: يعز عليّ أن تنفق كل هذا كي تلتحق بهيئة لا تزيد على كونها زينة للاحتلال والقصر.

لكن «نوفل» شجعه وقال: حجر أساس يمكن البناء عليه.

لاذ «ناجي» بالصمت، إلا أن عينيه امتلأتا بالأسئلة. فطن «نوفل» إلى ما يدور برأسه، فقال له: البلاد في حاجة إلى قيادة تمثل الناس بحق، ولا توجد وسيلة الآن آمنة أفضل من الانتخابات. وحتى يشجعه أكثر، قال له ما لا يقدر على تجاهله: أبوك اقترب من عرابي والنديم، ولعلك تكون مع لطفي السيد وسعد زغلول في مكان واحد، فهما مرشحان مثلك. ثم وضع يده على كتفه، وداس عليها، وواصل: قد يولد من قلب ما نحن مقدمون عليه أولئك الذين انتظرهم الشعب طويلًا ليقودوه إلى الاستقلال.

اشتعلت نفس «ناجي» حماسة، فاندفع يبذل أقصى جهد كي يبلغ هذه الغاية. واصل الليل بالنهار، موزعًا الابتسامات في كل اتجاه. مد يده ليصافح أيادي صادفها أو سعت إليه أو سعى هو إليها، ولامست كتفاه أكتافًا. دخل بيوت الفلاحين في القرى، وبيوت الموظفين والعمال في المدن. جلس على المقاهي. مد يده ليمسح رؤوس أطفال صغار، وحدث نساء من خلف الأبواب ووراء النوافذ. دخل المساجد والكنائس والمعابد، وأسعفته بلاغته في أن يُحدّث كل فئة بما تفهمه، ويروق لها.

لم يستغنِ حتى «الجوابر» من اهتمامه. انتظر بعض رجالهم خارج المسجد وصافحهم. بعضهم دعا الله له بالتوفيق في مهمته. هناك

مَن عرض عليه أن يشمر عن ساعديه وينخرط بين رجاله، ويفعل ما يفعلون. يوجد مَن أقسم بالله إنه سيمنحه صوته بلا جدال. قلة لم تذهب إلى السرايا مع الذاهبين.

تنادوا في بيت أحدهم، واتفقوا على أن نجاح «ناجي» سينقله من أن يكون كبير القرية ثم الزمام إلى واحد من أعلام مصر كلها. قال أحدهم، وهو ينفخ ضجرًا وفزعًا: حين يجلس مع كبار رجال مصر لن يرانا.

سخر آخر، وقال: هو الآن لا يرانا بالفعل.

تدخل ثالث: يأخذ «الصوابر» إلى مرتبة لم يبلغها أحد من عائلتنا طوال تاريخها الطويل.

وضرب أحدهم رأسه وكأنه يوقظ ما ركد فيه من قدرة على التفكير في شيء، وقال: لا أعرف إن كان علينا أن نفعل شيئًا أو نستسلم لما يأتي.

وقال خامس: وضعنا أملًا في «بهاء» لكنه خذلنا.

ابتسم «بَدْور»، وقال: لم يمت الأمل فيه بعد.

تطلعوا إليه في لهفة، وكأنهم ينتظرون أي خبر يخفف من إحباطهم الشديد، وسأله أحدهم: ما الذي يجعلك لا تزال ترى فيه أملًا؟

تنهد، وقال: لم ينسَ «بهاء» ثأره.

قهقه أحدهم، وقال: لا أحد منا يعرف أراضيه حتى يعرف ما يفكر فيه.

وطوح أحدهم يده في الهواء استهانة، وقال: من الحماقة أن ننتظر من طيشه شيئًا مفيدًا.

حك آخر يده في ذقنه وقال: الشيء الوحيد ذو القيمة الذي يمكن أن يفعله «بهاء» لعائلتنا هو قتل «ناجي».

امتقعت الوجوه خوفًا، وقال أحدهم: اخفض صوتك يا مجنون.

قال «بَدُور» في هدوء: القتل البطيء أشد إيلامًا.

(14)

في خياله مد «بهاء» يده مرات ليقتل «ناجي». رأى وجهه على جدران عنبر السجن، وسوره العالي، فكتم أنفاسه، وصوب الرصاص على رأسه، ورآه يسقط تحت الجدار غارقًا في دمه. لم يدعه يموت سريعًا، إنما تركه ينزف ويتوجع، ويمد يده إلى «بهاء» متوسلًا له أن ينقذه، فينظر إليه باستهانة، وعلى شفتيه ترف ابتسامة ساخرة، ثم يتقدم نحوه، ويضع قدمه على عنقه، ويدوس عليه فيغرق رأسه في الدم والوحل، ويرى الفقاقيع التي تصنعها غرغرته اليائسة تتوالى على صفحة دمه.

وبعد أن فارق السجن استعاد المشهد على حوائط شقته، وجدران المقهى الذي يزوره بين حين وآخر، حتى لا ينسى «عبد القوي» أنه ليس صاحبه. كان يستغرقه ما يرى لدرجة أنه يجد نفسه يهرول أحيانًا نحو الصورة المتخيلة، ويبصق عليها ويركلها. صار مريضًا بـ «ناجي»، ولا يحتاج إلى مَن يُشخِّص له ما يعاني منه، لكنه يعرف كيف يشفى.

زاد حنقه على «ناجي» بعد أن عرف نيته الترشح لانتخابات الجمعية التشريعية، واشتعلت في نفسه النار، لما أخبره العارفون بأن فرص نجاحه كبيرة، لكن نار الأسئلة كانت أشد: أيقتله بنفسه وليكن ما يكون؟ لكن ماذا لو تفادته الرصاصة الغادرة؟ وماذا لو وصلت الشرطة إلى القاتل؟ هل لديه استعداد أن يقضي بقية عمره في السجن؟ وحتى لو أجّر مَن يقتله فما أدراه ألا يقع المأجور في يد الشرطة؟ وربما لو عرف أن المكرى عليه بهذه المكانة لطلب أكثر، أو يقبض ما يعطيه له «بهاء» ثم يذهب ويبلغ «ناجي» ويأخذ منه أيضًا؟ ولو قتله ألن يرد «الصوابر» بقتل ابنه إن لم يتمكنوا منه هو؟

زفر متألمًا من شوك الأسئلة، وسأل نفسه: هل يضمن مجرم تفادي العقاب؟

وكان عليه أن يجعل نفسه بعيدًا عن الشبهات. يضع بينه وبين مَن ينفذون حاجزًا، بل اثنين، أو حتى ثلاثة، لكن كيف يمكن لآخر مَن يُكلف بالأمر أن يعي جيدًا ما يقصده مَن أصدره أولًا؟

وجعله خوفه من السجن يختار طريقة أخرى، فسأل «عبد القوي»: هل تعرف القتل البطيء؟

- يقتل ببطء السم والقهر.

- لا أدري كيف أسمم جسده لكن أعرف الآن كيف أقهر روحه.

- ليس من السهل قهر مثله، هذا ما أدركته من حكاياتك الكثيرة عنه.

- في هذه السرايا ظل الوجيه «زياد» سنوات طويلة غير قادر على

ترك مخدعه. أصبح قليل حيلة، يتمنى الموت كل ليلة. هذا هو الموت البطيء.

كان «بهاء»، وهو يرتب أوراق الشحناء الطويلة، قد تذكر حكاية سمعها مرة واحدة. وقف عندها يستغرق في تفاصيلها القليلة، يمدها حتى تطوق رأسه من كل جانب، وتتدلى أمامه فتملأ عينيه. يستدعي وجه العجوز التي حكتها له وهو طفل، يكاد يرى الكلام الخارج من بين شفتيها، حين قالت له: لم ينكسر أحد في «الصوابر» قدر جدهم الذي خطف طفله أحد أجدادنا.

وسألها صبي يومها: كيف خطفه والسرايات لا تخلو من أهلها؟

ردت في ثقة، وكأنها قد سمعت بأذنيها، ورأت بعينيها، وحكت كل ما جرى لم يغادرها منه شيء: انتهز فرصة انشغالهم بموت جدتهم، وانقض مع رجاله على السرايا، وليس فيها سوى خدم قليلين تمكن منذ اللحظة الأولى أن يخرسهم.

لكن المرأة أخفت عنهم أن الخاطف مات مخصيًا. وأطلع «بهاء» شريكه «عبد القوي» على ما يفكر فيه، فقال: لن تحين فرصة أفضل من يوم جريان الانتخابات. لكن «بهاء» رفض هذا، وقال: سيأتيه أهله من كل مكان، وربما بقي بعضهم داخل السرايا أو حديقتها.

لم يجد «عبد القوي» ما يقوله فلاذ بالصمت، وغاص في هواجسه، مستعيدًا في هذه اللحظة أيام السجن الكئيبة، ولم يسمع جيدًا «بهاء» وهو يقول: نسرق المال والذهب، ونخطف الطفل.

انتبه «عبد القوي»، لكنه لم يميز كل ما أُطلق نحو أذنيه. رفع رأسه،

فتساقطت من عينيه صور السجن، وتساءل: ماذا؟

أعاد عليه «بهاء» ما قاله، فاغتصب ابتسامة من قلب مخاوفه، وقال: تريد ضرب عصفورين بحجر؟

- خمسة عصافير، اليوم الطفل والمال، وحين يقترب موسم الحصاد سنحرق الزرع وكل ما في الشونة من غلال، وأخيرًا سيأتي الدور على العصارات والطاحونة.

- يغيب العقل مع امتلاء النفس بالانتقام.

- لم يكن بين العائلتين سوى هذا منذ قرون، لعبة القط والفأر وصلت إلى جيلنا، ولا بد لنا من نزول الميدان.

لعن «عبد القوي» الكل في سره، لكنه نطق: أنصح بعدم التسرع في أي خطوة.

وأعاد «بهاء» على سمعه ما أوصى به: ليكن بيننا وبين الفاعل حجاب غليظ، فأنا مثلك، لا أريد العودة إلى السجن، إنما إلى القرية لأكون كبيرها في يوم من الأيام.

- يمكنك أن تكون الكبير عبر طريق آخر.

- أعرف ما يدور في رأسك، لكن صارت بيني وبين «الصوابر» مسافة طويلة جدًا، ليس لي مالهم ولا جاههم ولا عزوتهم. لا بد أن أقفز، بل أطير، لكن كيف؟ الأسهل أن أشدهم هم إلى الوراء.

كتم «عبد القوي» ضجره، وقال: أخشى أن نقفز نحن إلى الخلف.

امتقع وجه «بهاء»، وصرخ فيه غاضبًا: يبدو أنك صرت رجلًا

مرتعشًا.

- مَن لا يخاف لا يُخوَّف، وفرق كبير بين الجسارة والطيش.

لم يشأ «بهاء» أن يغضبه، وهو يعرف ارتباطه به، وإخلاصه له، فقال: صدقت، ولهذا أعتمد عليك، وإن نجحنا سأنقل إليك ملكية المقهى، ولن أطلب منك مرة أخرى الاقتراب من أي خطر.

سرت في أوصال «عبد القوي» فرحة لما سمع، ووجدها هو الآخر فرصة لا يجب أن يُضيِّعها، وعليه أن يحذر كي لا تُضيِّعه.

(15)

كان «ناجي» يجوب القرى منذ أول الصبح وحتى آخر الليل. يعود إلى السرايا مجهدًا، فيرمي جسده في مخدعه، ولا تمر دقائق حتى يكون قد سقط في سبات عميق. لم يكن الذين يصاحبونه أحسن حالًا منه. الكل يعود متعبًا، حتى الذين يمكثون في السرايا من الخدم والحراس والجناينى الذي أتى به «ناجي» ليشذب حديقتها يأتي عليهم الليل ليجدهم غاية في الإجهاد بعد نهار يقضونه في حركة دائبة لتلبية مطالب الواردين على السرايا.

الكل متعب، ولا تفكير يسري في رأس أحد منهم سوى أداء ما هو مطلوب منه في سبيل الحلم الكبير. وهل يوجد حلم أكبر من أن يمتد عنق كبير «الصوابر» ليرى القطر المصري كله، من أدناه إلى أقصاه؟!

كان خبر ما يجري في السرايا قد وصل كله إلى «بهاء»، ورأى أن اللحظة المناسبة للانقضاض على كبير «الصوابر» وقت أن يكون

خارج القرية، فهو يضطر إلى المبيت في أي من فنادق البندر البسيطة حين يتقدم به الليل وهو وسط مؤيديه، ينصت بلا ضجر، ويتحدث دون أن يلحن في القول.

استفاض في الأخذ والرد مع «عبد القوي» حول أسلم الطرق لتنفيذ خطته، وانتهيا إلى أن الأمر كله يجب أن يوكل إلى الفلاتية، فهم اعتادوا أن يؤجرهم الناس في الشرور، وهم يكرون ثم يفرون إلى حيث لا يصل إليهم أحد، لا سيما في هذه الأيام التي تنشغل فيها الشرطة بالانتخابات، وهم يمسكون عن ذكر اسم مَن دفع لهم، لتبقى الجسور معه موصولة، فيؤجرهم لمهمة جديدة، والاتفاق يكون مع كبيرهم، وقد لا يعرف أتباعه لمَن يعملون بالضبط، والأهم من هذا أنهم محترفون في القتل والحرق والسرقة، وقليلًا ما يخفقون.

وكان «عجب سيده» يعمل مع الفلاتية أحيانًا، حين يحتاجونه في فتح الخزائن المستعصية عليهم، فجعل منه «عبد القوي» رسولًا إليهم، وسأله: هل بينك وبينهم ثقة؟

- لم أكذب عليهم يومًا، ولم أخذلهم.

- المهم أن يكون كبيرهم يحترم كلمتك.

- هو يحترم مَن يدفع له.

ثم انتبه «عجب سيده»، وتوجه إلى «عبد القوي» سائلًا: هل أنت مَن ستدفع؟

- أنا مجرد وسيط.

- لمَن هذه العملية؟

- موضوع له علاقة بالانتخابات، وأنت تعرف أن المرشحين فيها كبار، يريد كل منهم أن ينتقم من الآخر.

ولاذ «عجب سيده» بالصمت، فواصل «عبد القوي»: إنها لحساب أحد الباشاوات، وهو سيدفع بسخاء.

- يريد أن يقتل منافسه.. أليس كذلك؟

- لا، ليس في الأمر أي دم.

وكان هو نفسه قد سأل «بهاء» عما إذا كان بوسعه أن يختصر كل هذا الانتقام في قتل «ناجي» فسخر منه يومها، وقال: إن مات فممن أشمت، وأشفي غليلي.أريد أن يموت بطيئًا، حين يفقد كل شيء تباعًا، ابنه وكل ما يملك، حتى السرايا، أنتظر اليوم الذي يخرج فيه منها.

صعد «عجب سيده» إلى الجبل، ليعرض على الفلاتية ما أخبره به «عبد القوي»، باعتباره وسيطًا من الباشا، ثم عاد بعد أيام ليقول: الرجال موافقون، لكنهم يشترطون الحصول على نصف أجرهم قبل البدء.

وافق «بهاء» شرط أن يلتزم الفلاتية بخطته، حتى يضمن نجاحها، وكان «عبد القوي» قد حفظها عن ظهر قلب، فحملها إلى «عجب سيده»، وطلب منه أن يأتي بكبير الفلاتية إلى البندر ليأخذ ما طلبه، لكنه ضحك وقال: هو هناك في مغارته، لا ينزل إلا لقتل أو حرق، ومَن يريد الاتفاق معه يذهب إليه.

وحين عرف «بهاء» نظر إلى «عبد القوي»، وقال له: ليس أمامي

مَن أضع فيه ثقتي غيرك.

نظر إليه في غيظ، وقال: نسيت حديثك عن الحجاب بيننا وبين الجريمة.

- هذا لو كنا سنؤجر عصابة من البندر وليس الفلاتية.

- إذا كان الأمر كذلك، فاصعد أنت إليه، فليس هناك مَن يشرح الخطة التي وضعتها أفضل منك.

- لا تنسَ أن الفلاتية يعرفون وجهاء القرى وعمدها، وربما يكون قد رآني ذات يوم، أو من بين رجاله مَن يعرفني.

أنجز «عبد القوي» المهمة، وعاد إلى «بهاء» قائلًا: سيتم كل شيء في موعده، لكنه حين عرف المقصود بالانتقام زاد من الأجر.

بلع «بهاء» ريقه، وسأل في لهفة: كم يريد؟

- أراد مضاعفته، لكني فاوضته حتى صارت الزيادة بقدر النصف.

تقبل «بهاء» الأمر على مضض، ثم رفع إلى «عبد القوي» مقلتين تسبحان في بحر من الامتنان الكاذب، وقال: سأنتظر الأخبار المُفرحة.

(16)

الأيام دوّارة، على محيطها الواسع يكون الماضي البعيد جدًا أقرب إلينا مما وقع بالأمس. ما جرى أيام أجداد الجدود بعيدًا هو نقطة قريبة، تكاد تلامس، عند خط المنتصف، أختها التي وقعت أمام عيون آخر جيل.

الأيام دوامة، تدور في سرعة شديدة، تدهس الساعات والدقائق والثواني، تلقي جديدها في القيعان البعيدة، وتدفع قديمها إلى السطح. يأتي ما مضى بعيدًا معه كل المخبوء، لآلئ كانت أو طينًا وعفنًا.

بعض الحكايات القديمة التي يظن الناس أن النسيان قد لفها، أو أن تذكرها ليس إلا فرصة لتحصيل تسلية أو عبرة، يمكنها أن تقفز بلحمها وشحمها، لتجري أمام أعين الحاضرين، كأنهم هم الغابرون، أو أن الغابرين قد عادوا على هيئة أخرى، لا تتبدل فيها سوى الأشياء.

(17)

لاحت في عيون «ناجي» أمارات النصر. انشغل الناس في القرى والبنادر أكثر بالانتخابات على يديه، وبان صدق تأييدهم له في عيونهم، ولأنه كان عارفًا بالفراسة ازداد طمأنينة إلى أن حلمه في أن يعلو بـ «الصوابر» حتى يلامسوا النجوم قد اقترب من التحقق.

كان «نوفل» قد نصحه بأن يكتب إلى بعض الجرائد في «القاهرة» مقالات حول إصلاح أحوال البلاد والعباد، وقال له: لا تكتب بوصفك مرشحًا للجمعية التشريعية، إنما لكونك معلمًا وفقيهًا وقاضيًا شرعيًا سابقًا.

عصر ذهنه، واسترجع كل معارفه، وملأ سطور أوراقه بعبارات بليغة، تحمل أفكارًا جيدة فهذا وحده رسوله إلى علاقة دائمة مع تلك الجرائد، والأهم أنها النافذة التي يطل منها على عِليَة القوم، ممن سيزاملونه في الجمعية. فوجئ بعد النشر أن هناك مَن انبرى لمناقشته فيما طرحه، وتوالت المقالات التي ترد على «ناجي الصابر»

وتمدح أفكاره، حتى لو اختلفت مع بعض جوانبها. وقرأ «محبوب» كل ما كتب، ثم نظر إلى «ناجي» وقال: هذا هو جناحك الثاني الذي يحط عليه الصوابر، وتطير بهم إلى أعلى. قهقه يومها، وقال: أخشى أن نسقط جميعًا في وادٍ سحيق.

وكأنه في هذه اللحظة كان يقرأ الغيب، أو يُفصح عن هاجس تضطرب به نفسه في الآونة الأخيرة، أو شعور تملك منه جعله يتخوف من الآتي. وقالت له «نوارة» وهي تحضنه بعينيها الوسيعتين: لا يجب أن يُنسيك مقعد الجمعية التشريعية شغلك هنا، وفي الوكالة، فهذا وحده هو الباقي لك، لا يستطيع أحد أن يأخذه منك، طالما كنت حيًا.

لكن كل شيء لم يبقَ على حاله. ففي الأمتار الأخيرة من سباق الانتخابات، وبينما كان يستعد لحصاد ما زرعه واعتنى به، وقعت الواقعة، فماتت الفرحة، وانقلبت حياته رأسًا على عقب، وسكنت الحيرة والأسى نفسه، وأدرك أن أيامه المقبلة لن تكون سوى عناء في عناء.

كان هناك شيء بغيض يحدث في الوقت الذي كانت الأصوات تُفرز فيه، لتؤكد ما توقعه أهل الدائرة، فيغتبط «الصوابر»، ويمدون أيديهم مصافحين كبيرهم، ويهنئون أنفسهم لأنهم أخيرًا، وبعد كل هذه القرون، سيفتح أحدهم نافذة على القطر المصري كله.

كان الرجال منهكون في هذه الليلة التي تجاور فيها الفرح مع الحزن، والانبساط مع الانقباض، وكان أولها لا ينبئ أبدًا بما جاء في آخرها. تحول الضحك إلى صراخ، والابتسام إلى دموع، وفارت

الدماء في العروق، وتطلع «الصوابر» للانتقام، لكن ممن ينتقمون؟

طرحوا السؤال من ألسنة جفّت من الأسى، لكن الآذان لم تحتوه. سرى في الشوارع التي امتلأت فجأة بالوحشة والخراب، وخرج إلى الزروع، ومنها إلى صفحة النيل، الذي كان يجري، كعادته، غير عابئ بالقلوب المفطورة، والنفوس الحائرة.

سأل أحدهم «ناجي» عمن يشك في ارتكابه هذه السلسلة من الجرائم في وقت واحد، فتطلع إليهم صامتًا. كان خرسه أثقل من أن يُزيحه كل شيء ينفجر داخله.

وكان قد أتاه خبر فوزه بعضوية الجمعية التشريعية بعد ساعات قليلة مما جرى له. لم يضنه حرق الزرع والمصانع قدر خطف ابنه «رضوان». لم يحزن لفقده فقط، بل لانتهاك حُرمة بيته على هذا النحو المهين. دخل اللصوص من نافذة خلفية بينما كانت الحديقة خالية من «الصوابر» الذين تجمعوا أمام مكان فرز الأصوات، مستعرضين قوتهم في وجه رجال الباشا.

الكل ذهب إلى هناك، حتى حارس السرايا، وأغلب أهل القرية، بمَن فيهم بعض «الجوابر». بينهم الذين آمنوا بضرورة طي صفحة الماضي، وهناك مَن تحسبوا للقوة التي سيحوزها «ناجي» بعد فوزه. أفراد منهم كانوا متفرجين، بينما تنبض قلوبهم بأمنية واحدة وهي خسارة غريمهم الانتخابات.

وزع الذاهبون أنفسهم على ثلاثة قطارات تتابعت مواعيدها، وهبطوا إلى البندر لحماية أصواتهم، ثم الاحتفال بفوز ابن قريتهم. وحين مال الفرز لصالحه ضجوا بالفرح. تعانقوا، وصافحت العيون

العيون، وصرخت الأفواه من فرط السعادة الغامرة.

بينما كان هذا يجري، استباح الفلاتية السرايا، وكانوا يعرفون ما عليهم فعله، بسرعة ودقة ومهارة مَن عركته التجربة فتعلم ألا يترك خلفه أثرًا يدل على هويته. تركوا للمكلوم «ناجي» حيرة تنهش روحه. في غابر السنين عرف جده مَن خطف ابنه، وصعد خلفه الجبل، لكنه عاد دونه، ومات حزينًا عليه. اليوم هو حتى لا يعرف من أين يبدأ؟

أبلغ «محبوب» قسم الشرطة بما جرى، وجاء ضابطان وخلفهما كثير من العساكر، عاينوا الزرع المحروق، والمصانع التي خربت، وفحصوا السرايا التي لم يعد الوليد يطلق فيها ابتساماته العذبة، ثم قالوا: لا يقف وراء كل هذا سوى الانتقام.

وتطلعوا إليه لينبئهم بشكوكه، فوجدوا ذهنه سائحًا في ظنون عدة. أنصتوا إليه، ووعدوه بأن يبذلوا قصارى جهدهم في التوصل إلى الجُناة، وتركوه يبكي ضياع ابنه، وإن كانت دموعه لا تذرف، إنما تسري في شراييه.

لم يجد أحد يفكر معه في حل هذا اللغز أفضل من «نوفل»، الذي حرص طوال أيام الانتخابات على الابتعاد عن السرايا، حتى لا يشك فيه غريب.

ما إن رآه، حتى قال له: هذه أول مصائب السياسة.

وكان هو مَن دفعه إلى هذا الدرب، فهمّ أن يدافع عن نفسه، أو على الأقل يواسيه، لكن «ناجي» واصل: أنت طريد بسبب السياسة، وأنا

ضاع مني ولدي، وكثير من مالي.

مصمص «نوفل» شفتيه، وسأله: مَن أدراك أن كل هذا كان بسبب السياسة؟

- وهل هناك غيرها؟

- طبعًا غيرها. أنت لك منافس واحد، والانتقام من ابنك أو مالك لن يفيده، ولو كان يضمر بك شرًا، لتخلص منك أنت شخصيًا قبل يوم الانتخاب، لا سيما بعد أن أدرك أن الكفة تميل إليك، فهذا فقط ما يفيده، شرط أن يحكم تدبير الجريمة، فلا تساور الشكوك أحد فيه، أو لا يثبت أحد دليلًا على إدانته.

- مَن يا ترى فعل بي هذا؟

- طالما حكى لي زبائني، وهم يقلبون الطواقي ويقيسونها على رؤوسهم، عن الأحقاد القديمة التي تسكن بيوت هذه القرية وشوارعها، وحتى غيطانها.

- هل تقصد..؟

- لم يخرج الأمر عن غرمائكم.

قالها في ثقة، ثم شعر بأنه فتح بابًا لفتنة جديدة، فواصل: هذه مجرد ظنون، وفي كل الأحوال، أنت رجل قانون قبل أن تكون رجل سياسة وصاحب أملاك، والكل يُعوّل على حكمتك.

أرسل «ناجي» ناظريه إلى بعيد، وتنهد في حرقة وقال: أكثر ما يشغلني الآن هو استعادة ابني المخطوف.

(18)

لم يستطع «بَدُور» كتمان ما يعرفه. لم يبلغه «بهاء» صراحة بما ينوي فعله، لكن ما إن رأى الدخان يصعد إلى جوف السماء من الزرع والمصانع، وتوقفت الطاحونة عن النباح، ثم عرف نبأ خطف «رضوان»، حتى همس في أذن امرأته: لم يخلُ «الجوابر» بعد من قادر على أن يثأر لهم.

وتطلعت إليه مستفهمة، فحكى لها ما أدركه. ولأنها كانت تعرف اتصاله بـ «بهاء» صدقت ما خمّنه، بل شاركته ما يفكر فيه، وقالت: الأمر واضح كالشمس.

وهمست في أذن جارتها عند الظهر حين جلستا عند عتبة الدار كعادتهما، وطلبت منها أن تكتم حتى عن زوجها، لكنها لم تستطع إغلاق فمها عما سمعته، فهمست به إلى زوجها، الذي نقله إلى صاحبه، ولم تمر سوى أيام حتى كان كثير من «الجوابر» قد أحيطوا علمًا بمَن يقف وراء ما جرى.

فزع منهم الذين قطعوا على أنفسهم عهدًا بفتح صفحة جديدة مع «ناجي»، وكذلك الذين أرادوا هدنة طويلة بعد أن أدركوا أن المنازلة التي طالت انتهت إلى غير صالحهم هذه الجولة. استعادوا الحكايات القديمة المسكونة بالشر المستطير، وتذكروا ما حكته لهم، وهم صغار، العجوز التي استمالها «عمر»، وأدركوا أن عليهم المبادرة بإبراء الذمة، قبل أن يصل خبر ما جرى إلى «ناجي» فيقصدهم جميعًا بالانتقام.

سأل أحدهم بعد أن تداولوا الأمر: لماذا نفتح بابًا قد لا يبلغه

«ناجي» أبدًا؟

رد آخر: لا تسقط في أوهام تصور لك أنه غافل عنا، نحن أول مَن داروا في ذهنه حين فكر في مرتكب هذه الجريمة.

رد ثالث: نحن أمام عينيه، وعيني «العمدة» يعدون علينا أنفاسنا، ويعرفون أننا صرنا أضعف من أجنحة البعوض.

وصدم ما قاله البقية، لكنهم كانوا يدركون بالفعل أن قدرتهم على المنازعة قد تراجعت، وليس أمامهم من سبيل سوى تحمل ما على المنهزمين من أعباء، أقلها التسليم والاستكانة والصبر. وزادت في نفوسهم الريبة فكاد كل منهم يصرخ: خذوني. وزاد الضغط على النفوس المهيضة، فاتفق اثنان منهم على الذهاب إلى السرايا، ليخبرا صاحبها بما علماه، فيضمنان النجاة من انتقامه. وكان معهما رجل ثالث، لكنه فضل ألا يذهب مثلهما، وأن يظل متجنبًا الوقوف في وجه العواصف.

وسمع «ناجي» الرجلين فامتقع لونه، وسأل في لهفة: أين يعيش «بهاء»؟

لكن أيًا منهما لم يكن يعرف؛ لأن «بَدُور» لم يخبرهم سوى عن المنتقم الخفي، الذي خرج من السجن، ليثأر لنفسه، ويُفهم أهله من «الجوابر» أنه يعيد إليهم كرامتهم المستباحة. أراد الرجلان الاكتفاء بإبلاغ «ناجي» بما عرفاه، وأن يمسكا عن الخوض في المزيد، لكنه مارس عليهما مهارته كقاضٍ سابق، وحاصرهما بأسئلة مفاجئة ومكررة بعبارات جديدة، حتى ضيّق عليهما الخناق، فلم يجدا بُدًّا من الإتيان على ذكر اسم «بَدُور» جاسوس «بهاء».

وكان الثالث قد طلب من الرجلين اللذين قررا الذهاب إلى إبلاغ «ناجي» ألا يدلاه على «بَدُور» حتى لا تتسع في رأسه دائرة الشك لتشملهم جميعًا، ويكتفيا بأن يبلغاه بأنهما قد سمعا من «أم بهاء» رغبة ابنها في الانتقام وقت أن كانت تزوره في سجنه، لكنهما استبعدا أن تكون لديه قدرة على فعل شيء.

وما إن عرف بذهابهما إلى «ناجي» حتى سارع هو إلى «بَدُور»، وطلب منه أن يغادر القرية على الفور، وقال له: لا تذهب إلى محطة القطار، ولا تركب الماء، إنما عليك أن تشق طريقك بين زروع القصب لتأخذك إلى محطة أو مرسى قرية مجاورة.

وفعل «بَدُور» ما نُصح به. وصل إلى بندر «أسيوط» وتوجه على الفور إلى المقهى، وهمس في أذن «عبد القوي» ليُعرِّفه بنفسه، ثم قال: أريد مقابلة «بهاء» بيه على الفور.

ارتجف قلب «عبد القوي»، وسأله في خوف: هل جرى شيء؟

اقترب أكثر من أذنه، وقال: عرف «ناجي» مَن فعل به كل هذا؟

ترك «عبد القوي» المقهى لصبيانه، وسارع نحو بيت «بهاء» فوجده جالسًا في الصالة يطرد آثار الخمر التي أثقلت رأسه في الليلة الفائتة، بينما كانت الخادمة تدس الطعام في فم ابنه. ما إن فتح الباب ورأى «بَدُور» حتى اجتاحه خوف أطار ما تبقى من سُكْر، وبادره في فزع: منظرك لا يبشر بخير.

طأطأ رأسه، وقال: انكشف أمرنا.

أمسك كتفه في عنف، وسأله: هل تابعك أحد وأنت قادم إليّ؟

أطلق من فمه صوتًا ينفي فيه هذا، فقال له: اجلس، واحكِ لي كل شيء بالتفصيل.

ورمى إلى أذني «بهاء» كل ما جرى، وهو ينصت إليه، وينظر إلى «عبد القوي» بين حين وآخر. فلما انتهى «بَدْور»، قال «عبد القوي»: لا يجب أن نبقى حتى يُقبض علينا.

لكن «بهاء» قلل من مخاوفه، وقال: أخبرنا «بَدْور» بأنه لم يبلغ أحدًا بمكاننا، وسيبقى معنا هنا.

كاد «عبد القوي» يلعن غباء «بهاء»، لكنه كتم ما يريد قوله، واكتفى: يبدو أنك نسيت أن «ناجي» صار اليوم من كبار القطر المصري كله، ولن يعجز عن الوصول إلينا في أي بلد كان.

هجم الفزع فطار ما تبقى من خمول في رأس «بهاء»، وسأل «عبد القوي» في لهفة: ما العمل؟

- ليس أمامنا سوى خيارين: السجن أو الجبل.

- لا يمكن العودة إلى السجن، كما أن الجبل سجن آخر.

- سجن مفتوح على السماء والرمل، أفضل من العنابر والزنازين الخانقة المظلمة.

وسكن الهلع نفس «بَدْور» فراحت أسنانه تصطك، وسأل: هل تتركوني أنا للسجن أو القتل؟

ضربه «بهاء» في صدره، وقال: بعد كل ما عرفته لا يمكن إلا أن تكون معنا، حتى لو لم ترغب في هذا.

انقبض صدره، وسأل: وزوجتي وأولادي، ما مصيرهم؟

لكزه «عبد القوي» في كتفه، وقال: كثير ممن سكنوا الجبل لهم زوجات وأولاد، لكن المضطر يركب الصعب.

وقال «بهاء»: الشيء الوحيد الذي يُصبِّرني الآن أن معي ما أساوم به «ناجي»، إنه ولده الذي سيأتي لأجله إليّ ذات يوم زاحفًا.

وكان قد أعطى الطفل لامرأة فقيرة ترضعه مع ابنها الذي يكبره بشهر واحد لقاء مبلغ من المال، فأخذته متهللة، بل رأت فيه رزقًا جديدًا. أبلغها أنه ابنه، وأن أمه ماتت وهي تلده، فزاد إقبالها عليه كي تنال أجر تربية اليتيم، وقالت له: اطمئن، له نصف حناني، ونصف لبني.

ابتسم يومها، وقال لها: اعتبريه أمانة لديكِ إلى أن أسترده.

ابتسمت، وهي ترى يده تزحف إلى جيبه، وقالت: في عيوني يا بيه.

استملح أن تناديه باللقب الذي تمناه، وتطلع إلى نيل ما هو فوقه، لكن ها هو يستعد لرحلة خسران جديد، ويدرك أنه قفز إلى الفراغ. الشيء الوحيد الذي يخفف عنه وطأة ما انتهى إليه هو أنه استطاع أن يكيد غريمه، بل يفجعه ويكسره في يوم فرحته.

سار ثلاثتهم في اتجاه بيت «عجب سيده»، ليأخذهم إلى الجبل، لكنه قال لهم: لا بد من استئذان.

وضعه «عبد القوي» في حالهم العصيبة، وقال له: الوقت ليس في صالحنا.

اقترح عليهم أن يصعدوا معه حتى أحد النجوع، التي يتعاون بعض رجالها من العربان مع الفلاتية، وينتظروا هناك حتى يخبر كبيرهم. ولمّا بانت في وجوههم خيبة وخوف، نظر إلى «بهاء» وقال: لن يتخلى المعلم عنك، لا سيما بعد أن وفيت بوعدك له، وسددت كل ما طلبه من مال.

وهمس «بهاء» في أذن «عبد القوي»: إن قبلنا المعلم صرت في عصبة تحقق لي ما أريد بعد أن تهاوى عزم «الجوابر».

رماه «عبد القوي» بنظرة مملوءة بالعجب، وقال: لن يعمل الفلاتية لصالحك إلا إذا أعطيتهم مالك، يكفي أن تكون لنا بينهم الحماية.

وكان «بهاء» قد خبّأ أغلب ماله في فتحة بقدر ذراعين مفرودين في أحد جدران بيته، لا يعثر عليها إلا مَن يعرفها. جدار بناه بين غرفتين داخليتين بعد أن آل إليه البيت، وطلب ممن بناه أن يترك سردابًا ضيقًا يخفي فيه بندقيته، ثم خبّأ فيه النقود والذهب، وأغلقه بقطعة من الخشب أخذت لون الطلاء، ووضع فوقها لوحة تحوي خيولًا جامحة، وسائسًا يحاول عبثًا أن يروضها.

حمل معه إلى الجبل قليلًا من المال يستميل به قلب كبير الفلاتية، لا سيما إن طال بقاؤه معهم. وصدق ما توقعه «عجب سيده» فالمعلم رحب باستضافة الرجال الثلاثة، وقال لرجاله: لا يخلو جيب «بهاء» من مال.

وما إن وصلوا حتى طلب الاختلاء بـ «بهاء»، وقال له: تأكدت من «عجب سيده» أن أحدًا لم يدرِ بمجيئكم.

هز رأسه ليؤكد هذا، وقال له: لا تخشَ شيئًا يا معلم، الطريق أمان.

قهقه حتى ارتجف قلب «بهاء»، وقال: أنا فقط لم أعتد أن أثقل رؤوس رجالي بأمور جانبية.

سحب نفسًا طويلًا من لفافة تبغ دس في قلبها خيطًا من الحشيش، وقال: لتبقَ بيننا هنا باسم غير اسمك.

رفع «بهاء» وجهه إليه منزعجًا، وسأل: ما الداعي يا معلم؟

- خصمك ليس رجلًا عاديًا، ستساعده الحكومة، وهذه لها عيون قريبة منا، وقد تكون هنا بين رجالي ولا أعلم.

واختار له اسم «برهامي»، وقال له: اسم صديق الصبا الذي مات بعيدًا عني، ولم يرَ وجهه أحد من رجالي.

ثم التفت إليه، وسأله: هل تضمن «عبد القوي» هذا؟

- أضمنه برقبتي.

صمت المعلم برهة، ثم قال: أما «عجب سيده» فأنا أضمن لسانه.

(19)

أرسل «ناجي» يستدعي كبار «الجوابر» إلى السرايا. ما إن وصلوا حى صرخ فيهم: قدمنا السبت والأحد وحتى الخميس، وانتظرناكم سنين أن تردوا يوم الجمعة، لكنكم لا تريدون إزالة السواد من قلوبكم، وتصرون على بقاء الأحقاد القديمة.

تطلعوا إليه صامتين، لا يدرون بماذا يردون، فواصل: يبدو أن بينكم مَن يغذون الضغائن في النفوس، وصار بقاؤهم هنا عبئًا على

الجميع.

نطق أحدهم بصوت خفيض: بيننا محبون لك يا بيه، ومقرون بفضلك.

صمت برهة، وسألهم: وماذا عن الكارهين؟

رد واحد منهم: لا يكرهك إلا جاهل أو قليل أصل.

وقال آخر: أضنانا ما جرى لابنك، رده الله إليك سالمًا.

تفحص وجوههم جيدًا، ثم قال: لو كنت طائشًا مثل الخاطف لأطلقت الرصاص عليكم جميعًا.

رد أحدهم: الكل يعرف حكمتك، و..

لم يدعه يُكمل، وقال في غضب: الحكمة لا تعني التساهل، وأنا فكرت واخترت ما يريح الجميع.

تبادلوا النظرات، منتظرين إياه أن يكشف لهم عن نواياه، فقال دون مواربة: أعرف مَن فيكم يُحبنا، أو على الأقل لا يكرهنا، ومَن يضمر لنا الشر.

اهتزت قلوبهم خوفًا، ولاذوا بالصمت، فواصل هو: كل مَن فكر ولو لحظة في أن يقصدنا بسوء لا عيش له بيننا. ثم وقف فوقفوا. مد يده إلى جيبه، وأخرج ورقة مدونة فيها بعض الأسماء، مدها إلى الأكبر منهم، وقال: لا أريد لكل مَن ورد اسمه هنا أن يبقى في «الصابرية».

ارتبكت أنفسهم حتى اهتزت لها أجسادهم، وتبادلوا النظرات من

جديد. فطن «ناجي» إلى ما يدور في رؤوسهم، فليس لأحد حق مهما بلغ جاهه أو ماله في أن يطرد أحدًا من بلده، لكن كثيرًا من الأمور تجري في البلاد كلها خارج القانون. ورغم أن «ناجي» رجل قانون سابق، وجد نفسه أسير مشاعره في هذه الأيام، وكيف له أن يفكر على مهل، كعادته، في هذا الكرب الشديد، الذي لم يدر بخلده يومًا أنه سيهجم عليه، ولا يدع له أي فرصة سوى أن يضرب بيديه وقدميه ورأسه دافعًا إياه عنه، بأي طريقة كانت.

عاد ينظر في عيونهم، وقال في صرامة: ليس لدي شك في أن المجرم «بهاء» لو لم يجد مساعدة من بينكم ما تمكن من تنفيذ جريمته.

وهمّ أحدهم أن يفتح فمه، لكن «ناجي» حسم الأمر: كل ما لهؤلاء عندي أن أستمهلهم حتى بيع بيوتهم وأرضهم، ولهم أن يشتروا غيرها في أي من القرى الأخرى.

وكان قد فكر في أن يربح أول جولة في الهجوم المضاد على «بهاء»؛ لأنه يعرف أنه ما أقدم على فعلته الشنعاء تلك إلا مدفوعًا بالانتقام لعائلته، أو مستجيبًا لأوهام أنه كبيرها وعليه أن يرد لها ما يراها كرامة ذبيحة. عاد ورفع عينيه إلى عيونهم، وقال: حتى لا يُقال إنني بدأت مشواري السياسي بالظلم سأشتري أنا البيوت والأرض بالسعر الذي تحددونه. وكان يُعوّل في هذا على أن يجد في رصيد الوكالة التجارية، التي لم تصل إليها الأيدي الآثمة، ما يكفي لبلوغ ما يرمي إليه.

وحضر «ناجي» أول اجتماع للجمعية التشريعية وهو شارد. كان

كل شيء حوله مفعمًا بالحيوية، وبدا الرجال وكأنهم يدقون أول أوتاد كفاحهم القادم ضد الاحتلال. بنصف ذهن أدرك صدق ما قاله له «نوفل»، وقدر كم هو رجل قد عركه النضال.

ظلت فرحته بما ارتقى إليه مسروقة، لا سيما أنه لم يكن يضمن أن تتمكن الشرطة من استعادة ابنه المخطوف. نعم، عرف مَن خطفه، وبمَن استعان، لكن أي عصابة هذه التي استأجرها لتلك المهمة؟ أي فجرة حرموا أمًا وأبًا من رضيعهما؟

كان يعرف أن عصابات الفلاتية تتناثر في الجبال من أدناها إلى أقصاها، لكنه لا يعرف بأي منها اتصل «بهاء». لم تبذل الشرطة جهدًا كبيرًا كي تعرف أن الجريمة من تدبير الهاربين في الجبال، إلا أنها يجب أن تحدد أي عصابة منها؟ وهذا يستغرق وقتًا، والوقت يمر على «ناجي» ثقيلًا.

وقالت له «نوارة» بعد أن شرح لها الموقف: حتى لو حددت الشرطة العصابة الخاطفة، فما الذي يضمن ألا يصاب ابننا بسوء خلال الهجوم، وقد يقتله «بهاء» انتقامًا.

كانت قد انخرطت في بكاء حار كعادتها منذ ضياع «رضوان»، وكان هو يتماسك أمامها، حتى لا يزيد انهيارها، فلما يختلي بنفسه يبكي في صمت، أو يكتم نشيجه الحار، دون أن يغمض عينيه خوفًا من أن تراه واحدة من الخادمات.

حاول جاهدًا أن يخفف عنها بمواساة لا تتوقف، فكانت تظهر له تماسكها، ثم تنهار وحيدة، غارقة في بكاء حرور. حتى «الجرامافون» الذي اشتراه لها ليواسيها ويسليها بالغناء، لم يفلح في

أن يجعلها تتلهى عن حزنها لحظة واحدة، أو يجعل الدموع لا تسح في أي يوم على خديها الذابلين.

كانت تجلس فوق السطح نهارًا، ترفع عينيها إلى النهر الذي يجري، لا تقف عنده طويلًا، فلم يعد مرآه يبهجها، لتعبراه إلى الجبل الذي يليه فيلوح لها متجهمًا مخيفًا مفتوحًا على القسوة والضياع. تمد يدها نحو الصخر والرمل، وتتخيل رضيعها هناك يبتسم لها في عذوبة، ويمد كفيه الغضتين إليها لتنجده.

في الليل تواصل النظر من نافذتها الشرقية، فلا ترى سوى ظلام كذلك الذي يسكن نفسها، ولا تسمع سوى نقيق الضفادع. وكلما تناهى إلى سمعها عواء ذئب يمرح هناك فوق الأحجار القاسية، أو يربض في مغارة، اهتز قلبها هلعًا.

وجدت نفسها تسأل «ناجي» ذات ليلة عن جده الذي خطفه أحد رجال «الجوابر»، فيجد في سؤالها فرصة ليطمئنها بعض الشيء، ويقول: صار من الوجهاء، وعاد ذات يوم إلى «الصابرية»، وزار مقبرة أجداده، ونزل في قصر «غنوم».

لكنها تسأل في انكسار: هل رأته أمه وقتها؟

- كانت متقدمة في السن، فلم يسعفها العمر، لكنك أنت لا تزالين في عز الشباب.

ثم ينتبه إلى أن إقراره ببقاء ابنه مخطوفًا سنوات طويلة يضنيها، فيقول: سأعيد ابنك رضيعًا كما هو.

احتضنت وجهه بعينيها، وقالت: أنا واثقة فيك، لم تخذلني أبدًا.

وعذَّبه قولها، إذ لم يكن هو نفسه واثقًا مما يقول، لكن لم يكن أمامه سبيل سوى أن يساعدها على تمرير الساعات العصيبة.

(20)

في أيام قليلة رحل كثير من «الجوابر». لم يقتصر مَن باعوا بيوتهم وأرضهم على أولئك الذين حددهم «ناجي» فهناك أيضًا مَن فضَّل الرحيل الآن، قبل أن يرحل غدًا. قال واحد منهم: لا يوجد ما يمنع خصمنا من الانقضاض علينا في أي يوم من الأيام.

وقال ثانٍ: اليوم عرض شراء البيوت والأرض، أما غدًا فقد يطردنا دون أن يدفع شيئًا.

وقال ثالث: إن بقينا هنا ستظل رؤوسنا منكسة أمام الناس.

ولم يكن «ناجي» قادرًا على الدخول في مساومات حول أسعار البيوت والأرض، فأسند المهمة إلى «محبوب»، وساعده «محمود»، الذي كان قد لزم داره بعد خراب المعاصر والطاحونة، يصارع شيخوخته التي هجمت عليه فجأة، تتغذى على الفراغ والندم.

تم كل شيء في هدوء، بعد أن أمهلهم «ناجي» أيامًا قلائل حتى يجدوا بيوتًا في قرى أخرى. اثنان منهم فضَّلا النزوح إلى البندر، لاحتراف مهن جديدة أقل شقاءً من الكدح في الأرض. واحد كان ابنه على أبواب الالتحاق بالأزهر، ففضل أن يحط رحاله الأخير في «القاهرة».

وقال أحدهم، بعد أن عرف أين يذهب المرحلون قسرًا أو اختيارًا: آن الأوان أن نعرف شتاتًا ذاقه «الصوابر» قبلنا.

ونظر إليه آخر، مسترجعًا كل ما جرى، وسأل: هل لنا عودة مثلهم؟

لكنه سمع قهقهة عالية، ثم جاءته الإجابة بصوت كسير: نحن نردد الحكايات لكن لا نُخلص للوعد مثل «الصوابر».

ولما وجد خيبة الأمل قد اكفهرت لها وجوه الرجال، قال: ربما يأتي من أحفادكم مَن يقتله الحنين إلى شوارع دب فيها أجداده، ومقبرة تحوي موتاهم.

وتدخل ثالث، وقال: لا تنسوا أن بعضنا مستمرون هنا، وسيتناسلون ويكثرون مع الأيام.

وعادت القهقهة، ثم انطلق الصوت: لن يكف «ناجي» عن الشدة واللين حتى ينتهي وجودنا هنا.

لكن آخر خالفه الرأي، وقال: مَن بقوا هو يأمنهم، وبعضهم صار فعليًا من رجاله.

واستيقظ الناس في «الصابرية» ليجدوا بعض أهلها قد غادروها، وهم يحبسون الدموع في مآقيهم. جاءت عربات الكارو والجِمال لحمل الأثاث. خرجت من الشوارع إلى الجسر، تقاطرت أمام عيون الفلاحين، فوقفوا تاركين هراوات فؤوسهم بين أصابعهم، وراحوا يتابعون الراحلين.

كان بين المتفرجين أجريّة ليس لهم بلد محدد، يأتون من كل مكان، ويتنقلون بين القرى كالطير الذي يسعى خلف ما يملأ به حويصلاته، ويعود إلى أعشاش هشة تشبه أخصاص البوص والجريد التي نصبوها سريعًا خلف المقبرة، تشاكسها الريح، ولن يبتعد اليوم

الذي تتهاوى فيه بعيد رحيلهم.

زعق القطار على محطة «الصابرية» مؤذنًا بوصوله. تطلعت إليه عيون السائرين خلف الجِمال والكارو. تمنى بعضهم لو كان قد ركب القطار ليأخذه إلى بلاد بعيدة جدًا، لا يعرف أهلها شيئًا عما جرى لـ «الجوابر»، لكن كانت الرغبة في بقائهم قريبين من مسقط رؤوسهم هي الأقوى. شيء ظل يشدهم نحو الشوارع التي ساروا فيها، والحقول التي أُنيخت فيها ظهورهم، ولم يكف بعضهم عن السؤال: هل لنا عودة؟

وقال إمام المسجد: لم يقصدهم «ناجي» بسوء، كلما مد إليهم يده ليصافحهم لسعتها نار غلهم.

وأتى المدرسون على ذكر ما جرى، فقال أحدهم: أنا شخصيًا أوذيت من آباء تلاميذ «الجوابر».

وقال آخر: بهم حماقة زائدة.

رد ثالث: بينهم عقلاء طيبون.

عاد الأول يقول: هؤلاء تركهم «ناجي» في بيوتهم وأرضهم، ولم يشأ أن يخلعهم من «الصابرية» بينما جد أجدادهم كان فيها.

تابع الفلاحون قافلة المغادرين، وهي تصغر في عيونهم كلما ابتعدت، حتى اختفت من عيونهم تمامًا، فعادوا يضربون الأرض بقوة، فيتساقط من رؤوسهم كل ما رأوه، وما تحيروا في إدراكه، وسط حياة تأخذ منهم وترد، وتضربهم يمنة ويسرة بلا رحمة.

(21)

لم يهنأ «ناجي» بعضوية الجمعية التشريعية، التي دفع من أجلها أشياء باهظة، فلذة كبده، وجزءًا كبيرًا من ماله، ووقتًا طويلًا قضاه بين الناس، وجهدًا بالغًا بذله حتى نحل جسده. كل هذا راح سدى في لحظة، فالحرب الكونية اندلعت في بلاد أوروبا، والمحتل يريد أن يكتم صوت المصريين، فأصدر قرارًا بحل الجمعية.

لم تكن الجمعية قادرة على أن تترجم أشواق الناس وحاجاتهم كاملة، وكان صوت رجالها يدور في أرجاء قاعة الاجتماعات ثم يموت على بابها. حتى صرخ «ناجي» وهو يمسح وجوه زملائه النواب بعينين غاضبتين: بماذا يفيد النقد والتفنيد واستعمال العقل والمنطق، وما عساه أن يفعل النصح والإرشاد، أو حتى العشم والرجاء والتمني، إذا كان تبجح مَن يمكسون بزمام الأمر قد بلغ مداه، ويمدون ألسنتهم من أقصى مكان إلى أدناه، لتخرج من حلوق تحت عيون تنظر إلى الناس جميعًا في استعلاء واستخفاف واستهانة، وتقول لهم: ما نفرضه عليكم أطيعوه خاضعين.

وأعجب الحاضرون ببلاغته، وأثنوا عليها، فأوسعوا له مكانًا وسط الكبار، وقال له أحدهم بعد أن عرف كثيرًا عن مسيرته: آن لنا أن نساعدك في الحصول على البهوية.

وتحقق له ما وُعد به. قفز إلى أعلى، لكن أجنحته كانت مطوية إلى جنبيه، لا تشاكس نسائم، ولا ترقص في ريح، كانت منكمشة من فرط الحزن على ضياع ابنه. قال لمَن وعدوه بالبهوية: ليتكم تعدوني باسترداد ابني الضائع.

وكانت الشرطة لا تكف عن البحث. كلما فترت همتها، تدخل أحد

لينفخ فيها عزمًا جديدًا، لكنها لم يكن لها أن تتجاوز تعليمات ناظر الداخلية ونصيحته: لا بد من الحذر، هذه عملية تحتاج إلى جراحة ماهرة، حرصًا على حياة الطفل.

عاد الرجال الذين ظنوا أنهم ألسنة الأمة إلى بيوتهم، وفقد «ناجي» الشيء الوحيد الذي كان يُسرِّي عنه بعض الشيء. تحدث مع زملائه في الجمعية عن ضياع ابنه، فانتبهوا إلى أحزانه، تناقلوها بينهم فوصل الخبر إلى أصحاب التحكم والقرار فوعدوا بأن يبحثوا عن «رضوان» في كل مكان.

لم ينتظر هو ما سيفعلونه، أرسل رجالًا يعسون في الجبال، لكن لم يأته ما يبل ريقه. فالعسس سألوا عن «بهاء» بين العصابات المتناثرة في الكهوف، فقيل لهم: لا يوجد أحد بهذا الاسم بين كل العصابات التي عسسنا فيها.

وقال «نوفل» وهو يتعثر في الحروف: ربما هرب إلى بلاد الشام.

رفَّت على شفتي «ناجي» ابتسامة ساخرة، وقال: أو إلى السودان.

(22)

جبل بين النهر والبحر يجيل «بهاء» البصر فيه فلا يرى سوى الصخر والرمل، مثلما فعل «مهدي» في الزمن القديم. قفزت هذه الحكاية إلى رأسه، بينما كان يجلس وحيدًا فوق حجر ضخم مسطح. لم ينسَ مغزاها وإن كانت التفاصيل قد غابت من ذهنه. استعاد على مهل كل ما سمعه من الناس في «الصابرية»، وما بقي في نفسه من نشيد الشعراء على العزف المجروح.

رآه «عبد القوي» شاردًا فمضى نحوه، وقال: السجن الذي كنا نخشاه هناك، جاء إلينا هنا.

زفر في ألم، وقال: أحد «الصوابر» جعل من بقائه وسط الفلاتية محطة لبعث جديد.

وما إن بدأ يحكي له عن «مهدي»، حتى قال له: أدركت ما تفكر فيه، لكن الزمن غير الزمن، والرجال غير الرجال.

(23)

يتحرك عقرب الساعة إلى الأمام، يمضي على مهل دون ضجيج، بينما كل شيء، وكل أحد حوله، لا يتقدم هرولة وعدوًا، ولا حتى حبوًا أو مشيًا أو عومًا وسباحة، لكنه ربما يكون زحفًا. هو فعلًا زحف في القاع فوق وحل وصخور.

غرقت أحلام «ناجي» و«بهاء» معًا، رغم أنهما غريمان، ولم تطفُ على السطح لتراها العيون عائمة، يراقصها ماء النهر الجاري، أو تهزها الريح.

وحدهم الغواصون الذين يمكن أن يروها وهي تتمرغ حسيرة كسيرة في طين القاع، وتبكي أيامًا كانت فيها أجنحتها ترفرف في السماوات العُلا. يرونها ويرثون لها، لكنهم لا يقدرون على انتشالها من الغرق.

فمَن ذا الذي بوسعه أن يعيد إلى «ناجي» الشغف، وهو مكسور لضياع ابنه؟

ومَن يمكنه أن يجعل «بهاء» يمتلئ بيقين أنه قادر على العودة

مثلما كان «مهدي» في الزمن القديم؟

حتى الحكاية الممتدة في شرايين الزمن، تفقد الكثير من وهجها، فلا «ناجي» يعرف أين غريمه لينازله، ولا «بهاء» يعرف كيف ولا متى يستفيد من كبد خصمه الذي صار في يده؟

هذا مسجون في خواطره السوداء، وذلك مسجون في مخاوفه وهواجسه. السرايا على فخامتها سجن، والصحراء على اتساعها سجن، والوقت يمر ثقيلًا، والأحلام ملتصقة بالقيعان البعيدة.

(24)

مضت الأيام عصيبة. كل شيء أمكن تعويضه، جادت الأرض بزرع جديد، وتوالت مواسم الحصاد، وغمرت المعاصر والطاحونة، وامتلأت شونة الغلال، وعادت تنهب الجسور عربات الكارو التي يجري خلفها أولاد «أم الخير»، الذين صارت لهم بيوت وذراري، ودفعت المدرسة بمزيد من الحاصلين على الشهادة الابتدائية، واكتست رؤوس كل الرجال بطواقي صنعها «نوفل»، وولد جاموس وبقر اشتراه «ناجي» للفلاحين عجولًا صغيرة لتكبر وتلد ويزيد خيرها.

كل شيء استعاد زمنه، واندملت الجراح. جرح واحد فقط بقي ينزف، بل زاد نزيفه، معاندًا كل أسباب الشفاء. وكيف يشفى قلب مَن يؤرقه الانتظار المر؟ كان وجه الرضيع يطارد أباه في كل مكان. على جدران البيت، وفي المدى، حيث مسطح الزرع الأخضر، وصفحة النهر، وفجوة خفيضة بين نتوئين صخريين للجبل، تأخذ بصر مَن ينظر إليها نحو أفق بعيد غامض مخيف.

كان هو هناك يكبر بين يدي امرأة غير أمه، ليس في سرايا إنما في شقة أرضية بائسة، ليس بها سوى غرفتين تطلان على صالة ضيقة، ولها نافذتان تطلان على حارة جانبية، ينحبس فيها الهواء حتى يفسد، مخلوطًا بروائح الأطعمة الرخيصة وفضلات الآدميين وقمامتهم، وما تفعله الكلاب الضالة بجوار الجدران الكالحة.

كان يكبر بعيدًا أيضًا عن عين «بهاء» الذي كان حريصًا على أن يُبقي الطفل حيًا في أيام يموت فيها أطفال كثر بسبب الجوع أو المرض. كان يرسل «عبد القوي» بين حين وآخر ليطمئن على ابنه، الذي جاءت أمه لترعاه مع الخادمة، وكذلك «رضوان» ويعطي المرأة ما يجعلها تهتم به، إلى أن تحين لحظة استغلاله، كما رسمها «بهاء» في مخيلته، وكلما حدث صاحبه عنها، قال له: لديك وقت كافٍ لتحكمها أكثر من هذا.

واضطربت الأحوال في «القاهرة» بعد أن سكتت المدافع على جبهات أوروبا. دبت حركة في أوصال مجتمع كان ينتظر أن يُمنح بعض الحرية حين تضع الحرب أوزارها، فلم يجد سوى النكران. امتدت ألسنة الكبار مطالبة بالاستقلال، ووقف الناس خلفهم. تصارعت الإرادات فانفجر الغضب.

وهرع «نوفل» نحو السرايا، فوجد «ناجي» يجلس في الحديقة، مغمورًا بشمس الضحى العالي، يلقي رأسه إلى مسند مقعد تنغرس أرجله في تراب ليّن، ويغمض عينيه قليلًا شاردًا في أوجاعه. اقترب منه، وقال له:

- سأرحل إلى حيث يجب أن أكون.

رفع إليه عينين مثقلتين بالهموم، وقال: أنا قدرت ذلك.

وأشار «ناجي» إلى الحارس ليحضر مقعدًا لـ «نوفل»، فجلس ينظر إليه مليًا، وقال: طول الانشغال بالأسى يزيده.

تنهد «ناجي» في وجع، وقال: ليس باليد حيلة.

كان «نوفل» قد فكر جيدًا لِمَا جاء من أجله، فقال: لا تجعل حزنك يمنعك من أداء واجبك.

ضايقه ما سمع، فسأل بصوت حاد: ماذا عليّ أن أفعل؟

ابتسم «نوفل» وأجابه: لا شك أنك قد عرفت من الجرنال أن بعض زملائك في الجمعية يتصدرون المشهد.

هز رأسه في ضجر، وتساءل: ما أدراني ألا يكون نصيبي في هذا كنصيب أبي؟

- أبوك خاض حربًا، لكن ما نحن فيه مجرد احتجاج سلمي.

- جرنال أمس فيه الكثير عن شوارع تعج بالفوضى، ودماء بدأت تسيل، ومبانٍ تُحرق.

- أعرف، وأعذر الناس الذين يواجهون رصاص الإنجليز بصدورهم.

ثم نظر طويلًا في عيني «ناجي»، وقال: لعل دخول المعمعة ينسيك ألمًا ينهش روحك منذ سنين.

ازدحمت في رأسه آثار الأخبار التي قرأها في الجرائد، الممزوجة بهواجس وهلاوس كثيرة، وقال: ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وحين طالبه كثيرون، من بينهم إمام المسجد وبعض قساوسة النصارى و«ناحوم» رب الأسرة اليهودية الوحيدة في القرية، بأن يفيدهم عما يجب عليهم أن يفعلوه حيال الغضب الذي تتوالى أخباره من «القاهرة»، قال لهم في حسم: على كل منا أن يفعل ما يقدر عليه، ويحاذر.

(25)

الأيام دائرة مفتوحة، تبتلع أحلام الناس وآمالهم، ثم تغلق قوسها، وتقبض على ما فيها في قسوة فتخنقه، أو تعصره عصرًا، وتبدده، ليقول الضعيف: ذهبت أيامي شدى.

القوي وحده، مَن يرفع ساعده، ويضرب محيط الدائرة بقبضة قوية، فتظل مفتوحة، ليستمر انهمار الأحلام من جديد، أو تجد الأحلام الحبيسة متنفسًا لها، فلا يفقد أصحابها الأمل في تحقيقها، حتى لو عانوا كثيرًا في سبيل ذلك.

(26)

وجد «ناجي» في الغضب فرصة لتخفيف أحزانه. كان يقول لمَن حوله: لبيت نداء الأمة. وحين يختلي بزوجته، يقول بصوت خفيض، وكأنه يخشى أن يكون هناك مَن ينصت إليه، أو يتخيل أن هناك مَن يمد أذنيه إليه: لا أنكر أن رغبتي في قتل الحزن على ابني أكبر من خوف يملأ قلبي من أن أمضي في طريق أبي، وألقى المصير نفسه.

تمنى لو كان «نوفل» إلى جانبه في هذه الأيام، فطالما أشار عليه بآراء سديدة، استقاها من قلب الآلام المُبرحة التي عاشها، فاكتست

بالعمق والصدق. لكن الرجل خرج من الفرار. تمرد على الخوف الطويل، وقال: هذا وقت المغامرة.

ركب القطار من محطة «الصابرية» واللهفة تأكل نفسه على بلوغ ما ظل زمنًا ينتظره على مضض. كان يتمنى لو أن طيرًا عملاقًا أسرع من القطار مائة مرة يخطفه من قلب الصعيد ويلقيه في أي من شوارع «القاهرة».

قبل السفر، نظر إلى «ناجي»، وقال: آن الأوان أن يسكن الزاوية مَن يستحقها.

رفع «ناجي» عينين تفيضان بالامتنان إليه، وقال: شرفت الزاوية بغبار قدميك.

وحين رافقه إلى محطة القطار كي يودعه، كان آخر ما قاله لـ «ناجي»: ربما أراك مصادفة وسط الغاضبين في شوارع «القاهرة».

ذهب «ناجي» إلى «القاهرة» بعد أيام، لكن مكانه لم يكن ذلك الذي اختاره «نوفل»، إنما بين كبار زاملهم في «الجمعية التشريعية». لم يكن في الصف الأول، لكن موقعه سمح له أن يسمع ويرى ما بوسعه أن يعطي الحكاية التي تنتظره في «الصابرية» فصلًا جديدًا مختلفًا.

وملأت الأخبار الصحف مصحوبة بصور الذين يقفون أمام الناس، مدفوعين بعشرات الآلاف من الأكف، التي تقبض على أمل في الحرية. كان «ناجي» بينهم، صورته واضحة، وبعض كلماته منشورة بين كلام الوجهاء. ووصلت الجرائد إلى «الصابرية» بعد أن تسلمها كالعادة ناظر محطة القطار من بائعها الذي يتنقل بجوف العربات في

خفة شديدة بين الركاب. ولمّا لمح الناظر صورة «ناجي» إلى جانب علية القوم صرخ فرحًا، ونادى على الواقفين في المحطة فهرعوا إليه، ليريهم ما رأى.

تداول الناس الخبر، فوصل أسماع معلمي المدرسة، فأرسلوا إلى السرايا طالبين الجرائد، فحُملت إليهم. عرف الناس فتوجهوا إلى المدرسة طالبين أن يُقرأ لهم ما هو منشور، فلمّا سمعوا امتنوا للمكانة التي بلغها ابن قريتهم. ووسط الحاضرين كان بعض «الجوابر»، فمال أحدهم إلى أذن الآخر، وهمس: صار أكبر مما توقعنا.

غمزه في كتفه، وقال له: اصمت.

ولما اختليا بعيدًا عن الواقفين، عادا إلى ما بدآه، فقال الأول: لا يمكن لعاقل أن ينطح الصخر.

رد الثاني: وما الداعي إلى النطح أصلًا، بعد التصافي والتصالح.

ابتسم الأول في مرارة، وقال: لا يمكن أن تخلو عائلتنا ممن يخلص للحكايات القديمة، إن لم يكن بيننا الآن، فسيأتي يومًا ما.

نظر الثاني إليه في غيظ، وقال: نحن أولاد اليوم، فدعك من أشياء لا تجلب سوى المتاعب.

(27)

خمدت فورة الناس قليلًا، تباطأت الأقدام المستعدة للنزول إلى الشوارع، وتراخت السواعد المتوثبة، وتراءت أمام عيون يسكنها الترقب علامات الخيبة، لكن الثقة في الزعيم كانت كبيرة. دفعوه في وجه الريح، وراهنوا على ثباته. لم يدرك أغلبهم أن الجذر العميق

يحتاج إلى تربة صلبة، والجذع القوي تقيه الجذور المتلاحقة من غدر العواصف الهوجاء.

كان «ناجي» يؤمن بهذا، ويقول لمَن معه: لا يُهزم رجال تلاصقت أكتافهم، وتلاقت ظهورهم، لتكون عيونهم وصدورهم مصوبة إلى الجهات الأربع، يدفعون عن أنفسهم أي خطر من يمين أو يسار، ومن أمام أو خلف.

هز الجالسون رؤوسهم مستحسنين ما سمعوا، وقال أحدهم: لا تُهزم عصبة يتفانى أفرادها في الإخلاص لما يؤمنون به، ويكون بينها بذل وإيثار.

لكن النفوس لم تبقَ على حالها، والعدو كان بارعًا في أن يمد أذرعه بين الأكتاف والظهور، فتباعدت قليلًا، لكن هذا كان كافيًا ليهتز اليقين في النصر الحاسم. وبينما كان «ناجي» مهمومًا بما يسمعه ويراه، نشرت الصحف أخبارًا عن غضب النهر في «السودان»، وهجوم فيضان الخريف المخيف، فركب على الفور حنطورًا إلى محطة القطار ليستقله عائدًا إلى «الصابرية».

حين وصل قبيل الظُّهر وجد الناس يقفون على أطراف أصابعهم، ينظرون إلى النيل بعيون مملوءة بالرجاء، وينصتون إلى العجائز بينهم الذين ينقلون إليهم خبراتهم القديمة عن الفيضانات العاتية. كانوا يطلبون منهم أن يرموا نقاط الضعف في الجسر، ويسحبوا إليه مزيدًا من التراب، ويدقوا أمامه أوتادًا متينة. هرع الشباب ينفذون ما سمعوه، وأثارت فؤوسهم عجيجًا هائلًا، حملته الريح إلى نوافذ البيوت.

رأى أحدهم «ناجي» يهبط من القطار، فصرخ بصوتٍ عالٍ: البيه وصل.

انتبه الواقفون وانتعشوا، وسرى في أوصالهم اطمئنان، إذ لم تكن الحكايات التي سمعوها عما فعله أجداد «ناجي» قد جفت بعد، فهرعوا إليه، حاملين الفؤوس على أكتافهم. نظر إليهم من بعيد وابتسم، إذ كانت الطواقي التي صنعها «نوفل» تكسو أغلب الرؤوس، فبدوا وكأنهم جُند في جيش واحد، يستعد لمعركة حامية. إنها حرب ضد غضب النهر.

كان «ناجي» مطمئنًا إلى أن السرايا والشونة والمعاصر والطاحونة ومصنع الألبان في حماية الأسوار التي تطوقها، بجدرانها التي تتمدد الأحجار في أسفلها حتى رقبة رجل واقف. لكن منذ متى كان يشغله ما يملكه فقط؟ زرعه الواقع شرق الجسر لن ينجو من الماء مهما فعل، فهو مفتوح على فم الماء الواسع، أما غربه فيجب أن يعلو أمامه الجسر كي يكون في مأمن، ومعه المقبرة التي ليس لدى أي أحد استعداد لفقدانها، وهي مخزن الذكريات، حيث يرقد أبطال الحكايات التي تسكن الرؤوس والأفئدة، وتُحرك الألسنة.

ظل «ناجي» وسط رجال القرية، يتابع تعلية الجسر وتمتين جانبه المواجه للنهر، وأطلق الفلاحين يجمعون الخضراوات وثمار الفاكهة قبل أن يغمرها الماء، وحملتها عربات الكارو إلى البندر. أحصى ما في الشونة من أشولة القمح والذرة والفول والعدس، وهو يحسب ما عليه أن يمد بها الناس في أوقات الفيضان، بعد أن تغرق زروعهم، ويجلسوا في البيوت بلا عمل أو قوت.

كان يعرف جيدًا ما يفعله أجداده في مثل هذا الوقت العصيب، ولم يكن بوسعه أن يشرد بعيدًا عن ذلك المسار، مهما كانت آلامه مبرحة من ضياع ابنه، أو فقدان موقعه السياسي الذي أنفق لأجله مالًا طائلًا، ولا البرودة التي سرت في أوصال غضب نبيل كان بين متصدريه، ورأى مَن يفرغونه من مقصده تباعًا، ويحاولون تحويله إلى عقاب جماعي.

داس كل هذا بقدميه اللتين أرهقهما السفر، وراح يزيد من الاهتمام بأنباء موج يجري كالجبال، وقبله أولئك الذين هلوا على الجسر في الصباحات الباكرة، هاربين من قرى ستغرق حتمًا، حاملين على أكتافهم وظهورهم أشياء رخيصة بالية، ليس في بيوتهم الخفيضة غيرها، هي أثاث يعينهم على أيام التشرد في بلاد الناس.

كعادتهم في هذه الأيام يتقاطرون نحو المقبرة، بعد استئذان كبار «الصابرية» ليلوذوا بربوتها العالية، ويشرعوا في نصب خيام أو دق أوتاد لأخصاص من البوص. مقرات مؤقتة إلى أن ينحسر الماء، فيلملمون ما تبقى مما أتوا به، ويعودون إلى قراهم، لعلهم يجدون شيئًا فيها قد تبقى.

كانوا كلما قابلوا أحدًا من أهل «الصابرية»، قالوا له: أنعم الله عليكم بمَن يهتم بتعلية الجسر، وبناء الأسوار، وإلا صرتم مشردين مثلنا.

وبلغ قولهم هذا «ناجي»، فقال: رحم الله الأجداد، لم يُلههم شيء عن أداء الواجب.

وكان من بين القادمين رجل اسمه «سراج العشري»، كان طويل

القامة، عظامه العريضة يكسوها قليل من اللحم، كأنه عود قصب قدحته الشمس، له عينان عميقتان، يحسب المدقق فيهما أن العالم كله يستقر في قيعانهما البعيدة. له شفتان مقددتان لا تكفان عن التمتمة بكلام لا يسمعه غيره. لم ينصب لنفسه خيمة، ولم يُقم خُصًا، فوحدته وخفته جعلت أي بقعة من الأرض تحويه وتستره.

لم يكن من أهل القرية النازحة عن بكرة أبيها، وكل مَن سئل عنه منهم أكد هذا، وقال: وجدناه بيننا في الهوجة.

أما هو فرد على مَن سأله قائلًا: أنا أكون حيث يدفعني قلبي.

رآه الناس ذات ليلة يحوم حول الزاوية. يضع يده على بابها المغلق، فتعود غارقة في الغبار. يمد أنفه من فتحات في جدارها، ويسحب شهيقًا عميقًا، ثم يرطن بكلام غريب، لم يفهمه الذين مدوا آذانهم إليه ليلتقطوا شيئًا.

لم تكن عيون الخفر بعيدة عنه، فهيئته المختلفة كانت لافتة للانتباه، وما يهمس به الناس عنه لم يكن ليختبئ كل هذا الوقت. حكوا للعمدة عنه، فطلب أن يراه، فلمّا مثل أمامه، سأله على الفور: ما حكايتك؟

- غريب أنا، هارب من الفيضان كغيري.

سأله العمدة عن دورانه حول الزاوية فابتسم، وقال: رأيتها في منامي، فشددت إليها الرحال. ثم هز رأسه كأنه يستدعي كلامًا تائهًا، وقال: لم أفتح بابها، ولن أدخلها إلا بإذن.

سأله «العمدة» وهو ينظر إليه في تشكك: تستأذن مَن؟

- كبار البلد.

وأرسل «محبوب» إلى «ناجي» يستأذنه في السماح للرجل بسكنى الزاوية فوافق. وقال أهل «الصابرية» حين سمعوا الخبر: لا ينقطع عن قريتنا أهل الخير.

لكن هناك مَن ارتاب في الرجل، وتهامسوا متسائلين عما إذا كان مدسوسًا عليهم من الإنجليز، ليراقب «ناجي» ورجاله. حين رأوه يختلي بواحد من «الجوابر» خلف الزاوية في الليلة التي سبقت هجوم المياه، ساحت رؤوسهم في ظنون أخرى، وقال «ناجي» لمَن تحلقوا حوله من «الصوابر»، بينما كانوا ينتظرون الفيضان في قلق شديد: لا يمكننا نسيان أن رجلًا اسمه «حجازي» من «الصوابر» عاد إلى القرية متسللًا بعد أن خلت منّا سنوات، لتبدأ معه رحلة عودتنا التي تعافت مع الزمن، حتى صار كل شيء بيدنا.

رد عليه أحدهم: اطرده، واكسر وراءه ألف زير.

هز «ناجي» رأسه رافضًا ذلك، وقال: لا تنسَ أنني قاضٍ سابق، ولا يمكنني أن أحكم دون تحقيق وتدقيق.

وكان كبير النصارى يسمع الحديث، فقال: لا يطرد «الصوابر» مَن يحتمي بهم.

والتقط «محمود» الخيط، وقال بعد أن سعل طويلًا، حتى ظن الواقفون أن رئتيه ستخرجان من بين ضلوعه: ليس هذا وقته.

وكان «محبوب» ينصت إلى الحديث صامتًا، ثم تدخل: بعد الشدة نتحرى عن هذا العشري.

(28)

عند عصر اليوم التالي، جاء صوت صارخًا من بعيد يعلن هجوم الماء. زاغت عيون الرجال، وبلغت قلوبهم الحناجر، وتطلعوا إلى «ناجي» فرأوه ثابتًا. صعدت النساء إلى سطوح البيوت، فبانت لهن الأمواج تجري كالجبال، تجرف أمامها أشياء كثيرة، تقلبها في عنف، فتطفو ثم تغيب، ليظهر غيرها.

وسألت امرأة جارتها: هل ننجو؟

لم ترد، للوهلة الأولى، إنما أرسلت ناظريها إلى حيث اقترب الماء، ثم أجابت بصوتٍ عالٍ: يا رب.

وسمعتها جارتها، فكررت خلفها، وسمعت النساء الباقيات فرددن الدعاء، ووصل الصوت إلى الرجال فارتفع صوتهم بالرجاء، وهم ينظرون إلى السماء، رافعين أكفهم إليها. كانوا قد فعلوا كل ما يقدرون عليه، لكنهم لم يُقدروا أن الفيضان سيكون هذه المرة كاسحًا.

ونادى «ناجي» وهو يشير إلى الناس: سارعوا إلى الجبّانة.

كانت المقابر تطل عليهم ثابتة فوق الربوة. صرخ الرجال على النسوة فتركن سطوح البيوت، وهرعن وصغارهن إلى الجبّانة، يسحبون خلفهم الجاموس والبقر، ويهشون الأغنام والماعز حتى تكون أمام أعينهم، وتحمل النسوة أقفاص الدجاج والبط والإوز والأرانب. بلغوا الجبّانة قبل أن يضرب أول الماء أجسادهم.

صار الكل على الربوة، الذين ولدوا بالأمس، والطاعنون في

السن ينتظرون الموت. أصحاب السرايات الثلاث في القرية، على تفاوتها، وساكنو الأخصاص والأكواخ على تشابهها. جاء «الصوابر» و«الجوابر» و«آل بخيت» و«النصارى»، و«اليهودي» الوحيد جاء ومعه زوجته «إستر» وابنه وابنته. أبناء البلد والغرابوة. حطت أقدام الجميع فوق أرض صلدة ظلت تنتظر مثل هذه الأيام العصيبة، لا تنقص منه ريح شيئًا إلا وحملت إليه أخرى ما جعله يقف شامخًا في وجه الفيضانات المتكررة.

هنا صمتت الحكايات الأليمة، وكانت في حاجة إلى مَن يُخرسها منذ زمن طويل. سكتت الألسنة في الأفواه التي جفّت من فرط الخوف. ألّفَ الخطر بين القلوب، ولم تكن هناك فرصة لبرهة واحدة يحكي فيها امرؤ عن ضغينة تغزو نفسه، أو تستيقظ من رقادها، أو ترد عليها رغبة في ثأر كانت مختبئة في زحام الأيام، التي كرّت بلا هوادة.

كل عصي لان فوق الربوة. صار طيبًا كاليمام الذي حلق فوق الموج، وحط على القبور. طيبة صنعتها التقوى العابرة التي تقطع في حياة الناس فجورًا أصيلًا، لا يتخلون عنه إلا إذا رأوا الموت. كأن خطاياهم قد تساقطت في لحظة. رعب ملأ النفوس فألقت كل ما فيها من أثقال البغض.

خفت الأجساد حين سمت النفوس فوق التفاصيل، بعد أن أدركت أن هذه الأشياء الصغيرة من القيل والقال هي الشوك الذي يخز شعورهم طوال الوقت فيدميه، وليس هناك أكثر من وجع تصنعه كف تغرف من الشحناء، وتلقي بها في طريق الناس. إنه وجع من

كل اتجاه، جروح ضحايا المعارك، وانقباض نفوس الحاقدين، وقلق الذين يخشون المداهمة، ونكد مَن ينتظر شخصًا يسعى خلفه ليفر منه.

ورآهم «ناجي» على حالهم هذه، فتمنى لو بقي أثر الطوفان في النفوس طويلًا. التفّ الناس حوله يتطلعون إليه، فقال لهم: لا عاصم اليوم من أمر ربي.

كتم إمام المسجد قهقهة كانت تريد أن تجلجل، وقال: كأنه طوفان نوح يا بك.

هز «ناجي» رأسه، وقال: ما قرأته في الجرنال عما جرى في السودان يقول إنه طوفان فعلًا.

وانهمك الناس في إحصاء ما يخافون غرقه، إنها دورهم الخفيضة التي تركوها خلفهم. كان «ناجي» خائفًا على غرق سرايته وشونته. أما العصارات والطاحونة ومعمل اللبن فكان متيقنًا من أن الماء إن بلغها فلن يتجاوز سورها الحجري.

كانت «نوارة» قد ركبت الدوكار مع ابنتها «سميحة»، وجرت خلفها الخادمات، والجناينى وحارس السرايا. كانت متعبة، وتخشى أن يدفع الخوف الجنين الجديد في بطنها إلى الدنيا، بينما الحال في فوضى عارمة. ما إن وصلت إلى الجبّانة، حتى أدخلها «ناجي» الزاوية، بعد أن أخلاها «العشري»، وانضمت إليها زوجة «محبوب» وأولادها.

قال «العمدة» وهو يرى الماء قد غمر أول بيت على طرف القرية:

ما يجري فوق طاقة الحكومة.

همهم الواقفون، كاتمين السخرية. وحده «ناجي» الذي قال له في غضب: فيضان وراء فيضان، والبلاد عارية.

وقال «محمود» بصوت متحشرج من فرط الوهن: لا نملك سوى طريق الأجداد.

كان هذا آخر ما نطق به، فعند الفجر غادر الدنيا، ولم يتعب الرجال في دفنه، إذ وجدوه قد أسند رأسه إلى قبر جده الكبير ومات. شقوا له قبرًا إلى جواره، وواروه الثرى. وكانت «رضيّة» قد سبقته بشهرين إلى الدار الآخرة، فنجت من ساعات الخوف التي عاشها أهل «الصابرية» مع الفيضان.

(29)

نظر «ناجي» إلى الأرض، ثم رفع رأسه، فذهبت عيناه بعيدًا فملأ الجبل عينيه. كان هناك راسخًا، ينظر هازئًا إلى الماء الذي هجم بضراوة. تعلق بصره بالصخر الكبير، وأطال النظر، فظن الواقفون أنه كان يتمنى لو أمرهم بعبور النيل إلى الجبل قبل الهجوم.

كان هو لا يرى شيئًا سوى وجه «رضوان» مطبوعًا على الأحجار، يتسع ويتسع حتى يحجبها، وتشرق ابتسامته العذبة، ثم تضيع حين ينسكب عليه شعاع شمس العصر الحزينة مع اقتراب المغيب. وتمتم قائلًا: المغيب والغياب.

لم يسمعه سوى «محبوب»، فأدرك ما حلّ برأسه. اقترب منه، ووضع يده على كتفه، وداس عليها خفيفًا بإصبعيه، وقال له: سيعود

الغائب في يوم قريب.

رماه بنظرة يائسة، وقال: البعيد يقربه ربك.

(30)

كان عليهم أن يصنعوا ما يأخذهم إلى الطاحونة، ليأتوا بما يحتاجون إليه من دقيق. قلّموا النخيل الواقف على الطرف الغربي من المقبرة، ونزعوا أليافًا من الجذوع القديمة، ونسجوا حبالًا متينة. رصوا الجريد وربطوه، وفرشوا فوقه السعف والعراجين. حملوا الرصة إلى طرف الماء، واتخذوا من الشوم المتين مجدافين. ركب أحدهم، وجدف نحو الطاحونة، وعاد بشوال واحد من الدقيق، وراح يكرر رحلة الذهاب والعودة حتى يأتي بما يكفي.

ضرب الرجال أكفهم في طرف الماء، وقطعوا ما قدروا عليه من الطين، وحملوا الجواليس المتماسكة إلى منتصف المقبرة، ليقيم البنّاء فرن خبيز. غرفوا ماءً رائقًا، لتعجن النسوة الدقيق، ولم تمضِ سوى ساعة حتى راحت رصة البتاو تعلو، ورائحتها تداعب الأنوف، فترقص البطون فرحًا بطعام تاقوا إليه.

بدت الربوة بما عليها خلية نحل محاصرة، لا تقدر على الطيران، ولا ينفعها الأسى، وليس أمامها سوى الانتظار. رمى «محبوب» بصره إلى الماء الذي انحسر قليلًا، وقال: ما أغربه من سجن!

وكان أهل القرية والغرباء قد تعلقوا بعيون وجهائهم. استعادوا الحكايات القديمة، وذكروهم بما كان يفعله أجدادهم في مثل هذا الكرب. وفطِن «ناجي» إلى ما يدور في رؤوسهم، ولا يفصحون عنه،

فقال لهم: سنعيد بناء ما هدمه الماء.

كان أغلبهم لم يروا فيضانًا غزيرًا كهذا، فسألوا العجائز عما فعلوه في وجه مثله حين داهمهم قبل سنين طويلة، فطمأنوهم. قال أحدهم: في فيضانات أقل حمانا الجسر العالي.

لكن الفيضان كان قد علا حتى غمر الجسر، فلمّا راح الماء ينحسر كان هو أول ما بان. بدا جزيرة طويلة تتناثر عليها حفر مملوءة بالماء، تلمع في صهد الشمس، التي كلما كانت تشرق في صباح كل يوم جديد، كان جزء من الأرض المزروعة يطل بوجهه على الناظرين إليه، وهم في شوق إلى أن يضربوا فيها فؤوسهم حين تجف، ليعيدوا زراعتها، فتتواصل حياتهم.

ومع انحسار الماء كانت الأخبار تأتي من «القاهرة» حاملة الهدوء الذي تسرب إلى النفوس. خمدت الحناجر التي هتفت في الشوارع، وقبضات الأيدي التي دقت الهواء وهنت وتراخت. لم تبقَ سوى مناوشات الألسنة التي لم تتخلّ عن ترديد ما يريده الناس.

عاد القطار يجري بعد أن انجلت القضبان، وعاد الجرنال إلى يد «ناجي» يقرأ في إمعان متحسرًا على الآمال التي حملها الغضب، وانتهت إلى آلام شديدة. وقالت له «نوارة» حين رأته مهمومًا: لا تفكر إلا فيما عليك هنا. وكان ما عليه هنا، حيث قرية هو سيدها، كثيرًا، فجمع الفلاحين في الحديقة، ليخبرهم بما فكر فيه طويلًا. قال لهم بعد تفحص وجوههم: شمروا لنزرع الغيطان ونبني البيوت.

بدأوا بترميم سور المدرسة الذي حمى مبناها من الانهيار. اندفعت المراكب الشراعية لتحمل الأحجار من البر الشرقي حيث الجبل.

وكلما حطت عينا «ناجي» على حجر كان يرى فيه صورة ابنه. صار بوسعه أن يستعيد كل شيء، حتى رفات أجداده في نجع بحر، جاء بها، منفذًا وصية لم ينسَها مع الأيام.

كل شيء إلا الغائب الحبيب.

(31)

حين انحسر الماء تمامًا، عاد «ناجي» إلى السرايا. صعد إلى السطح، وملأ عينيه من الخلاء، حتى حطتا على سن الجبل، فطاردته الصورة من جديد. رآه هذه المرة صبيًا يمشي الهوينى بعيدًا، يهبط إلى شاطئ النهر، ويلقي جسده دون أن يخلع ملابسه، سابحًا نحو «الصابرية»، ثم رآه يهبط من القطار حين توقف على المحطة مطلقًا صفيرًا يعلن مجيئه، ولم تمر سوى دقائق معدودات، وهو شارد عند المحطة، حتى رآه يسرع فوق طين الأرض مقبلًا وابتسامة تعلو وجهه الذي استدار، يتوسطه شارب قد نبت على مهل.

انتبه إلى «نوارة» التي كانت تقف إلى جانبه تتابعه في أسى، وقال: سيأتي يومًا ما. فكفكفت دموعها الساخنة، وقالت له راجية: احكِ لي عن جدك «سالم» الذي عاد بعد غياب طويل. وكان قد حكى لها عشرات المرات، وهي تغوص في السنين التي رحلت، ووجيب قلبها يعلو، حتى يملأ أذنيه.

وفي صباح اليوم التالي جاءه «محبوب» يلهث، ثم تتابعت حروفه متقطعة لا يكاد يتبينها، وقال: جاءت إشارة تفيد بالقبض على عصابة من الفلاتية بينهم «بهاء»، وكان متنكرًا باسم «برهامي».

ارتدى «ناجي» ملابسه على الفور، وركبا «الدوكار» إلى المحطة، متوجهَين إلى قسم الشرطة. لم يكن يهمه من الأمر سوى معرفة أين ابنه، لكن الضابط أخبره بأنهم لم يجدوه. طلب أن يختلي بـ «بهاء» فأجيب طلبه، فلمّا انفرد به عاجله: أين «رضوان»؟

أنكر أن يكون على علم بمكانه، مستبقيًا ما يراها الورقة الأخيرة في يده، التي تجعل أمله في أن يحقق بعض ما يريد قائمًا. لكن إنكاره لم ينطلِ على «ناجي»، إذ أسعفته الفراسة على إدراك أن غريمه يكذب. حاوره وداوره، ساومه وفاوضه، لكنه أصر على الإنكار.

طلب من الضابط استجواب بقية العصابة، فأفادوا أنهم لا يعرفون شيئًا عن طفل ضائع. واحد فقط نطق حين حاصرته الأسئلة، ووعده الضابط بتخفيف العقاب إن دلهم على الغائب. كان «عجب سيده» الذي وقف يرتجف زائغ البصر. لم يقُل سوى إن «بهاء» قد ترك «رضوان» عند امرأة في البندر، لكنه لا يعرف مَن هي. ولما عادوا إلى «بهاء» أمعن في الإنكار من جديد، وقال: لم تكن سوى غجرية تمشي في البلاد وراء رزقها.

لم يقدر «ناجي» على مغادرة البندر. اكترى غرفتين في فندق قريب من القسم، وتردد عليه مرات، لكن لم يصل إلى أي جديد. وقال له الضابط، الذي رقّ لحاله: ربما يعترف في المحكمة. كان الضابط قد ضيّق الخناق على «بهاء»، زجره، وسبه بأفظع الألفاظ، وربطه إلى عمود في ساحة القسم، وجلده حتى انبجس الدم من راحتيه وقدميه وظهره، لكنه لم يلن أبدًا.

في أسى قال «محبوب»: ننتظر المحاكمة، فربما تأتي بجديد. لكن

«ناجي» كان يعرف جيدًا أن غريمه يفضل الموت على الاعتراف. كان ينظر إليه في غيظ وتشف وتحد، وكأن «رضوان» هو الشيء الوحيد الذي يبقي صفحة الماضي البغيض مفتوحة. لم يرضَ حتى بما عرضه عليه، وكان سخيًا. اقترب منه، وهمس في أذنه: دلني على ولدي وسأعطيك أرضًا وبيتًا في «الصابرية».

قهقه مغالبًا وجعه، وقال: ينتظرني سجن طويل، قد أموت فيه، ولا يشفي غليلي سوى أن تموت أنت من الحزن والانتظار والحيرة.

عاد يقول له متودّدًا: لك ابن اسمه «سيف»، عرفت مكانه، وأمك ماتت منذ شهر، أعدك بأن أعيده مع الخادمة إلى «الصابرية» وسأكتب الأرض باسمه.

لكن «بهاء» لم يلن، وقال: احسب ابني بين الذين تشردوا من «الجوابر» على يديك، حتى يكبر معه الثأر منكم.. سميته «سيف» ليقطع رقاب «الصوابر» أجمعين.

هدده «ناجي» وكان كاذبًا، بخطف «سيف» حتى يعود «رضوان»، لكن «بهاء» قهقه ساخرًا، وقال: حتى في هذه أنت الخاسر. افعلها، لتطولك فضيحة في القطر كله.

في المحاكمة، التي حضر «ناجي» و«نوارة» و«محبوب» كل جلساتها، برع «بهاء» في المراوغة. وحين نطق القاضي بسجنه عشرين سنة لم يُبالِ. رفع هامته حتى اعتلت جدار القفص، وأخرج لسانه لـ «ناجي» وقال: ستظل أنت سجينًا أيضًا في سرايتك.

جاب «ناجي» شوارع البندر، مستعينًا بأهله، يسأل الناس عن امرأة

ثربي طفلًا لم تلده. سألوا في المقاهي والأسواق والمساجد. طرقوا أبواب البيوت. جروا خلف كل سيدة رأوها تمضي مع صغارها في الشوارع، لكنهم لم يعثروا على أثر للغائب. قادتهم أقدامهم إلى أماكن الغجر، وملأوا عيونهم من وجوه أطفالهم، كشفوا عن صدور الصغار بحثًا عن كف حمراء، لكن لم يهتدوا إلى ما يريدون.

وعرف ما تبقى من أهله في سائر البلاد ما يضني كبيرهم، فشاركوا في البحث عن الغائب. جابوا القرى، ونزلوا إلى شوارع البنادر، وتعقبوا كل غجرية جاءت إلى قراهم، وعادوا كل مرة كاسفي البال.

لم يشأ أن يترك اليأس يقتله وامرأته، فقال لها: سأعلن في الجرائد، والعلامة التي تحط على صدره تيسر لنا الأمر. جدد الإعلان كل شهر، وكرّت الشهور فصارت سنينًا، دون أن يقطع الأمل.

حرص على أن يكتب في الإعلان الاسم كاملًا: رضوان بن ناجي ابن جعفر بن منصور بن خير الدين بن مهدي بن مالك بن عطا الله ابن سالم بن غنوم بن وهدان بن رضوان بن عبد القيوم بن خليفة بن عرفان بن سدّاد. فجاء الإعلان بمزيد من «الصوابر» المنسيين في سائر البلاد، لكنه لم يأتِ بالطفل الغائب.

لم يعد «ناجي» ينظر إلى الجبل بعد القبض على الفلاتية، إنما إلى حيث يتوقف القطار، ويهل ساعي البريد، ويمشي الناس فوق الجسر العالي، وتتوالى أحلام الليل وكوابيسه. وهمست خادمة في أذن «نوارة» أن تستعين بمَن تراهم يعرفون أبعد من الشرطة، وقالت لها: لا نخسر شيئًا إن استمعنا إليهم.

هزت «نوارة» رأسها، ثم ضغطت على «ناجي» كي ينفذ هذا. رفض

في البداية ونازعها، لكن إلحاحها الغارق في الدموع، جعله يسلك طريقًا ما ظن أبدًا أنه سيسير فيه. استعان بالعرافين، وجاء برجل يفتح المندل، لكن أيًا منهم لم يقطع بشيء ذي بال.

وحده بهلول اسمه «عبد الموجود»، جاء إلى القرية ذات صبح على حمار نحيل، منحه بعض أمل. جلس في البهو السفلي، وهو غارق في التسابيح، وقال: يبدو أنك لم تنصت إلى القوّالين جيدًا، فحين ضاع ابن جدك الكبير لم يسترح سوى لنبوءة شيخ الطريقة. ثم دله على رجل اسمه «حسن البهي»، وقال: أطلعه الله على شيء من الأسرار.

ركب «ناجي» القطار إليه، ومعه «عبد الموجود»، فلمّا صار بين يدي الشيخ، قال له، دون أن يكون قد سمع منه شيئًا: يعود الضائع، ودليله محفور على صدره، في يوم ماطر، لن ترى زخاته، ولن ينالك منه بلل.

نظر إليه بعينين غارقتين في الرجاء، وسأله: هل يكون هذا في يوم قريب؟

صمت الشيخ برهة، وقال: فيما نطقت به إجابة لا يغفلها رجل ذكي مثلك.

وقال «عبد الموجود»: في العبارة إشارة.

(32)

في طريق عودته تذكر «ناجي» عبارة كان قد سمعها من شيخه في الأزهر، لم ينشغل بها أيامها، أو يعتقد أنه سيكون بحاجة إليها. حفرت في ذاكرته حتى استعادها كاملة: «الحزن غير الاكتئاب، الأول

أنت تغلبه، وتجعله مطيّة لك يمكن أن تأخذك إلى تأمل عميق في الكون، وتصاريف الحياة. الثاني يغلبك، ويجعلك لا تفكر في شيء مثمر، إنما تتآكل نفسك، حتى يضيع من قدميك الطريق».

التفت إلى المجذوب، وسأله: هل في إشارة الشيخ ما يُطمئِن؟

أجابه وهو يروغ بناظريه بعيدًا: أما العودة فمحققة، وليس بالضرورة مَن ينتظر يكون من الشهود.

رفّت على شفتي «ناجي» ابتسامة حائرة، وقال: عزّفنا الماء بالماء.

لكنه في الحقيقة كان قد أدرك طرفًا مما كان يعنيه الشيخ «حسن البهي». بان هذا في قوله لزوجته حين عاد: لنهيئ الأمر لولي العهد، هكذا يفعل الملوك، وأصحاب الأملاك.

وعرض على «عبد الموجود» أن يسكن الزاوية مع «العشري»، لكنه رفض بشكل قاطع، وقال: لي فيها مقام، لكن ليس الآن.

قضى الأيام يعيد القرية إلى سابق عهدها. الجدران التي أكلها الفقر الطويل حتى قدر عليها الماء. الشوارع التي ضاعت ملامحها. المدرسة التي كان عليه أن يجهزها للمقبلين على العلم. المسجد الذي فارقه المصلون خلال أيام الفيضان العصيبة. الزاوية التي إن بقيت على حالها فوق الربوة، فهي بحاجة إلى ترميم جدرانها التي تآكلت، ودقّ أربع طلمبات تسحب الماء من الأعماق البعيدة، واحدة في بيته، وثانية عند المدرسة، وثالثة عند المسجد، ورابعة عند الزاوية.

ووجد نفسه ذات يوم يذهب إلى الزاوية وقد هدّه التعب. رقد إلى جانب «العشري». رمى إليه نظرة متشككة لكنه لم يقدر على

الجزم بشيء. غطس في نوم عميق كان في حاجة إلى أن يبدد به الأرق الذي أصابه طويلًا. استيقظ فوجد «العشري» ينظر إليه بعينين مملوءتين بالحزن. ابتسم وقال له: من الإشارة ولدت العبارة.

تطلع «العشري» إليه، فواصل: فهمت الآن قصد الشيخ، ولا يشغلني رؤية الغائب في عودته، إنما يهمني أن يرى كل شيء في أفضل حال حين يعود. رماه مَن يسمعه بنظرة ساهمة، أطلقت ألف فأر في صدره، وهو يستعيد حكاية «حجازي» لكنه لم يكن قادرًا على أن يتسرع بقرار يوقعه في دائرة الظلم، وهو لا يمكنه أن يملك ما يبدد هواجسه.

غلبه في هذه اللحظة ما تذكره من الحكايات القديمة عن جده الكبير «رضوان» الذي خطف الماء منه «نجع المجاذيب» فأعاد بناءه ليصبح «الصابرية». رأى أن عليه أن يمد القوّالين بشيء جديد يضيفونه إلى المسيرة الطويلة التي اختلط فيها الواقع بالخيال.

في طريق عودته إلى السرايا رأى عن بعد طفلًا قوي البنية، يصارع ثلاثة من الأطفال فيغلبهم. أسرع الخطى حتى بلغ المعركة. نهر الصغار فتوقفوا عن الشجار. ناداهم فامتثل المغلوبون الثلاثة له. الولد الغالب وقف مكانه لا يبرحه، ينظر إليه في عِناد.

سألهم عن أسمائهم، فعرف أن المغلوبين من «الصوابر»، بينما الغالب هو ابن لأحد «الجوابر» الذين ظلوا في القرية. سأل الغالب عن عمره، فأجابه في تثاقل. كان في عمر «رضوان» تمامًا. ربما وُلد الاثنان في اليوم نفسه، أو لا تفصل بين مجيئهما إلى الدنيا سوى أيام قلائل.

ملأ عينيه من الولد المُتغلّب. تدفقت في رأسه ظنون عجيبة. حين انسحب الولد من أمامه عائدًا إلى بيت أبيه، قال لنفسه: ربما يكون ثأر الصغار الثلاثة معلق حتى يأتي «رضوان».

وحكى ما جرى لزوجته فقالت له: لا تُحمّل الأمور فوق ما تحتمل. لكنه في هذه اللحظة كان قد صار منحازًا للإشارات التي تسكن كل شيء، وأي أمر حوله، فقال لنفسه بصوت خفيض: يبدو أن الجراح لن تندمل أبدًا في هذه القرية الملعونة.

وتوالت أمام عينيه صور الماضي. زاهية وباهتة. وجد نفسه مُستسلمًا لما قد يأتي، مُخلصًا للحكاية كلها، التي أدرك أنه، ورغم كل ما فعل في سبيل طي صفحة الماضي، ليس سوى أحد العابرين فيها، وأن بقاءها قائمة، تلوكها ألسنة الجدات ليسمعها الصغار فيحفظوها، وينشدها القوّالون على الرباب، هو قدر مقدور.

صعد إلى سطح السرايا. رمى بصره نحو الجبل والنهر والزرع والبيوت الخفيضة. سحت الدموع من عينيه. ملأ أذنيه عزف الرباب بلا قوّالين. صار هو القوّال. تنهد في حرقة، وجاء صوته مجروحًا بالغناء:

صابر والزمن غدّار

يعانــد اللي يريده

بيـده كاس مُر دوار

كل ما ينقص يزيده

فجاءه ردٌ بصوت ندي لا يعرف من أين ينبعث:

حزين وماشي في طريق

والخطو داس النهاية

مستني ييجي رفيق

يمد خيط النهاية